

إتحافُ الأنام

بتفسير سورة مريم
عليها السلام

تفسير مجمع
من أمهات كتب التفسير

جمع وإعداد
الفقيرة إلى عفو ربها
مفيدة محمد زكي البكر

إتحاف الأنام
بتفسير سورة مريم
عليها السلام

تفسير مجمع
من أمهات كتب التفسير

جمع وإعداد
الفقيرة إلى عفو ربها
مفيدة محمد زكي البكر

مقدمة

الحمد لله الذي نزَّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا.. الحمد لله، علَّم القرآن، خلق الإنسان، علَّمه البيان.. أحمده ربي بجميع المحامد.. وأصلي وأسلم على من أرسله داعيًا إليه وسراجًا في الأكوانِ منيرًا، ووهب له من فضله خيرًا كثيرًا، وجعله مقدمًا على الكل كبيرًا.. ولم يجعل له من أرباب جنسه نظيرًا.. ونهى أن يُدعَى باسمه تعظيمًا له وتوقيرًا.. وأنزل عليه كلاما قرر صدق قوله بالتحدي بمثله تقريرًا فقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] أكرم خلق الله وأعظم رسله محمد صلى الله عليه وسلم.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وصفوته من خلقه.. وأن القرآنَ خيرُ كتابٍ أُنزِلَ على خير نبي أرسل.

أما بعد،

لما كان القرآنُ العزيزُ أشرفَ العلومِ، وكان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وهو الحق المبين، أنزله على عبده ورسوله الأمين، ليكون هدايةً للإنس والجن أجمعين، يخرجهم من ظلمات الباطل والشك إلى نور الحق واليقين.. فمن استمسك به فقد اعتصم بالحبل القويم، وهُدِيَ إلى الصراطِ المستقيم ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: 15-16] ولو بذل الجميع فيه كافة الجهود ما وصلوا إلى كافة معانيه. ولذلك يقبل العلماء على التمسك بعلم تفسير القرآن. وقد كان أكبر أمنيتي منذ زمن بعيد دراسة تفسير الكتاب الكريم الجامع لمصالح الدنيا والدين وتدبر آياته، وأصبحت الهمة مصروفة الى ما تنصرف به الهمم العليا، فتحول اليأس إلى رجاء.. ودعوت الله أن أكون ممن أوتي الحكمة فيقضي بها ويعلمها للناس، كما قال ﷺ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالًا فسَلَّطَهُ على هَلَكَتِهِ في الحق، ورجل آتاه الله حكمةً فهو يقضي بها ويعلمها"[1]، عقدت العزم على تحقيق ما كنت أضمره. واستعنت بالله سبحانه وتعالى واستخرته ووهبت نفسي لخدمة العلم الشرعي عرضًا وتأصيلًا.. ومن أجلّ ذلك خدمة الكتاب العزيز الذي هو سبب الفلاح في الدنيا والآخرة.. ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 54] وجدت أنه عليّ أن أقوم بالبحث في علم تفسير القرآن، وذلك من أجل الاستزادة في هذا العلم، وأقدمت على السير في طريقي، لأنني أعلم أهمية علم تفسير القرآن، ودوره في رجوع المسلمين

1- رواه البخاري، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، رقم 73، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، برقم 816.

إلى كتاب الله حتى رزقني الله تعالى بفضله وكرمه –وله الحمد– ما عرفت به الحق من الباطل، والفاضل من المفضول، والصحيح من السقيم، والحديث من القديم، والسنة من البدعة، والحجة من الشبهة.. فلله الحمد والشكر والثناء الذي جعل كتابه هدًى وشفاءً ورحمةً ونورًا وتبصرةً وتذكرةً وعبرةً وبركةً وهدًى وبشرى للمسلمين.

ومن فضل الله علينا في هذا العصر أنّ الرَّكْبَ سائرٌ لم يقف ولم يفتر، وأن هذا الروح الكريم ما يزال يسيطر على المسلمين، وينتقل فيهم من جيلٍ إلى جيلٍ، يورثه الآباءُ للأبناء، وسيظل كذلك –إن شاء الله– حتى يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين، وهذا من الرعاية الإلهية لهذا الكتاب الكريم الذي تكفّل الله بحفظه وتخليده في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9] فإنه لم يحظَ كتاب في الوجود بعناية مثلما حظي به القرآن الكريم الذي كتبت حوله مئات الكتب وسيظل مورد العلماء.

والله أسأل أن ينفعنا بما علّمنا، ويعلّمنا ما ينفعنا، ويزيدنا علما.. كما أسأله أن يعم النّفع كلّ مسلم ومسلمة بهذا الكتاب، وأن يلهمنا جميعا الرّشاد والسّداد، وأن يوفقنا للعمل بكتاب الله في كلّ مناحي الحياة، دستورًا وعقيدةً ومنهجًا وسلوكًا.. وأن يهدينا إلى سواء الصراط؛ صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

وليكن رائدنا جميعا ما أخرجه البخاري ومسلم عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم: "خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ"[2]. وأسأل الله العظيم أن يجعلني من العاملين بالقرآن الكريم، وأسأله التوفيق والسداد لي ولكافة العلماء الذين سبقونا في هذا العلم الشريف، والله أسأل أن يتقبله بقبول حسن وأن يكون عملي فيه صالحًا، ولوجهه تعالى خالصًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبته الراجية عفو ربها ورضوانه

أم أيمن/ مفيدة محمد زكي أحمد البكر



2– الراوي: عثمان بن عفان. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 5027. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

تفسير سورة مريم

أسماء السورة:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ ﴿مَريمَ﴾ لاشتِمالِها على قِصَّتِها مُفصَّلَةً [3]. ومما يدلُّ على ذلك:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه، قال: "سورةُ بني إسرائيلَ، والكَهفِ، ومَريمَ، وطه، والأنبياءِ، هُنَّ مِن العِتاقِ [4] وهُنَّ مِن تِلادي [5]".

2- عن أبي هُريرةَ رضِي الله عنه، قال: "قدمتُ المدينةَ مهاجرًا فصليتُ الصبحَ وراءَ سِباعٍ [6] فقرَأ في السجدةِ الأُولَى سورةَ مريمَ، وفي الأُخرَى وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ [7].

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

بيان المكي والمدني:

سورةُ مَريمَ مَكِّيَّةٌ، وقيل: مَكيَّة إلَّا آيتينِ منها فمدنيَّتانِ وهما قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ﴾ [مريم: 58]، وقَولُه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: 71]. وقيل: إلَّا آية السجدةِ منها فمدنيَّةٌ. وقيل إنَّ السورةَ كلَّها مدنيةٌ. [8]

3- يُنظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي 305/1، تفسير ابن عاشور 58/16

4- العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقوله: العِتَاق الأُوَل: السُّوَرُ الَّتي أُنزِلتْ أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ. يُنظر: النهاية لابن الأثير 179/3، فتح الباري لابن حجر 388/8.

5- تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ قديمُ المِلك. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 388/8. أخرجه البخاري 4739. قال الكرماني: يريدُ أي: ابنُ مَسعودٍ تفضيلَ هذه السُّوَرِ؛ لِما يتضَمَّنُ مُفتَتَحُ كُلٍّ منها مِن أمرٍ غريبٍ وقع في العالَمِ، خارقًا للعادةِ، وهو الإسراءُ، وقِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ، وقِصَّةُ مريمَ، ونحوُها، والأوَّليَّةُ إمَّا باعتبارِ حِفظِها، أو باعتبارِ نُزولِها؛ لأنَّها مكِّيَّاتٌ. الكواكب الدراري- 177/17.

6- هو سِباعُ بنُ عُرْفُطةَ صحابيٌّ استعمَله النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على المدينةِ لما خرَج إلى خيبرَ وإلى دُومةِ الجندلِ. يُنظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر 682/2، أسد الغابة لابن الأثير 171/2.

7- أخرجه أحمد 8552، وابن حبان 7156، والبيهقي 4191 واللفظ له. قال الذهبي في المهذب- 815/2: إسناده صالح، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد- 122/2: رجالُه رجالُ الصحيح، وصحَّح إسناده ابن كثير في الأحكام الكبير- 154/3، وأحمد شاكر في تحقيق مسند أحمد- 229/16.

مقاصد السورة:

تحقيقُ العُبوديَّةِ، وتعظيمُ شَأنِ الرُّبوبيَّة، وتقريرُ مَبدأِ البَعثِ.[9]

الموضوع الأساسي الذي تعالجه السورة:

يدور على محور التوحيد ونفي الولد والشريك ويلم بقضية البعث القائمة على قضية التوحيد. كما تظهر كمال رحمة الله وعنايته بأوليائه وبعباده فيما يمنحهم من العطاء والخير ومنه نعمة الولد، وخصت نعمة الولد ردا على ما افتراه المشركون والنصارى من اتخاذ الله ولدا، كما جاء في آخر السورة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿88﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿89﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿90﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿91﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿92﴾

من أهمّ موضوعات هذه السُّورةِ:

1- ذِكرُ قِصَّة زكريَّا عليه السلامُ.
2- ذكرُ قِصَّةِ مَريمَ ومولدِ عيسى عليهما السلامُ.
3- ذِكرُ طرفٍ من قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه.
4- الإشارةُ إلى عددٍ مِن النبيينَ ومنهم: موسى وهارونُ وإسماعيلُ وإدريسُ عليهم السَّلامُ.
5- بيانُ جزاءِ المتَّقينَ وعقابِ الكافِرينَ وفتحُ بابِ التَّوبةِ للعاصينَ.
6- حكايةُ بَعضِ شُبهاتِ المشركينَ المتعلقةِ بالقرآنِ والبعثِ والوحدانيةِ مع الردِّ عليها وإقامةِ الأدلةِ على وحدانيةِ الله، ونفيِ الشريكِ والولدِ، وإقامةِ الأدلةِ على أنَّ البعث حقٌّ.
7- بيانُ بعضِ مَشاهِدِ القيامةِ.

8- يُنظر: تفسير ابن جرير- 443/15، الوسيط للواحدي 174/3، تفسير الزمخشري- 3/3، تفسير البيضاوي- 5/4، تفسير السعدي ص: 489. وحُكِي الإجماعُ على ذلك. وممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي والفيروزابادي. يُنظر: تفسير القرطبي- 72/11، بصائر ذوي التمييز للفيروزابادي 305/1. وقال ابنُ عطية: هذه السورةُ مكيَّةٌ بإجماعٍ إلَّا السَّجدةَ منها، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، وقالت فرقةٌ: هي مدنيةٌ. تفسير ابن عطية- 3/4.

9- يُنظر: تفسير الرازي- 541/21.

8- خُتِمَت السورةُ بما بَدَأت به مِن بَيانِ مَحبَّةِ اللهِ تعالى وتكريمِه لأوليائِه وبيانِ الحِكمةِ مِن نُزولِ القُرآنِ وهي: البِشارةُ والنِّذارةُ.

أوجه الترابط بين سورتي مريم والكهف:

- القصص العجيبة وما فيها من عبر وفوائد ودروس نافعة التي احتوتها السورتان، ففي سورة الكهف ذكرت ثلاثُ عجائب:
- الأولى قصة أصحاب الكهف، وكيف أن هؤلاء القوم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين من غير أن يستيقظوا ومن غير أن يموتوا ومن غير أن يأكلوا ومن غير أن يشربوا وهذه من أعاجيب تدبير الله عز وجل.
- والثانية ما وقع في قصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام من الآيات العجيبة حيث كان الخضر يطّلع على شيء من الغيب بأمر الله عز وجل فيفعل بناء على ذلك الغيب لا بناء على الظاهر.
- والقصة الثالثة قصة ذي القرنين الملك الطوّاف في الأرض المصلح فيها. هذه القصص العجيبة ناسب أن يأتي بعدها سورة مريم وهي أيضًا لا تخلو من القصص العجيبة، بل هي أعجب من قصص سورة الكهف، فجاء فيها قصتان عجيبتان عظيمتان غريبتان دالتان على قدرة الله عز وجل، مثل ميلاد يحيي عليه السلام بين شيخ فانٍ وعجوز عاقر، كيف أن حكمة الله اقتضت أن يرزق المرأة العجوز والرجل الشيخ الكبير طفلًا بعد هذا العمر الطويل، فزكريا كان قد بلغ مائةً وعشرين سنة، وامرأتهُ ثمانٍ وتسعين سنة ورزقهم الله عز وجل الولد بعد ذلك كله، وهذا من أعاجيب تدبير الله وتقديره. فإن العادة جارية أن الشيخ الكبير الهرم لا يكون لمثله الولد وإذا كان هذا غريبًا في حق الرجل فهو في حق المرأة أغرب لأن المرأة لا تكاد تتجاوز الخمسين حتى ينقطع منها الولد، وقلّ من النساء من تتجاوز الخامسة والخمسين أو تبلغ الستين ثم تلد. ولذلك استغرب زكريا كيف يكون لي ولد ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8] ما يكون هذا! لكنه بأمر الله يكون، فكان ذلك بأمر الله عز وجل وبرحمته لعبده.

والأعجب، ميلاد عيسى عليه السلام من غير أب، كيف رزق الله مريم العذراء بالولد دون أن يمسها أحد بحلال أو حرام.

ثم أعقب بطرف من قصة إبراهيم مع أبيه، ثم تعقبها إشارات إلى النبيين: إسحاق ويعقوب وموسى وهرون وإسماعيل وإدريس وآدم ونوح.

1- ركزت السورتان على التوحيد؛ وهو دعوة جميع الرسل بإفراد الله في العبودية. في سورة مريم بعد ذكر قصة يحيي عليه السلام وعيسى عليه السلام، تطرق الله عز وجل الى أهوال اليوم الآخر وكيف ينجي الله المؤمنين ويدخلهم جنته وكيف يلاقي الكافرين عذابهم في النار. وخُتمت بتنزيه الله عن اتخاذ الولد.

2- في خواتيم الكهف قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]. كلمات ربي أي علمه وقدرته سبحانه، قدرته لا تنتهي، وما فعله مع زكريا عندما طلب زكريا من ربه أن يهب له غلامًا ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿2﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا ﴿3﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ ﴿4﴾ أليس هذا من كلمات ربي؟ ما فعله مع مريم ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 45]، فسمى عيسى "كلمة" ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: 117]. هذا أيضًا من كلمات الله.

3- في بداية سورة مريم ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 2] رحمة عبد من عباد الله، وسورة الكهف كلها في الرحمات، رحم الفتية أصحاب الكهف عندما حفظهم، ورحم المساكين أصحاب السفينة بأن أنجاهم، ورحم الأبوين المؤمنين بإبدالهما خير من ابنهما، ورحم الغلامين بحفظ الكنز، ورحم القوم الضعفاء من يأجوج ومأجوج.

هدف السورة:

أهمية توريث الدين للأبناء.

كٓهيعٓصٓ [مريم: 1]

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها. وهي حروف افتتحت بها تسع وعشرون سورة من سور القرآن. وأطول حروف جاءت في هذه السورة ولا يشابهها في الطول إلا سورة الشورى بُدِئَت مثلها بخمسة أحرف مرتبة على ﴿حم عسق﴾. [10]

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 2]

كلمة ﴿**ذِكْرُ**﴾ تأتي لخبر مبتدأ محذوف كأن الجملة "هذا ذكر"، هذا المتلو من هذا القرآن: ذكر، فالمبتدأ محذوف وبقي الخبر. والمعنى هنا ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ أي سنقصه عليك – يا مُحَمَّدُ – ونفصله تفصيلا.

وقيل في تفسير هذه الآية إن المراد بالرحمة هو رحمة الله بعبده زكريا باستجابة سؤاله وقبول دعائه عليه السلام، صدق زكريا ربه بدعائه وعلم الهدف حقا فاستجاب له تعالى بأن وهبه يحيى الذي آتاه الحكم صبيا.

نزلت على النبي ﷺ في أمر ما يصيبه من البلاء في دعوته من المشركين، فنزلت في العناية الربانية به، فكأن الله تعالى يقول له: اذكر رحمة ربك عبده زكريا الذي كان هذا شأنه، واذكر أيضا مريم، واذكر إبراهيم..

وذكرُ حالِ الأنبياء بعد ذلك فيه تسلية للنبي ﷺ.

وفي قوله ﴿**رَحْمَتِ رَبِّكَ**﴾ إثبات صفة الرحمة لله تعالى، وقد وردت كلمة الرحمة في هذه السورة أكثر من ستة عشر مرة حيث بيّنت أن ذكره لزكريا رحمة منه سبحانه وتعالى له.

ورحمة الله تعالى واسعة لخلقه جميعا إلا أن له سبحانه وتعالى رحمة منه لعباده وأوليائه، ولذلك جمع الله تعالى بين الرَّحْمٰن والرحيم في سورة الفاتحة؛ فصفة ﴿الرحيم﴾ هي رحمة خاصة بأوليائه وعباده المؤمنين.

10- يُنظر: تفسير ابن كثير- 160/1، تفسير ابن عاشور- 206/1.

ورحمة الله على عبده زكريا هنا في هذه السورة هي رزقه بالولد مع كِبَر سنه واشتعال شيب رأسه، فالله سبحانه وتعالى له رحمات، منها ما يخص به عباده وأولياءه ممن قد لا يسبقهم فيها أحد.

ورحمة الله تعالى بأوليائه هي من عنايته ومن معاني الربوبية التي فيها النفع والضر والعناية والتربية، ولذلك قال ﴿رَبِّكَ﴾، فأضاف اسم الرب إلى ضمير النبي ﷺ مما يدل على العناية الخاصة بالنبي ﷺ. ففي إضافة الضمير إلى النبي ﷺ وإلى ضمير زكريا في قوله تعالى ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ تنويهٌ بشأنهما وعناية بهما لخصوصيتهما.

وجاءت ﴿رَحْمَتِ﴾ بالتاء المفتوحة، وفي هذا دلالات ذكرها بعض أهل التفسير وهي أنها دالة على أن هذه الرحمة واسعة وفيها من الخير الكثير على زكريا عليه السلام فيما أعطاه من هذه المنحة، ومن استجابة دعائه عليه السلام. ولا شك أن الرحمة الخاصة لأوليائه سبحانه وتعالى فيها من الخير والسعة والبركة ما ليس في رحمته تعالى لغيرهم.

وقال تعالى: ﴿**عَبْدَهُ**﴾ ولم يقل نبيه وإنما وصفه بالعبودية دليل على أنه نال هذه الرحمة بعبوديته الخاصة لله تعالى، فكلما ازدادت العبودية لله تعالى زادت الرحمات، ولا شك أن مقام العبودية مقام عظيم ومن أشرف المقامات، ولذلك وصف الله تعالى نبيه بالعبودية في مواضع عديدة من القرآن، منها موضع سورة الإسراء حين عرج به إلى السماء، وهو في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: 1] ولم يقل نبيه، وكذلك في سورة الجن بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: 19]، فالأنبياء لهم شأن عظيم في العبودية، وهذا يدل على أن الإنسان مهما كان صالحًا فإنه لا بد أن يكون له شأن في عبودية الله تعالى، عبودية خاصة في طاعته وقنوته وتضرعه وذكره وسجوده لله تعالى، فما أجمل أن نحقق عبودية الله تعالى ونحن نطلب رحمته الخاصة. [11]

﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: 3]

﴿**إِذْ**﴾: قال ابنُ عاشور: إِذْ نَادَى رَبَّهُ ظَرفٌ لـ رَحْمَةِ. أي: رحمةِ اللهِ إيَّاه في ذلك الوقتِ؛ أو بدلٌ مِن ذِكْرُ، أي: ذِكْرُ ذلك الوَقتِ. [12]

11- يُنظر: تفسير ابن جرير- 453/15، الوسيط للواحدي 175/3، تفسير البيضاوي- 5/4، تفسير السعدي- ص: 489.

12- تفسير ابن عاشور- 62/16.

اختلف العلماء في تفسير كلمة "خفيًّا"؛ فقال بعضهم إن زكريا أخفى دعاءه عن قومه حتى لا يُلامَ على مسألةِ الولدِ عند كبر السن، ولأنه أمر دنيوي. والقول الثاني أنه أخفى الدعاء إخلاصًا لله عز وجل وأراد ألا يطَّلِعَ على دعائه إلا الله. وقيل لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد عن الرياء، أخفى زكريا دعاءَه عن الناس.

وفي هذه الآية آداب عظيمة في الدعاء، منها إخفاء الدعاء في قوله تعالى ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ ولا شك أن النداء الخفي أخلص إلى الله تعالى وأصدق وأبعد عن الرياء الذي قد يعتري المرء عند دعائه لو كان ظاهرا، وأرجى للإجابة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ ربَّكم ليسَ بأصمَّ ولا غائبٍ، هوَ بينَكم وبينَ رُؤُوسِ رِحالِكمْ"[13].

وإخفاء الدعاء أبلغ في الخشوع الذي هو لبّ الدعاء، وإن قُرب الله تعالى واستجابته لدعاء مَن دعاه ظاهر في قوله ﴿**نِدَاءً خَفِيًّا**﴾؛ فإن النداء الخفي يدل على القرب، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

وفي قوله ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ حياء مع الله تعالى، قرب مع حياء من الله تعالى لأن الإنسان إذا أخفى دعاءه فكأنه يظهر حاجة خاصة لا يريد أن يعلنها.

وفي هذه الآية إثبات صفة السمع لله تعالى: ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فالله يسمع كل همسة وكل شكوى.

وفي هذه الآية تضرع إلى الله تعالى، فمن أعظم الأحوال التي يكون عليها العبد: التضرع إلى الله تعالى، فلا حاجة إلى رفع الصوت أثناء الدعاء، ولما سمع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يصوّتون ويرفعون أصواتهم بالذكر قال: "ارْبَعُوا علَى أنْفُسِكُمْ، فإنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولَا غَائِبًا، تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا" [14]. فأعظم نداء تفتح له أبواب السماء هو نداء الخفاء، مع أنه نداء، والنداء هو طولُ الدعاء، وعادة يكون فيه صوت، لكنه لما كان مع الله، فكأنه بطول دعائه لله تعالى كان كالنداء. قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

13- الراوي: أبو موسى الأشعري - المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الترمذي الصفحة أو الرقم: 3374 - خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه البخاري 2992، ومسلم 2704، وأبو داود 1526، والترمذي 3374 واللفظ له، والنسائي في السنن الكبرى- 7679، وأحمد 19520.

14- الراوي: أبو موسى الأشعري - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري الصفحة أو الرقم: 7386 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

"الدعاء هو العبادة". وكما قال تعالى في فضل الدعاء: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

يقول الحسن البصري رحمه الله: لقد أدركنا أقواما ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر فيكون علانية أبدا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسا بينهم وبين ربهم عز وجل، وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55].

ويظهر والله أعلم من سياق الآية واللفظ والحال أن الوقت الذي نادى فيه زكريا ربه نداءً خفيا، أنه في جوف الليل؛ إذ أن جوف الليل غالبًا يكون الإنسان فيه خاليًا بربه يتضرع إليه فيخفي حاله، ولا شك أن من مواطن إجابة الدعاء جوف الليل، حيث ينزل الله تعالى وينادي: هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ [15]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾

[مريم: 4]

هذه الآية فيها انكسار حقيقي، وفيها إظهار حال وفقر وحاجة.

ومن آداب الدعاء أن يظهر الإنسان ضعفه أمام ربه فلا يَدْعُ العبد وهو يشعر بعزة وبشيء من العلو، بل يخضع تمام الخضوع منكسرًا كالفقير بين يدي سيده، فنجده قد انحنى له، وذل له، ورقّ له صوته، وخشع بين يديه لحاجته، فكيف مع الله سبحانه وتعالى؟

﴿**قَالَ رَبِّ**﴾: ومن آداب الدعاء أن يكون بلفظ "رَبِّ"..

وكثير من دعاء الأنبياء هو بلفظ الربوبية التي فيها معاني العناية ومعاني اللطف ومعاني القرب والتربية والنفع، ولا شك أنها من الأسماء التي هي أقرب إلى إجابة الله سبحانه وتعالى. والإنسان يدعو بحسب شأنه، فإذا أراد لطف الله فيدعوه باسمه اللطيف، وإذا أراد الرحمة فيدعوه بالرَّحْمٰن وهكذا..

15- يُنظر: تفسير ابن جرير 453/15، الوسيط للواحدي 175/3، تفسير السمعاني 277/3، تفسير القرطبي 76/11.

وحَذَفَ أداة النداء "يا" فقال: ﴿رَبِّ﴾ دلالة على غاية القرب.. ولا شك أن الإنسان في دعائه إلى الله تعالى يستشعر غاية قربه من الله تعالى وكأنه بين يديه، وهذا يدل على حسن ظنه واستشعاره لقرب ربه تعالى منه.

﴿**إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي**﴾ أظهر زكريا ذله وضعفه وفقره وانكساره إلى رحمة الله عز وجل؛ حال العبد المحتاج إلى الرعاية والكرم والرحمة، أظهر "ضعفه الباطني" بأن عَظْمَهُ وهن، والوَهَنُ في اللغة: الضعف. يقال: وَهَنَ يَهِنُ فهو وَاهِنٌ.

والوهنُ: ضعفُ القوة أو نُقْصَانُ الْقُوَّةِ.

ولم يقل ﴿عظمي﴾ لما فيه من التفصيل وإظهار أن جسمه كله قد وهن، وأنه قد بلغ سنّا يعجز فيه عن القيام بشؤونه الدنيوية أو يخشى على هذه الرسالة التي يحملها لقرب موته.

وأظهر "ضعفه الظاهري" باشتعال الرأس بالشيب: ﴿**وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا**﴾، فقال يا رب: لقد ضعف عظمي وذهبتْ قوتي من الكِبر وانتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم، شِخْتُ وَضَعُفْتُ، ومن الموتِ قَرُبْتُ.

والاشتعالُ: انتشارُ شُعَاعِ النَّارِ. واشتعالهُ في الشَّيْب من أحسنِ الاستعارةِ لأنه ينتشرُ في الرأسِ كما ينتشرُ شُعاعُ النارِ.

قال قتادةُ: "شَكَا ذهَابَ أَضْرَاسِهِ" فكان وهن العظم وعموم الشيب حالا مقتضيا للاستعانة بالولد مع ما يقتضيه من اقتراب الموت [16].

﴿**وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا**﴾: قال العلماء: يستحب للمرء أن يذكر في دعائه نِعَم الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع، فقوله: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ إظهار للخضوع، وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ إظهار لعادات تفضُّلِهِ في إجابته أدعيته، أي كنتَ تُجيبُنِي إذا دعوتُكَ، وقد عوَّدْتَني الإجابةَ فيما مضى ولم تكن تخيب دعائي إذا دعوتك، ولم أعهد منك إلا إجابةَ الدعاء، ولم تَرُدَّنِي قط فيما سألتك.. فكأنما قال: يا رب عودتني على جودك وفضلك وإحسانك فلا تجعلني محرومًا وشقيًا بدعائك.

ومفهوم المخالفة من قوله ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أنه سعيد بهذا الدعاء، وأن الدعاء سبب للسعادة والإنعام والخير والبركة والعطف واللطف من الله سبحانه وتعالى. فالدعاء يورث الإنسان طمأنينةً وبشرَى وقربًا وسعادةً لا يجدُها في كثير من أعماله.

16- يُنظر: تفسير ابن جرير 454/15، تفسير ابن كثير 211/5، تفسير السعدي ص 489، تفسير ابن عاشور 62/16، أضواء البيان للشنقيطي 359/3، البسيط للواحدي 189/14، تفسير القرطبي.

ولا يجتمع الشقاء مع الدعاء؛ فلن يشقى عبد متمسك بحبل الدعاء.

قال الرازي: قدَّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أمورًا ثلاثة: أحدها: كونه ضعيفًا، والثاني: أن الله ما ردَّ دعاءه البتة، والثالث: كون المطلوب بالدعاء سببًا للمنفعة في الدين، ثم صرَّح بسؤال الولد، وذلك مما يزيد الدعاء توكيدًا لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة. [17].

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾

[مريم: 5]

طلب زكريا عليه السلام من ربه أن يرزقه الولد لأنه خاف على بني إسرائيل لأنه لم يجد فيهم من يصلح للنبوة فبدأ يظهر فيهم الفساد فخاف أن يموت وتنقطع النبوة بموته.

﴿**وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي**﴾ أي يخاف حدوث أمرٍ مستقبلًا.

قرأ الأكثرون بنصب الياء من ﴿الْمَوَالِيَ﴾ على أنه مفعول، وعن الكسائي أنه سكن الياء. والمراد بالمـوَالِي: الذين يخلفون من بعده إما في السياسة أو في المال أو في القيام بأمر الدين.. أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يرعوه حق الرعاية ولا يقوموا به في الناس حق القيام، ولا يُحسنوا وراثة العلم والنبوة، خاف على رسالته من أن يتولاها أحد لا يحسن نقلها أو أن يغير فيها، فيريد أن يتولى هذا الأمر من بعده وليٌّ صالحٌ مُرْضٍ عند الله سبحانه وتعالى، وكان مواليه – وهم عصبته، إخوته وبنو عمه – شرارَ بني إسرائيل، فخافهم على الدين أن يغيروه ويبدّلوه، وألَّا يحسنوا الخلافة على أمته، فطلب عقبًا من صلبه صالحًا يُقتَدَى به في إحياء الدين.

﴿**مِن وَرَائِي**﴾ أي بعدَ موتِي أن يرِثُوا عِلمي دون مَن كان مِن نَسْلِي، وهذا يدل عل حرص زكريا عليه السلام على منفعة قومه في الدين وحرصه على الدين وسلامته من التغيير، وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره لمجرد مصالح دنيوية، وإنما أراد به مصلحة نفسه ومصلحة الدين وسياسة الناس وصلاح أحوالهم من بعده. وهذا يدل على أن الدعاء إذا تعددت فيه المصالح الخاصة والعامة فهو أولى وأقرب للإجابة، وهذا حال المؤمن، فينبغي

17- يُنظر: تفسير ابن جرير 455/15، تفسير ابن كثير 212/5، تفسير السعدي ص 489، أضواء البيان للشنقيطي 361/3.

أن يكـون همُّـهُ متعلقًـا بأمـر الـدين لا بالـدنيا، فينبغـي أن يكـون خلاصـةُ دعواتِـهِ وأهـمُّ مـا يدعو به هو تحقيق المصالح الدينية قبل الدنيوية لنفسه أو لأمة الإسلام.

﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا**﴾ وامرأتهُ هي أختُ أُمِّ مريَم بنت عمرانَ بن ماثان.

﴿**وَكَانَـت**﴾ دالـة علـى أن العقـر مـتمكن منهـا وثابـت لهـا وقـد مضـى فيهـا سـنينَ طـوالًا ممـا يستبعد أن يأتي لها ولـد، فكأنـه قـد أيقـن بأنها لـن تلـد بعـد هـذا العمـر الطويـل الـذي كانـت معه.

مضـى علـى زكـريا سـنين طويلـة وهـو بـلا ولـد، ممـا يـدل علـى أن الحيـاة الزوجيـة يمكـن بقاؤهـا واستمرارُها واستقرارُها بغير أن يكون هناك أولاد، وإن كان الولد سنة الله تعالى في خلقه.

وفي قولـه ﴿وَكَانَـتِ امْـرَأَتِي عَـاقِرًا﴾ فيـه الـرد علـى أهـل الطبـائع الـذين يقرنـون الأمـور بالطبيعـة وسـنن الطبيعـة، فـإن لله تعـالى سـننًا، ولله تعـالى قـدرة علـى تغيـير هـذه السـنن. والمـؤمن ينبغـي أن يتعلـق بالله سـبحانه وتعـالى، فقـد يجـري لـه مـن الألطـاف والأسـباب الـتي قـد تخـرج عـن دائـرة الطبيعـة وتخـرج عـن دائـرة العـرف الـذي يحكـم بـه النـاس، فالأطبـاء قـد يحكمـون علـى مـريض باليـأس وانتظـار المـوت ثم يُفـاجَؤون بأنـه قـد تغـير حالـه جـذريا وزال مرضـه تمامـا فيعجـزون أن يعـبروا عـن هـذه الحالـة، إلا حالـة واحـدة وهـي أن الله عـز وجـل يغـير مـن أجـل هـذا الـولي وهـذا الصـالح أو هـذه المـرأة الـتي قـد صـدقت في عملهـا ودعائهـا، ويغـير مـا عليـه حال الناس من طبيعتهم وعادتهم وأحوالهم المتوقعة.

﴿**فَهَـبْ لِي**﴾: الهبـة هنـا تعـني منحـة خاصـة مـن الله سـبحانه وتعـالى ولـذلك ينبغـي أن يطلـب الإنسـان مـن ربـه أن يهـب لـه أمـرًا خاصًـا منـه سـبحانه وتعـالى، مثـل قـول سـليمان: ﴿رَبِّ اغْفِـرْ لِي وَهَـبْ لِي مُلْكًـا لَّا يَنبَغِـي لِأَحَـدٍ مِّـن بَعْـدِي﴾ [ص: 35]، فقـد يهـب الله للعبـدِ أمـرًا فـوق مـا يتوقـع، بمـا يـراه منـه مـن الصـدق والإيمـان والإقبـال، فالهبـة مـن الله تعـالى لا مقـدمات لهـا وليسـت هـي جـزاء عمـل، إنمـا هـي منحـة وهبـة مـن الله سـبحانه وتعـالى، ولـذلك قـال ﴿فَهَـبْ لِي مِـن لَّـدُنكَ﴾، فتفيـد أنـه مـن عنـد الله (عنديـة خاصـة) كـل شـيء مـن عنـد الله تعـالى بتقـديره وخلقـه الأسـباب، لكنـه سـأل وليًّـا غـير جـارٍ أمـره علـى المعتـاد. ولانعـدام الأسـباب المعتـادة، فسـتكون هبتـه كرامـة لـه، فهـو يطلـب مـن ربـه حالـة خاصـة خارجـة عـن الأسـباب الظـاهرة، لـذلك قـال: ﴿مِـن لَّـدُنكَ﴾؛ فالمنحـة اللّدنيـة والعلـم اللّـدنيّ هـو شـيء خـاص ينالـه العبـد مـن ربـه سـبحانه وتعـالى قـد يتجـاوز في هـذا الأسـباب الظـاهرة الـتي عليهـا البشر.

وقوله ﴿**فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وليًّا**﴾ أي وليًّا من أولياء الله، ولم يقل ولدًا بمعنى أنه يريد أن يكون ولدا صالحا، وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي ألا يَسأل مجرد الولد، إنما يسألُ أن يكون صالحًا راضيًا مرضيًا يصلح الله عز وجل به عباده، فهذا دليل على صدقه في أن يكون هذا عبدًا صالحًا لله سبحانه وتعالى.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6]

﴿**يَرِثُنِي**﴾: هل كان يريد زكريا عليه السلام أن يرث الولد الذي طلبه من الله مالَهُ؟ وهل يدل ذلك على أنه يمتلك ثروة طائلة؟ لا؛ لأنه كان نجارًا يأكل من كسب يديه، وهي مهنة لا تجمع مالًا كثيرًا، ولا سيما أن الأنبياء كانوا أزهد الناس عن الدنيا. "يرثني" ليس في المال، لأن الأنبياء لا يورِّثُونَ، فما تركوا من شيء فهو صدقة، إذن يرثني في ماذا؟ في النبوة والعلم وحمل الرسالة، يَرِثُ نبوَّتِي ومكاني، دعا الله أن يرزقه الولد الذي يرث النبوة وتستمر الدعوة لله ويستمر توحيد الله في الأرض ويبقى الدين ظاهرًا. وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي﴾ على ميراث النبوة، ولهذا قال ﴿**وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ**﴾ أي يرث من أجداده العلمَ والنبوَّةَ، أرادَ بذلك يعقوبَ بنَ ماثان وهم أخوالُ يَحيى.

وبنو ماثان كانوا رؤساءَ بني إسرائيل، وقيل يعقوب والد يوسف عليه السلام لأن يعقوب عليه السلام هو إسرائيل فصار علما على الأسباط كلهم وتناسلت من بعده الأنبياء، والله تعالى أعلى وأعلم.

كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ [النمل: 16] أي: ورثه في النبوة وفي منزلته وعلمه وما أكرمه الله تعالى به من الخصوصية.

وورد عن الرسول ﷺ أنه قال: "إنا معاشرَ الأنبياءِ لا نُورّثُ، ما تركناه صدقةً"[18].

وفي حديث آخر قال ﷺ: "إنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يورِّثوا دينارًا ولا درْهمًا إنَّما ورَّثوا العلمَ فمَن أخذَ بِهِ فقد أخذَ بحظٍّ وافرٍ"[19].

18- الراوي: أبو بكر الصديق - المحدث: ابن الملقن - المصدر: البدر المنير. الصفحة أو الرقم: 314/7. خلاصة حكم المحدث: إسناده على شرط مسلم.

19- الراوي: أبو الدرداء - المحدث: الألباني - المصدر: صحيح الترمذي. الصفحة أو الرقم: 2682. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

"وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ المدينةِ فَوَقَفَ عليْها فقال: يا أهلَ السُّوقِ! ما أَعْجَزَكُمْ! قالوا: وما ذَاكَ يا أبا هريرةَ؟ قال: ذَاكَ مِيرَاثُ رسولِ اللهِ يُقْسَمُ، ألا تَذْهَبُونَ فَتَأْخُذُونَ نَصِيبَكُمْ مِنْهُ؟ قالوا: وأينَ هو؟ قال: في المسجدِ، فخَرَجُوا سِرَاعًا، ووَقَفَ أبو هريرةَ لهُمْ حتى رَجَعُوا، فقال لهُمْ، ما لَكُمْ؟ فَقَالوا: يا أبا هريرةَ! قد أَتَيْنا المسجدَ فَدَخَلْنا فيه، فلمْ نَرَ فيهِ شيئًا يُقْسَمُ؟ فقال لهُمْ أبو هريرةَ: وما رأيتُمْ في المسجدِ أحدًا؟ قالوا: بلى؛ رَأَيْنا قَوْمًا يُصَلُّونَ، وقَوْمًا يقرؤونَ القرآنَ، وقَوْمًا يَتَذَاكَرُونَ الحَلالَ والحَرَامَ، فقال لهُمْ أبو هريرةَ: ويْحَكُمْ فذاكَ مِيرَاثُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ"[20].

تفيد هذه الآية أن الذرية الصالحة ذخر للمسلم والمسلمة في قوله ﴿يَرِثُنِي﴾ في صلاحه وفي دوام العمل الصالح له، وفيها أيضا أنه كلما كانت حالة العبد موصولة بمصالح الآخرة كانت أقرب إلى الإجابة ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾، من آل يعقوب الصالحين الذين قد كانوا على شأن من النبوة والعلم والسيرة الحسنة وما كان لهم من المنزلة والعبودية لله تعالى، فكأنه يقول يصل هذا النسب الطيب ويستمر معه هذا الخير وهذه السيرة الحسنة التي كان عليها آباءه وأجداده، فقال ﴿آلِ يَعْقُوبَ﴾ لما فيه من الشرف والمنزلة والمكانة ما ليس لغيرهم، لذا ينبغي على الإنسان أن يهتم بسيرته وسلالته وأن ينتسب إلى الصالحين وأن يقترب ويختار لنطفه من السلالات الطيبة الصالحة التي قد يورث الله تعالى عز وجل بها أبناء صالحين وعهدا صالحا وسيرة حسنة. وهذه الآية تدل على أن الأنبياء تطمح نفوسهم إلى معالي الأمور المتعلقة بالدين والصلة به والانتساب إليه والتشرف به، والمكانة فيه. ولهذا قال إبراهيم: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]. بمعنى أن يكون ذكره حسنا لعباده الصالحين.

﴿**وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا**﴾: أي أن يكون مرضيا عند الله سبحانه وتعالى وإذا رضيه أصلحه وأصلح به، وأن يكون رضيا عند الخلق، فإذا أحبه الله أحبه الخلق فالإنسان يدعو لذريته بأن يكونوا صالحين مصلحين مرضيين عند الله تعالى وعند الخلق، ولا شك أن هذا من السيرة الحسنة للإنسان أن يكون مرضيا عند الناس برا تقيّا مألوفا ومحبوبا، وكل هذا من الصلاح في الإنسان. ولا شك أن الأولاد الصالحين من أسباب الرضا في الحياة والسعادة والذكر الحسن، وأن صلاح الأبناء من أعظم ما يرضي الإنسان ويسعده ويتمناه، وينبغي للإنسان أن يطلب رضا الله وأن يرضى الله تعالى عنه وعن أهله وولده. ومن جعل رضا الله نصب عينيه رضي الله عنه وأرضى عنه الخلق.

20- الراوي: عبد الله الرومي – المحدث: الألباني – المصدر: صحيح الترغيب. الصفحة أو الرقم: 83 – خلاصة حكم المحدث: حسن موقوف.

تفيد الآية حرص الأنبياء على الذرية الصالحة المؤمنة التقية الطيبة المرضية عنهم من الله عز وجل، الموحدون لله جل وعلا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾: أي: هذا ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا، سنقُصُّه عليك ونفصِّلُه تفصيلًا يُعرَفُ به حالةُ نبيِّه زكريَّا، وآثارُه الصَّالحةُ ومَناقِبُه الجميلةُ فإنَّ في قَصِّها عِبرةً للمُعتبرينَ وأُسوةً للمُقتَدينَ، ولأنَّ في تفصيلِ رحمتِه لأوليائِه وبأيِّ سبَبٍ حَصَلتْ لهم ما يدعو إلى محبَّةِ الله تعالى والإكثارِ من ذِكرِه ومَعرفتِه، والسَّبَبِ الموصلِ إليه.

2- قال الله تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فيه استِحبابُ الإسرارِ بالدُّعاءِ، وفي إخفاءِ الدُّعاءِ والإسرارِ به فوائِدُ عديدةٌ:

- أحدُها: أنَّه أعظَمُ إيمانًا لأنَّ صاحِبَه يعلَمُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ الدُّعاءَ الخَفيَّ.
- ثانيها: أنَّه أعظَمُ في الأدبِ والتعظيمِ لأنَّ الملوكَ لا تُرفَعُ الأصواتُ عِندَهم ومَن رفَعَ صَوتَه لديهم مَقَتوهُ، ولله المثَلُ الأعلى.
- ثالثها: أنَّه أبلَغُ في التضرُّعِ والخُشوعِ الذي هو رُوحُ الدُّعاءِ ولُبُّه ومَقصودُه.
- رابعُها: أنَّه أبلَغُ في الإخلاصِ.
- خامسها: أنَّه أبلَغُ في جَمعيَّةِ القَلبِ على الذِّلَّةِ في الدُّعاءِ فإنَّ رَفعَ الصَّوتِ يُفَرِّقُهُ، فكلَّما خَفَض صَوتَه كان أبلغَ في تجريدِ هِمَّتِه وقَصدِه للمَدعُوِّ سُبحانَه.
- سادسها – وهو مِن النُّكَتِ البَديعةِ جِدًّا: أنَّه دالٌّ على قُربِ صاحِبِه للقَريبِ، لا مسألةَ نداءِ البعيدِ للبَعيدِ. ولهذا أثنى اللهُ على عَبدِه زكريَّا بقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ فلمَّا استحضَرَ القَلبُ قُربَ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأنَّه أقرَبُ إليه مِن كُلِّ قَريبٍ، أخفى دُعاءَه ما أمكَنَه.
- سابعها: أنَّه أدعى إلى دوامِ الطَّلَبِ والسُّؤالِ، فإنَّ اللِّسانَ لا يَمَلُّ والجوارِحَ لا تتعَبُ بخلافِ ما إذا رَفَع صَوتَه فإنَّه قد يَمَلُّ اللِّسانُ وتَضعُفُ قُواه.
- ثامنها: أنَّ إخفاءَ الدُّعاءِ أبعَدُ له من القواطِعِ والمشَوِّشاتِ، فإنَّ الدَّاعيَ إذا أخفى دُعاءَه لم يَدرِ به أحَدٌ، فلا يحصُلُ على هذا تشويشٌ ولا غيرُه. وإذا جهَرَ به فَرَطَتْ له الأرواحُ البشَريَّةُ –ولا بُدَّ – ومانعَتْه وعارضَتْه، ولو لم يكُنْ إلَّا أنَّ تعلُّقَها به يُفزِعُ عليه همَّته فيُضعِفُ أثَرَ الدُّعاءِ، ومن له تجرِبةٌ يَعرِفُ هذا؛ فإذا أسَرَّ الدُّعاءَ أمِنَ هذه المفسَدةَ.

- تاسعها: أنَّ أعظَمَ النِّعمةِ الإقبالُ والتعبُّدُ، ولكُلِّ نِعمةٍ حاسِدٌ على قَدْرِها، دَقَّتْ أو جَلَّتْ، ولا نِعمةَ أعظَمُ مِن هذه النِّعمةِ، فإنَّ أنفُسَ الحاسِدينَ مُتعَلِّقةٌ بها، وليس للمَحسودِ أسلَمُ مِن إخفاءِ نِعمتِه عن الحاسِدِ.
- عاشرها: أنَّ الدُّعاءَ هو ذِكرٌ للمَدعُوِّ سُبحانَه وتعالى متضَمِّنٌ للطَّلَبِ والثَّناءِ عليه بأوصافِه وأسمائِه، فهو ذِكرٌ وزيادةٌ، كما أنَّ الذِّكرَ سُمِّيَ دُعاءً لتضَمُّنِه للطَّلَبِ. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ واحدٍ من الدُّعاءِ والذِّكرِ يتضَمَّنُ الآخَرَ ويدخُلُ فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: 205]، فأمَرَ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَذكُرَه في نَفسِه.

قال الحَسَنُ البَصريُّ: "لقد أدركْنا أقوامًا ما كان على الأرضِ مِن عَمَلٍ يَقدِرونَ على أن يَعمَلوه في السِّرِّ، فيَكونُ علانيةً أبدًا، ولقد كان المسلِمونَ يجتَهِدونَ في الدُّعاءِ، وما يُسمَعُ لهم صَوتٌ، إنْ كان إلَّا همسًا بينهم وبين رَبِّهم عزَّ وجَلَّ؛ ذلك أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، وذلك أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ عَبدًا صالِحًا ورَضِيَ قَولَه، فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾.

3- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿3﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿4﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ مِن فوائِدِ هذه القِصَّةِ تعليمُ آدابِ الدُّعاءِ، وهي مِن جِهاتٍ:

- أحدُها: قَولُه: ﴿نِدَاءً خَفِيًّا﴾ وهو يدُلُّ على أنَّ أفضَلَ الدُّعاءِ ما هذا حالُه ويؤكِّدُ قَولَه تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: 55]، ولأنَّ رَفعَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالقُوَّةِ والجَلادةِ، وإخفاءَ الصَّوتِ مُشعِرٌ بالضَّعفِ والانكسارِ، وعُمدةُ الدُّعاءِ الانكِسارُ والتبَرِّي عن حولِ النَّفسِ وقُوَّتِها، والاعتمادُ على فَضلِ اللهِ تعالى وإحسانِه.
- ثانيها: أنَّ المستحَبَّ للدَّاعي أن يَذكُرَ في مُقَدِّمةِ الدُّعاءِ عَجزَ النَّفسِ وضَعفَها، كما في قولِ اللهِ تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾، فالشَّيبُ دَليلُ الضَّعفِ والكِبَرِ، ورسولُ الموتِ ورائِدُه، ونذيرُه، فتوسَّلَ إلى اللهِ تعالى بضَعفِه وعَجزِه، وهذا مِن أحَبِّ الوَسائِلِ إلى اللهِ لأنَّه يدُلُّ على التبَرِّي من الحَولِ والقُوَّةِ وتعلُّقِ القَلبِ بحَولِ اللهِ وقُوَّتِه. ويُستحَبُّ له أيضًا أن يَذكُرَ كَثرةَ نِعَمِ اللهِ، على ما في قولِه تعالى حكايةً عن زكريا عليه السلامُ أيضًا: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

- ثالثُها: أن يكونَ الدُّعاءُ لأجلِ شَيءٍ مُتعَلِّقٍ بالدِّينِ لا لِمَحضِ الدُّنيا كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي﴾.
- رابعُها: أن يكونَ الدُّعاءُ بلَفظِ ﴿يا رَبِّ﴾.

4- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ فيه التوسُّلُ إلى اللهِ بنِعَمِه وعوائدِه الجَميلةِ، وهذه وَسيلةٌ حَسَنةٌ أن يُتشَفَّعَ إليه بنِعَمِه ويُستَدَرَّ فَضلُه بفَضلِه، فزكريا عليه السلامُ توسَّل إلى الله بإنعامِه عليه وإجابةِ دعواتِه السابقةِ فسأل الذي أحسَنَ سابقًا أن يُتمِّمَ إحسانَه لاحقًا. [21]

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7]

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾: قال العلماء: فيه استحباب التبشير بما يسرُّ المؤمن من ولد أو ذهاب عِلّة أو زوال نقمة أو تجدد نعمة وهذا ما سار عليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فكان من أكثر الناس حبًا لتبشير للصحابة بما يسوقه الله لهم من خير على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وفي قصة كعب بن مالك تنافس الصحابة في حمل البشرى بتوبة الله عليه وعلى صاحبيه، فقام رجل على جبل فصوّت، وسعى رجل بفرس، كلٌ منهما يريد أن يسبق بالبشرى إلى كعب بن مالك.

أتت البشرى لزكريا عليه السلام وهو في محرابه على يد الملائكة، فنادته الملائكة بقبول دعائه بقوله: ﴿يَا زَكَرِيَّا﴾. وتوجيه الكلام إلى زكريا عليه السلام هكذا مباشرة دليلٌ على سرعة الاستجابة لدعائه، فجاءت الإجابة مباشِرة دون مُقدِّمات أن الله رزقه بِغُلَامٍ، أي بمولود ذكر وليس أنثى اسمه "يحيى" عليه السلام. وقد جاء ذلك في سورة آل عمران، وسماه الله تعالى بيحيي وهذا من فضل الله تعالى عليه.

قال السعدي رحمه الله: يحيا حياةً حِسّيةً فتتم به المنة، ويحيا حياةً معنويةً وهي حياة القلب والروح.
قد يقول قائل: ها هو قد قتل وهو صبي، فنقول: إن الله قد أحيا ذكره في كتابه إلى يوم القيامة، والإنسان يحيا بذكره لا بجسده. وقيل إن اسمه "يحيى" لأنَّ الله أحيَا به الإيمانَ والحكمةَ والنبوة والعلم.
وقيل: لأنه حيا بين شيخ كبير وأمّ عاقر.
وقيل: لأن الله تعالى أحيا به عقر أمه وكانت لا تلد.
وهذه البشرى تضمنت ثلاثةَ أشياء:

1- استجابةَ الدعاء لزكريا عليه السلام وهذه كرامة له.

21- يُنظر: الإكليل للسيوطي ص 173، تفسير الرازي 519/21، تفسير السعدي ص 489، تفسير القرطبي 80/11.

2- إعطاءَهُ الولد وهو قوة.
3- أفردَهُ بتسميته.

فائدة:

إن المسلم المؤمن عليه أن يحسن اختيار اسم ولده كما أحسن الله اختيار اسم يحي عليه السلام.

﴿**لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا**﴾: أي لم يُسَمِّ هذا الاسمَ قبلَهُ أحدٌ.

وفيه معنى آخر: أي لم نجعل له مُسامِيًا ومُمَاثِلًا، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65] أي شبيها ومماثلا.

وثالثًا: أنه سَمِيٌّ في صفاته وكماله واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاقَ مَنْ قبلَهُ، ولكن هذا يشكل عليه إشكال: وهو أنه لا يمكن أن يقال إنه بكمالِهِ قد فاقَ مَنْ قبلَهُ من الأنبياء كإبراهيم وموسى ونوح عليهم السلام، وَمَنْ بعدَهُ كعيسى ومحمدٍ ﷺ، فنقول: قد فاق مَنْ قبلَهُ إلا مَنْ جاءَ القرآنُ بخصوصِيَّتِهِمْ كهؤلاءِ الأنبياءِ أولي العزم: محمدٍ صلى الله عليه وسلم ونوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى عليهمُ السلامُ، ممن هم أفضل من يحي قطعا بدلالة الكتاب. فحينئذ نستطيع أن نجمع بين القولين.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]

﴿**قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ**﴾: أي كيف يكون لي غلام؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب؛ تعجب زكريا في هذه الآية من قدرة الله عز وجل، يسأل بعدما دعا لأنه واثق من إجابة الله عز وجل وواثق من أن الله قادر على كل شيء لكن يبقى بشرًا يستغرب كيف ستكون إجابة الدعاء.

﴿**وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾: قال السعدي رحمه الله: لما جاءته البشرى أي البشارة بهذا المولود الذي طلبه استغرب وتعجب وقَالَ ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾، فلِم استغرب وقد دعا ربَّهُ بِهِ؟ ففي ظاهر الأمر تناقض، فكيف يدعو الله بالولد وهو يقول هنا: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾؟

قال السعدي رحمه الله: كأنه وقت دعائه الأول في طلب الولد لم يستحضر هذا المانع لقوة اليقين في قلبه بأن الله قادرٌ على أن يأتي به، وشدة الحرص العظيم على الولد، فنسي نفسه ونسي ما كان عليه من حالٍ مستحضرًا قدرةَ اللهِ على قلبِ الأمورِ وتغييرها، وفي هذا الحال حين قُبلتْ دعوتُهُ، رجع إلى تأمُلِ نفسِهِ وحالِهِ فتعجبَ، وليس ذلك استنكارًا وإنما تَعَجُّبًا.

﴿**وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا**﴾: أي بلغتُ في الكِبَرِ والشيخوخةِ نهايةَ العمرِ، أي بلغتُ سِنًّا قد يَبَسَ فيه جسمي ولصقَ جِلدي على عظمي، يقال عَتَا يَعتُو: أي يَبَسَ، ومثله عَسَا يَعْسُو.. يقالُ شَيْخٌ عَاسٍ: أي قد يَبَسَ وذهبت منه القوة.

قال المفسرون: كان قد بلغ مئةً وعشرين سنةً، وامرأتُهُ ثماني وتسعينَ سنةً، فأرادَ أن يطمئنَّ ويعرف الوسيلةَ التي يرزقه بها هذا الغلامَ كما حدث في قصة موسى عليه السلام حينما كلَّمه ربه واختاره وأفرده بهذه الميزة، فأغراه الكلام في أنْ يطلب الرؤيا فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 143].

وكما حدث في قصة إبراهيم عليه السلام لما قال لربه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الموتى﴾ [البقرة: 260]، وأبو الأنبياءِ لا يَشُكُّ في قدرة الله تعالى على إحياءِ الموتى، ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، ولكنه يريد أنْ يعرف هذه الطريقة العجيبة.

فزكريا عليه السلام يريدُ الولدَ الذي يَرِثُهُ ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]، فيأتي الرد: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 90]. ونلاحظ أنه تعالى قبل أن يقول: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ التي ستنجب هذا الولد قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾؛ فصلاح الزوجة ليس شرطًا في تحقُّق هذه البشرى وحدوث هذه الهبة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 9]

فأجابه الله في قوله ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾، فالأمرُ مُستغرَبٌ في العادة وفي سنة الله في الخليقةِ، ولكن قدرة الله تعالى صالحةٌ لإيجاد الأشياء بدون أسبابها، فذلك هيّنٌ عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبلُ ولم يكن شيئا، إن كنت مستغربًا حقًّا فليكن استغرابك في الشيء الذي هو أشد غرابة وهو خلق الإنسان من العدم ولم تكُ شيئًا مذكورًا كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: 1].

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: 10]

﴿**قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً**﴾: أراد زكريا عليه السلام دلالةً وعلامة تدل على حمل زوجته العاقر فأراد بهذا أن تستقر نفسه ويطمئن قلبه وذلك لكونه شيخ كبير وامرأته عاقر فطلب آية من الله لذلك كما قال إبراهيم ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260]، وليس هذا شكًّا، بل هو طلب زيادة العلم للوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين. وقيل: طلب آية تدله على أن البشرى بيحيى منه لا من الشيطان، لأن إبليس أوهمه ذلك.

فأجابه الله إلى طلبه رحمة به فقال ﴿آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾. وفي الآية الأخرى: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]، والمعنى واحد كما قال السعدي رحمه الله، لأنه تارة يعبر بالليالي وتارة بالأيام ومؤداها واحد، فهنا قال ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ وفي الآية الأخرى ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41]. والجمع بين الأيام والليالي فيه دلالة؛ هي أنه قد أتم ثلاثةَ أيامٍ بلياليها. وهذا من الآيات العجيبة. فإن منعه من الكلام مدة ثلاثةَ أيامٍ وعجزه عنه وهو سليمٌ، مُعَافىً، سَوِيُّ التكوينِ، صحيحٌ من غير علَّةٍ، لا خَرَسَ بلسانِه، ولا آفةَ، ولا نقصٍ، ولا قصورٍ في جارحة من جوارِحِهِ، بل كان سويًا.. وهذا من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد.

﴿**أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ**﴾: "أَلَّا" ليست للنهي عن الكلام، بل هي إخبار عن حالة ستحدث له دون إرادته، فلا يكلم الناس مع سلامة جوارحه ودون عِلَّة تمنعه من الكلام كخرس أو غيره.

قال ابن عباس: اعتُقِل لسانه من غير مرض.

وقيل: حُبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلمَ أحدًا، وهو مع ذلك يدعو اللهَ ويُسَبِّحُهُ ويقرأ التوراةَ، فإذا أراد الناسَ لم يستطع أن يكلمهم، اعتُقِلَ لسانه عن كلامِ الناس. وهكذا لا يكونُ عدمُ الكلامِ عَيْبًا، بل آيةً من آياتِ اللهِ. وهناك فَرْق بين أمر كونِيّ وأمر شرعي:

- فالأمر الكونِيُّ هو ما يكون وليس للعبد اختيارٌ في ألَّا يكون.
- والأمر الشرعيّ ما للعبد فيه اختيار، من الممكن أن يطيعَهُ فيكونَ طائعًا، أو يعصيَهُ فيكونَ عاصيًا.

وهذا الذي حدث لزكريا أمر كوني وآية من الله لا اختيار له فيها، فهو ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم. وأما التسبيح والتهليل والذكر ونحوه فهو غير ممنوع منه.

والدليل على أنه يذكر الله هو أن الله يقول له: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: 41]. ونحن نرى في زماننا من لديه خرس لا يستطيع أن يتكلم أبدا. ولكن الله سبحانه وتعالى يسّر القرآن على لسان زكريا عليه السلام، فسبحان الله على قدرته تعالى في أن جعل هذا الإنسان لا يكلم الناس ثم إذا نطق بكلام الله العظيم سهل على لسانه فكأن الله تعالى جعل له آية من قدرة الله في عكس الأمور وخرق العادات التي تعارف الناس عليها.

فاطمئن قلب زكريا واستبشر بهذه البشارة العظيمة وامتثل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه. وفي هذا دلالة وفائدة وهداية أن الإنسان إذا منحه الله تعالى بشرى أن يُقبِلَ على ربه بالشكر والصلاة والذكر ثناءً على الله تعالى وحمدا وشكرا.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 11]

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ﴾: أي أشرف عليهم من المصلّى من المسجد وهو بتلك الصفة من كونه لا يستطيع أن يكلم الناس، والمسجد يسمى محرابًا، أي مكانَ العبادةِ والصلاةِ، وعادةً ما يكون مرتفعًا على شرف عما حوله، وسُمي محرابًا لأنه يحارب فيه الشيطان بكيْده ووسوسته.

وقد ذُكر المحرابُ أيضًا في قصة داود عليه السلام: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ الْمِحْرَابَ﴾ [ص: 21]، وكذلك في آية أخرى دَلَّتْ أيضًا على أن البشارة بيحيى كانت وهو في محرابه ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا﴾ [آل عمران: 39].

﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾: أعلمهم بالإشارة والرمز لأنه لا يتكلم، لم يعلمهم باللسان، أشار إلى قومه بأن سبّحوا الله في أوائل النهار وأواخره، وهنا عرف زكريا أن امرأته قد حملت بيحيى الذي سماه الله عز وجل يحيى.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ فيه قولان:

- أحدهما: أنه كتب إليهم في كتاب. قاله ابن عباس.
- والثاني: أنه أومأ برأسه ويديه. قاله مجاهد، لقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: 41].

قال المفسرون: كان يخرج على قومه بكرة وعشيًا فيأمرهم بالصلاة إشارةً، والجمهور على أن معنى ﴿أَن سَبِّحُوا﴾: أي صلوا. ﴿بُكْرَةً﴾: أي أول النهار، ﴿وَعَشِيًّا﴾: آخره، يعني طوّقوا النهار بالتسبيح بدايةً ونهايةً، فجمع بين الذكرِ والتسبيحِ ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: 41].

وهنا سؤال: ما علاقة قومه بالتسبيح؟ فالبشرى له هو، والولد له هو، فما علاقة هذا الولد بالأمة؟

قال السعدي: لأن البشارة بيحيى في حق الجميع مصلحة دينية، لأنه نبيٌّ؛ فالله تعالى جعله نبيّا فبذلك كان مصلحةً للناس جميعًا، لذلك أمر زكريا عليه السلام قومَهُ أن سبحوا بكرةً وعشيًّا، حمدًا وشكرًا لله على ما منحهم من نعمة هذا الولد الذي هو نبي سينفعهم بإذن الله.

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾: لم يقل اذكره فقط وإنما قال "كثيرًا" أي اذكره دائمًا وأبدًا، قال العلماء: لا يكون الإنسان ذاكرًا لله كثيرًا حتى يذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنب.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: من أتى بالأذكار الموظفة في اليوم والليلة وعند النوم وفي أدبار الصلوات فهو من الذاكرين الله كثيرًا، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- يُستحبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومن ذلك بِشارةُ مَن وُلِدَ له وَلَدٌ، قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

2- قوله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فيه استجابةُ اللهِ تعالى المباشِرَة لزكريا وهو في مقام الدعاءِ مباشرةً، لأن الآية في سورة آل عمران قالت: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾. ﴿فَنَادَتْهُ﴾: الفاء للتعقيب، فدلّ على سرعة الاستجابة من الله له في حال اضطراره، وذلك أنه قد تضرع إلى الله تعالى بضعفٍ تام والتجاءٍ إليه بعرض حاله وضعفه. ويدل على أن الدعاء في حال اليأس وفي حال الضعف وفي حال الحاجة التامة أقْبَلُ للإجابةِ بإذن الله تعالى.

3- قال الله تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [مريم: 7]، سمَّاه اللهُ له «يحيى» وهذه فضيلَةٌ ليحيى أَنَّ اللَّهَ سبحانَه هو الَّذي تولَّى تَسْمِيَتَه به ولم يَكِلْها إلى الأبوينِ.

والذين سماهم الله بنفسه في القرآن خمسة، وهم: محمد ﷺ وعيسى عليه السلام، وآدم عليه السلام، وإسحاق ويعقوب عليهما السلام؛ ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]، وتسميتَه باسمٍ لم يُوضَعْ لغيرِه يُفيدُ تشريفَه وتعظيمَه، وكان اسمًا موافِقًا لِمُسماه: يحيا حياةً حِسّيةً فتَتِمُّ به المِنَّةُ، ويحيا حياةً مَعنويَّةً وهي حياةُ القلبِ والرُّوحِ بالوَحيِ والعِلمِ والدِّينِ والنبوة.

ومن خصوصياته أنه قد أوحِيَ إليه بالنبوة قبل البلوغ، فالأنبياء عامةً أوحِيَ إليهم بعد بلوغ الأربعين، أما يحيى عليه السلام - وقيل يوسف عليه السلام أيضا - أوحِيَ إليه بالنبوةِ قبل الأربعين.

ويحيى عليه السلام ليس أفضلَ من النبي ﷺ وليس بأفضلِ من إبراهيمَ عليه السلام، وليس بأكمل صفاتٍ من نبينا ﷺ ولا أكمل صفات من إبراهيمَ عليه السلام - بمعنى اكتمال العقل والرأي واكتمال الصفات — لا شك أن نبينا ﷺ وإبراهيمَ عليه السلام أكمل، فلماذا أوحِيَ إلى يحيى قبل الأربعين ولم يُوحَ إلى نبينا ﷺ ولإبراهيمَ إلا بعد الأربعين؟ قيل لأن يحيى قُتِلَ في عمر صغير، بمعنى أن الله يعلم أنه سيقتل وهو صغير فأكرمه الله بالنبوة قبل أن يُقتَل، فمن كرامة الله له أنه علم أنه لن يحيا إلى الأربعين فأكرمه بالنبوة قبل موته وهو صغير. والله تعالى أعلى وأعلم.

4- أن أعظم البشارات ما كان من الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، جاء بأسلوب العظمة.. ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ فكأن البشارة التي جاءت من الله عن طريق الملائكة، تعظيمٌ لهذه

البشرى، فهي بشرى من الله تعالى. ولهذا قال الله تعالى في حق المؤمنين: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: 21].

5- في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً﴾: دليلٌ على تثبيتِ الخبرِ المرويّ وصحته: "ليس الخَبَرُ كَالمعَايَنَةِ" [22]، وذلك أنَّ زكريا عليه السلام لم يَشْكُ إلى ربّه وَهَنَ عَظْمِه واشتعالَ الشيبِ في رأسه إلَّا وهو مُوقنٌ بإجابةِ دعوتِه، فهو الآن يريد الوصول إلى اليقين بذلك من شدة شغفه بهذا الخبر العظيم الذي بشره الله تعالى به قبل أن يولد، فلا شك أنه بشرى.. وليس بشرى بولادته وإنما بشرى بحمله ولا شك أن حمله سيبقى تسعة أشهر، فهو الآن يريد آية لهذا تثبت يقينه بذلك واطمئنانَهُ لَهُ، وإلا فهو خبر عنده يقين ولكنه أراد الاطمئنان مع هذا اليقين، كما قال إبراهيمُ عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: 260].

6- ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ فإضافةُ اسمِ الرَّبِّ إليهِ إضافةُ تشريفٍ وإشعارٌ لعلَّةِ الحكمةِ، فإن تذكيرَ جريانِ أحكامِ ربوبيتِهِ من إيجادِهِ منَ العَدَمِ وتصريفِهِ في أطوارِ الخلقِ إلى أن يبلغَ كمالَهُ، فيه من دلائلِ قدرةِ اللهِ تعالى؛ فلا شيءَ مستحيل ولا شيء غير ممكن في قدرةِ الله، فقط يقول للشيء كن فيكونُ.

7- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ جُعِلت الآيةُ الدالةُ عليه سكوتًا عن غيرِ ذكرِ الله دلالةً على إخلاصِه وانقطاعِه بكُلِّيتِه إلى الله دونَ غيره.

8- لما كان الإنسانُ يعلمُ أنه خُلِقَ بعد أنْ لم يكُنْ، ذُكِّرَ بذلك ليَستدِلَّ به على قُدرةِ الخالقِ على تغييرِ العادةِ، ولهذا ذكَر تعالى ذلك في خَلْقِ يحيى بنِ زكريا عليه السَّلامُ، وكذلك في النَّشأةِ الثَّانيةِ. قال تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿7﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿8﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 7-9].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿66﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 66-67]، فذُكِّرَ الإنسانُ بما يعلَمُهُ مِن أنَّه خلَقَه ولم يَكُ شيئًا ليَستَدِلَّ بذلك على قُدرتِه على مِثلِ ذلك وعلى ما هو أهوَنُ منه.

22- أخرجه أحمد في المسند 2447، وابن حبان في صحيحه 6213 من حديث ابن عباس مرفوعًا. صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيق مسند أحمد 147/4، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع 5374.

9- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾، وفي سورة الأنبياء قال: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، هنا امرأة زكريا، فلم يقل "وكانت زوجتي عاقرًا".. فقيل إن التعبير كان "بالمرأة" قبل أن تلد، وعبّر عنها "بالزوجة" بعد أن ولدت، يعني عند قيام الزوجية كاملة والله أعلم.

10-قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا﴾، وإنّما أمَرَهم زكريا عليه السلامُ بالتَّسبيحِ لئلَّا يَحسَبوا أنَّه لم يُكلِّمْهم لأنه قد نذَرَ صمْتًا فيَقْتدوا به فيصْمُتوا، وكان الصَّمتُ من صُنوفِ العبادةِ في الأُممِ السَّالفةِ، فأومَأَ إليهم أنْ يشْرَعوا فيما اعتادوهُ من التَّسبيحِ، أو أراد أنْ يُسبِّحوا اللهَ تَسبيحَ شُكْرٍ على أنْ وهَبَ نَبيَّهم ابنًا يرِثُ علْمَه، وذلك على أحدِ القولينِ في معنى التسبيحِ.

11-قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ دليلٌ على أنَّ مَن حَلَف ألَّا يُكَلِّمَ رَجُلًا فكتَبَ إليه أو أشار أنَّه لا يَحنَثُ لأنَّ زكريَّا لم يَخرِجْه مِن الآيةِ إفهامُ قومِه بما قام عندَهم مقامَ الكلامِ في الفهمِ ولم يكُنْ كلامًا.

12-يُستحَبُّ الذِّكرُ بعدَ الصَّلاتَينِ اللَّتَينِ لا تطَوُّعَ بعدَهما وهما: الفَجرُ والعَصرُ، فيُشرَعُ الذِّكرُ بعد صلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعد العَصرِ حتى تَغرُبَ الشَّمسُ. وهذان الوقتان - وقتُ الفَجرِ ووقتُ العَصرِ - هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكرِ، ولهذا أمرَ الله تعالى بذِكرِه فيهما في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: 42].

وقولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: 25]،

وقولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [آل عمران: 41].

وقولِه: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: 17].

وقولِه تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر: 55].

وقولِه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 205].

وقولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: 130].

وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: 39][23].

23- يُنظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب 525/2، النكت الدالة على البيان للقصاب 227/2، المغني لابن قدامة 616/9، نظم الدرر للبقاعي 177/12، تفسير السعدي ص 490، تفسير ابن جرير 471/15، 473، تفسير ابن عطية 7/4، تفسير البيضاوي 7/4، أضواء البيان للشنقيطي 372/3.

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: 12]

﴿يَا يَحْيَى﴾: هذا الخطاب ليحيي عليه السلام بعد سنين من ولادته، هذه وصية الله عز وجل ليحيي عليه الصلاة والسلام. لما كبر وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله له: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ أي التوراة، لأن زكريا ويحيى من أنبياء بني إسرائيل، والتوراة كتاب بني إسرائيل من بعد موسى وفيها منهج الله الذي يُنظِّم لهم حياتهم.

﴿خذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾: ليس المقصود أن تمسكه بكلتا يديك؛ وإنما المقصود: خذه بجد وقوة وعزم وحزم، لا متساهلًا ولا متكاسلًا ولا متثاقلًا، بل تأخذه بقوة. كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: 208] يعني ادخلوا في الدين كله لا تأخذوا من الدين شيئًا وتتركوا أشياء، تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، ما هذه حال المؤمن، حال المؤمن: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

حال المؤمن مع كتاب الله كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ﴿1﴾ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿2﴾ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿3﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿4﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: 1-5].. ثقيل محتاج إلى أن يُحمَل بجد وعزم وإخلاص في حِفْظه وحِرْص على العمل به، وألا يتهاون في شيء منه، لأن العلم السماوي والمنهج الإلهي الذي جاءكم في التوراة ليس المراد أن تعلمه فقط، بل وتعمل به، وإلا فقد قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿مَثَلُ الذين حُمِّلُواْ التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: 5]. فقد حَمَّلهم الله التوراة فلم يحملوها ولم يعملوا بها.

﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّة﴾: أخذ الكتاب – وهو هنا التوراة – بقوة يشمل ثلاثة أمور: أولها حفظ ألفاظه، ثم فهم معانيه، ثم العمل بأوامره ونواهيه. فامتثل يحي عليه السلام أمر ربه وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه وجعل الله فيه من الذكاء والفطنة ما لا يوجد في غيره، وهذه منحة ربانية؛ ولذلك نجد بعض الصبية يمنحه الله تعالى قدرة وفطنة وحفظا وفهما لا نجده في مثله من أقرانه.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّا﴾: أي معرفة أحكام الله والحكم بها وهو في حال صغره وصباه، وهنا اختلف المفسرون في "الحكم": هل هو من الحكمة والعقل والرأي والسداد، أم هو من النبوة؟ الحكم هنا هو النبوة فالعلماء اختلفوا في ذلك مع اتفاقهم أن يحي عليه السلام قد أوتي النبوة قبل الأربعين لأنه عليه السلام قد مات في صغره فأراد الله تعالى بحكمته أن يكرمه بالنبوة في صغره قبل أن يقتل.

وقيل إنه كان قد حفظ التوراة وكان يعلّمها ويفتي بها. وقد ورث يحي أباه زكريا، ونودي ليحمل العبء وينهض بالأمانة في قوة وعزم، لا يضعف ولا يتهاون ولا يتراجع عن تكاليف الوراثة كما في قول الله

جل وعلا: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 121] وهذا فضل من الله تعالى عليه وعلى أبيه، وهذا من تمام استجابة الله تعالى لدعاء زكريا عليه السلام.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 13]

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾: أي رحمة ورأفة، وهذه منحة من الله تعالى أنه قد طُبع على الحنان والرأفة والرحمة واليسر والسماحة، وهذا طبع كريم في الإنسان وقد طبع عليه النبي ﷺ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، فهذا الدين مبني على الرحمة..

في سورة الفاتحة ذكرت الرحمة أربع مرات ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿1﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿2﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: 1-3] لماذا تكررت الرحمة في أعظم سورة من القرآن أربع مرات؟ لعظمتها في الإسلام وأن مبنى هذا الدين على الرحمة، وأن هذا القرآن ما أنزل إلا رحمة، وأن هذا النبي ما بُعث إلا رحمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وقد أثنى النبي ﷺ على المؤمن السمح: "رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى"[24] وهذه صفة ينبغي أن يتطبع بها أهل القرآن فإن القرآن يورث هذه السماحة، ولذلك ذكرها الله تعالى هنا في يحيى بعد أن ذكر أخذه للكتاب، فمن أخذ الكتاب بقوة في تمسكه وتخلقه فإنه سيورثه ذلك حنانا ورأفة ورحمة، ويورثه ذلك هذا الخلق العظيم أن تتيسر بها أموره وأن تصلح بها أحواله وتستقيم بها أفعاله، فإنه إذا خالط الناس بهذا الخلق أدى ذلك إلى تيسر أموره، والناس إذا رأوا الإنسان على السماحة والسهولة والرحمة والرأفة تسامحوا معه، فالجزاء من جنس العمل، وإذا رأوه فيه من الغلظة شاقوه وتعاصوا معه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: 159]. فإذا كان الإنسان على خلق كريم من السماحة ولين الجانب فالناس تقبله وتألفه والمؤمن يألف ويؤلف، وهذا الحال العظيم مهم جدا لمن يحمل رسالة القرآن والدعوة إلى الله تعالى، فينبغي أن يتصف بهذه الصفة التي وصف الله بها نبيا من أنبيائه.

﴿وَزَكَاةً﴾: أي طهارة من الآفات والذنوب، بمعنى مع أخذه للكتاب حفظا وفهما وعملا ومع حكمة رأيه وسداد رأيه ورؤيته حكيما في تصرفه ومع حنانه في خلقه زكيًا وسالِمًا من الآفات والذنوب، فلا يأتي الذنوب.. فطهر الله قلبه من دنس الذنوب والمعاصي وزكى عقله وهذا من كمال الصفات،

24- الراوي: جابر بن عبد الله. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 2076. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

فالزكاة تتضمن زوال الأوصاف المذمومة والأخلاق الرديئة، فهو قد تزكى وتطهر من الصفات السيئة وتحلى بالأخلاق الحسنة.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾: أي يتقي الله عز وجل في أمره كله وهذه وصية الله للأولين والآخرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ﴾ [النساء:131]، فاعلا للمأمور وتاركا للمحظور، فمع زكاته وطهارته من الذنوب وصفاء قلبه، هو أيضًا تقيٌّ فيما يأتيه، وهذا من كمال صفاته، ومن كان مؤمنا تقيًّا كان لله وليًّا، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين.. وحصّل له من الثواب الدنيوي والأخروي ما رتبه الله على التقوى كما ذكر في كتابه تعالى:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 14]

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾: بعدما ذكر حق الله، انتقل إلى أعظم الناس حقًا على الإنسان وهما الوالدان. وهذه الصفة خصها الله تعالى مع أنها داخلة في كمال خلقه السابق، وهنا خصوص بعد عموم، فهذا يدل دلالة صريحة واضحة على أن أعظم الأخلاق هو بر الوالدين مع أن الإنسان قد يكون ذا حنانٍ ولينِ جانبٍ وسهولةٍ وسماحةٍ وألفةٍ ورحمةٍ عامةٍ مع جميع الخلق، إلا أنه مع والديه له شأنٌ خاصٌ أرقى من تصرفه وتعامله وتخلُّقِه مع الناس، لذا نجد القرآن قد جعل بر الوالدين أرقى من التعامل مع الناس.

فالتعامل مع الناس قال الله تعالى فيه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: 53].. لكن في التعامل مع الوالدين قال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: 23]. والقول الكريم أكمل من القول الحسن.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾: اقتران هذه الجملة بقوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ يدل دلالة واضحة على أن أعظم من ينبغي أن يكون الإنسان معه متواضعا هينا لينا مطيعا وليس عصيًّا: مع والديه. قال العلماء: من كان جبارًا عصيا لم يرزق البر، أي لم يكن من البررة بوالديه، فرغم أن يحي عليه السلام جاء أبويْه في حال كِبَرهما وضعفهما ولم يجد منهما الحنان الكافي والتربية المناسبة ولم يشعر معهما بالأُبوة الكاملة، كان عليه السلام بارًا بوالديه ولم يكن عاقًّا ولا مسيئا لهما، بل كان محسنا إليهما بالقول والفعل لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله، ولا مترفعا على والديهِ ولا على عباد الله، بل كان متواضعًا متذلِّلًا مطيعًا أوَّابًا للهِ على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله وحق خلقه. ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، فالجزاء من جنس العمل.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]

أي أن الله جعل له السلامة والأمان في مواطنَ ثلاثةٍ تُعَدُّ أعلامَ حياةٍ للإنسان وأعظمَ الأحوال وأشقَّها على كل إنسان: الميلاد، والموت، والبعث. هذه أشد الأحوال التي يمر بها كل واحد منا، وقد خَصَّه الله بالسلام يوم مولده أنه وُلِد على غير العادة في الميلاد فأُمّه عاقر أسَنَّتْ ومع ذلك لم تتعرض لألسنة الناس ولم يعترض أحد على ولادتها وهي على هذا الوصف، فلم يتجرأ أحد عليها لأن ما حدث لها كان آيةً من آيات الله، وقد بشّر الله بها زكريا لتكون البُشْرى إعدادًا ومقدمة لهذا الحدث العجيب.

وخَصَّه بالسلام يوم يموت لأنه سيموت شهيدًا، والشهادة غير الموت، الشهادة تعطيه حياة موصولةً بالحياة الأبدية الخالدة.

وكذلك خَصَّه بالسلام يوم القيامة يوم يُبعث حيًّا، تنبيهًا على كونه من الشهداءِ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

قال أبو عبد الله الرازي: ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ أي أمان عليه من أن يناله الشيطان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ أي أمان من عذاب القبر ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ أمان من عذاب الله يوم القيامة. وهذا السلام يحتمل أن يكون من الله وأن يكون من الملائكة، والأظهر أنه من الله لأنه في سياق ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ﴾.

وَقَالَ سفيان بْن عُيَيْنَةَ: أَوْحَشُ مَا يَكُون الْمَرْءُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: يَوْم يُولَد فَيَرَى نَفْسه خَارِجًا مِمَّا كَان فِيهِ، وَيَوْم يَمُوت فَيَرَى قَوْمًا لَمْ يَكُنْ عَايَنَهُمْ ﴿من الملائكة﴾، وَيَوْم يُبْعَث فَيَرَى نَفْسه فِي مَحْشَر عَظِيم. وهنا أكرم الله يحيى عليه السلام فيها جميعًا وخصه بالسلام والأمان، ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: "كلُّ بني آدمَ يلقى اللهَ يومَ القيامةِ بذنبٍ وقد يعذِّبُه عليه إن شاءَ أو يرحمُه، إلا يحيَى بنَ زكريا فإنه كان سيدًا وحصورًا ونبيًا من الصالحين". [25]

قال الحسن البصري: التقى يحيى وعيسى، فقال يحيى لعيسى: أنت خير مني، فقال عيسى ليحيى: بل أنت خير مني؛ سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي.. أو قال: أثنى الله عليك وأنا أثنيت على نفسي.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ رد على من قال إن النبوة لم تحصل لأحد إلا بعد الأربعين، وهذا على القول بأن الحكم هنا المراد به النبوة.

---

25 الراوي: أبو هريرة - المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد. الصفحة أو الرقم: 212/8 - خلاصة حكم المحدث: فيه حجاج بن سليمان الرعيني وبقية رجاله ثقات.

2- في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ أي لم يكن متجبرًا ومتكبرًا ولا مترفعًا على عبادِ اللهِ ولا على والديهِ؛ بل كان متواضعًا متذلّلًا مطيعًا وأوَّابًا للهِ تعالى على الدوام، فجمَع بينَ القيامِ بحَقِّ اللهِ وحَقِّ خَلْقِه ولهذا حصَلَت له السَّلامةُ مِنَ اللهِ في جميعِ أحوالِهِ مَبادِئِها وعواقِبِها، فلذا قال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾، وذلك يقتضي سلامَتَه من الشَّيطانِ والشَّرِّ والعِقابِ في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ وما بينَها وأنَّه سالمٌ مِن النَّارِ والأهوالِ وأنَّه مِن أهلِ دارِ السَّلامِ.

3- قولُه تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾: إنْ قيلَ: ما الحِكمةُ في تقييدِ السَّلامِ في قِصَّةِ يحيى عليه السَّلامُ بهذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وكذلك المسيحُ في قَولِه تعالى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33]؟ فالجوابُ: لأنَّ السَّلامةَ فيها آكَدُ، وطَلَبَها أهمُّ..

- فالموطن الأول، انتقل العبد فيها مِن دارٍ كان مُستقِرًّا فيها مُوَطَّنَ النَّفسِ على صُحبتِها وسُكناها، إلى دارٍ هو فيها مُعَرَّضٌ للآفاتِ والمِحَنِ والبلاءِ، فإنَّ الجنينَ مِن حينِ خَرَج إلى هذه الدَّارِ انتصَبَ لبلائِها وشَدائِدِها ولَأْوائِها ومِحَنِها وأفكارِها، ولهذا مِن حينِ خَرَج ابتدرَتْهُ طَعنةُ الشَّيطانِ في خاصرتِه فبكى لذلك، ولِمَا حصلَ له من الوَحشةِ بِفِراقِ وَطَنِه الأوَّلِ، فكان طَلَبُ السَّلامةِ في هذه المواطِنِ مِن آكَدِ الأمورِ.
- والموطنُ الثَّاني: خروجُه مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ البَرزخِ عندَ الموتِ، ونِسبةُ الدُّنيا إلى تلك الدَّارِ كنِسبةِ دارِه في بطنِ أمِّه إلى الدُّنيا تقريبًا وتمثيلًا، وإلَّا فالأمرُ أعظَمُ مِن ذلك وأكبَرُ، وطلَبُ السَّلامةِ أيضًا عند انتقالِه إلى تلك الدَّارِ مِن أهَمِّ الأمورِ.
- والموطنُ الثالث: مَوطِنُ يومِ القيامةِ يومَ يَبعَثُ الله تعالى الأحياءَ ولا نِسبةَ لِما قَبلَه مِن الدُّورِ إليه، وطلَبُ السَّلامةِ فيه آكَدُ مِن جميعِ ما قبلَه، فإنَّ عَطَبَه لا يُستدرَكُ وعَثْرَته لا تُقالُ وسَقَمَه لا يُداوَى وفَقْرَه لا يُسَدُّ.

فتأمَّلْ كيف خَصَّ هذه المواطِنَ بالسَّلامِ لشِدَّةِ الحاجةِ إلى السلامةِ فيها، وتأمَّلْ ما في السَّلامِ مع الزيادةِ على السَّلامةِ مِن الأُنسِ وذَهَابِ الوَحشةِ، ثمَّ أَنزِلْ ذلك على الوَحشةِ الحاصلةِ للعَبدِ في هذه المواطِنِ الثلاثةِ عند خُروجِه إلى عالمِ الابتلاءِ، وعند مُعاينتِه هَولَ المطلَعِ إذا قَدِمَ على اللهِ وحيدًا مجرَّدًا عن كلِّ مُؤنِسٍ إلَّا ما قدَّمه من صالحِ عَمَلٍ، وعند موافاتِه القيامةَ مع الجَمعِ الأعظَمِ ليصيرَ إلى إحدى الدارَينِ التي خُلِقَ لها واستُعمِلَ بعَمَلِ أهلِها... فأيُّ موطنٍ أحَقُّ بطلَبِ السَّلامةِ مِن هذه المواطِنِ التي يكونُ الإنسانُ فيها في غايةِ الضَّعفِ والحاجةِ وقِلَّةِ الحيلةِ والفَقرِ إلى اللهِ وعَظيمِ الهَولِ؟!

عن ابنِ عُيَينةَ قال: أوحَشُ ما يكونُ الخَلقُ في ثلاثةِ مَواطِنَ: يومَ يُولَدُ فيرى نفسَه خارجًا مِمَّا كان فيه، ويومَ يموتُ فيرى قَومًا لم يكُنْ عايَنَهم، ويومَ يُبعَثُ فيرى نفسَه في محشَرٍ عظيمٍ. قال: فأكرَمَ اللهُ فيها يحيى بنَ زكريَّا، فخصَّه بالسَّلامِ عليه؛ فقال: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾. [26]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: 16]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى قِصَّةَ زكريَّا –عليه السَّلامُ– وأنَّه أوجَدَ منه في حالِ كِبَرِه وعُقمِ زَوجتِه ولدًا زَكيًّا طاهِرًا مُباركًا، عطَفَ بذِكرِ قِصَّةِ مَريمَ في إيجادِه ولَدَها عيسى –عليهما السَّلامُ– منها، مِن غيرِ أبٍ.. فإنَّ بينَ القِصَّتينِ مُناسَبةً ومُشابَهَةً، ولهذا ذكَرَهما في سورة آلِ عِمرانَ. وهاهنا، وفي سورةِ الأنبياءِ، يَقرِنُ بين القِصَّتينِ لتقارُبِ ما بينهما في المعنى، ليَدُلَّ عِبادَه على قُدرتِه وعَظمةِ سُلطانِه وأنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ. وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى قِصَّةَ زكريَّا عليه السَّلامُ، وطلَبَه الولدَ وإجابةَ الله إيَّاهُ، فوُلِدَ له من شَيخٍ فانٍ، وعَجوزٍ له عاقرٍ، وكان ذلك مما يُتعَجَّبُ منه– أردفه بما هو أعظَمُ في الغَرابةِ والعَجَبِ؛ وهو وُجودُ ولَدٍ مِن غَيرِ ذَكَرٍ، فقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾..

و﴿**الكتاب**﴾ هو القرآن الكريم، وهذا يدل على أن ما ذكره القرآن هو الحق في قصص بني إسرائيل وأن السيرة التي كان عليها أنبياء بني إسرائيل يأتي القرآن ببيانها على وصفه الحقيقي من غير تحريف ولا تغيير. ولذلك لما قرأها جعفر رضي الله تعالى عنه –وخاصةً قصة مريم– على النجاشي وعلى البطارقة معه، هاجوا وتعجبوا وتأثروا، إلا أنهم منعهم من الإيمان ما هم عليه من زعامة للنصارى. إلا أن النجاشي رحمه الله قد عرف الحق من خلال هذه القصة وعرف أن هذا القرآن هو الحق فآمن. وفي هذا دليل وفائدة عظيمة؛ وهو أن دعوة النصارى من خلال هذه القصة من أفضل الوسائل، اقتداءً بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قراءتهم هذه السورة على النجاشي فأسلم. فنحن بحاجة إلى أن يكون هناك دعوة بالقرآن للنصارى، فإن النصارى أقرب إلى الاستجابة من غيرهم.

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ**﴾: يخاطب الله عز وجل نبينا محمد ﷺ بقوله اذكر يا محمد لهؤلاء الذين يسمعون منك من مؤمنين وكفار، ما هي أخبار رحمتنا لمريم؛ كيف رحمناها ورعيناها وآويناها، لأنها قد تفرغت لعبادة ربها، وهي مريم بنت عمران من سلالة داود بن سليمان عليهما السلام، وكانت من

26- يُنظر: تفسير ابن جرير 482/15، تفسير ابن عطية 8/4، تفسير السعدي ص 490، تفسير الرازي 518/21، الإكليل للسيوطي ص: 173- 8/4، تفسير ابن كثير 217/5، أضواء البيان للشنقيطي 381/3.

بيت طاهر طيب في بني إسرائيل، وذكر مريم عليها السلام في القرآن دلالة على عظيم شأنها وعلو منزلتها وشرفها وفضلها. فقد جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ. وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"[27].

وقال صلى الله عليه وسلم: "خَيرُ نِساءِ العالَمينَ أربَعٌ: مَريَمُ بنتُ عِمرانَ، وخَديجةُ بِنتُ خُوَيْلِدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمدٍ، وآسِيةُ امْرأةُ فِرعَونَ"[28].

قال السعدي: وهذا من أعظم فضائلها أي مريم عليها السلام أن تذكر في الكتاب العظيم وأن يذكر اسمها ويتلى على ألسنة أمة الإسلام إلى يوم القيامة، وقد ذكر اسمها في عدد من السور وليس فقط في سورة واحدة، فذكر في هذه السورة، وذكر في سورة آل عمران والتحريم والأنبياء. وما هذا إلا لفضلها وعظم ما كانت عليه من القنوت لله عز وجل، وكل ذلك جزاءً لعملها الفاضل؛ فالله تعالى يجازي أولياءه، لا يظن العبد أن العملَ الصالحَ الذي يعملُهُ لله خالصًا أنه يذهب سُدًى، بل إن الله تعالى يجازيه به في الدنيا بأن يجعلَ له ذِكرًا حسنًا وسيرةً حسنةً وحياةً طيبةً.. وفي الآخرة رضوانَهُ وجَنَّتَهُ.

﴿**إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا**﴾: أي تباعدت عن أهلها. انتَبَذَتْ بمعنى ابتعدت بمسافة تقدر بمقدار نبذ الحجر الذي يُحذَفُ. وقوله تعالى "انتبذت" يدل على رغبتها عن الأقربين فضلًا عن الأبعدين، إلى أقرب الأقربين وهو الله تعالى.. بمعنى أنها تباعدت عن الخلق إلى الخالق، وإن كان انتباذُها عن أهلها وهُمُ الأقربونَ منها أمرًا في أصلِهِ غيرَ محمودٍ؛ إذ أنَّ للرَّحِمِ حقٌّ على الإنسان.. ولكنها، عليها السلام، قد رغبت أن تكون خالصةً لله تعالى في قنوتها وتفرغها وخلوتها، فابتعدت من القريب إلى الأقرب وهو الله تعالى. ومن عادةِ الصَّالِحِين أنهم يخلون بأنفسهم، هذه الخلوة تؤثِّرُ على قلوبهم.. نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان يذهب إلى غار حراء قبل البعثة يَتَحَنَّثُ فيه الليالي ذواتِ العَدَدِ، ويأخذُ مَعَهُ من الزادِ ما يكفيه لثلاثَةٍ أو أربعةٍ أو خمسةِ أيامٍ.. فإذا انتهى زادُهُ عاد إلى خديجة فتزود بمثله ثم عاد.

﴿**مَكَانًا شَرْقِيًّا**﴾: والشرق قبلة النصارى، وهي قبلةٌ مِنْ قَبْلِ مريمَ عليها السلام؛ إذ أن سليمانَ عليه السلامُ سأل ربه أن يوجه بني إسرائيل إلى بيت المقدس.

27- رواه البخاري 3411، ومسلم 2431 وغيرهما من أصحاب السنن والمسانيد والمصنفات من طريق شُعْبَةَ بن الحجاج، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مُرَّةَ الهَمْدَانِيِّ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

28- الراوي: أنس بن مالك - المحدث: السيوطي - المصدر: الجامع الصغير. الصفحة أو الرقم: 4072 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]

﴿**فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا**﴾: أي سِترًا ومانِعًا.. وهذا التباعدُ منها واتخاذُ الحجابِ لتعتزلَ وتنفردَ.. فسَتَرَتْ نفسها كامل السَّتْرِ لتكونَ على خُلوةٍ تامةٍ وتفرُّدٍ تامٍّ، وتَقْنُتَ للهِ تعالى في حالةٍ من الإخلاصِ والخضوعِ والذل لله تعالى، امتثالًا منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿42﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43].. فكان انتباذُها واتخاذُها الحجابَ هوَ استجابةٌ تامةٌ لقوله تعالى في نداءِ الملائكة: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: 43] وكأنَّ ذلكَ تهيئةٌ لِّما يُريدُ اللهُ تعالى أن يُهَيِّئَهَا لهُ منَ الولد. وفي هذا فائدة عظيمة: وهو أن الإنسان إذا أراد اللهُ بهِ خيرًا هيَّأَ له الأسبابَ ويسَّرَ لَهُ السُّبُل وشرحَ صدرَهُ لذلك وأعانَه عليه فكان سببًا في تهيئَتِه لهذا الأمر الذي يريده الله له.

﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا**﴾: والروحُ هو جبريلُ عليه السلام. وسُمِّيَ جبريلُ عليه السلامُ "بالروحِ" كما في قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193].

﴿**فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**﴾: لماذا لم يأتِهَا بصورةِ المَلَكِ؟ لأنها لن تستطيع أن تراه بصورته الملائكية، وقد تفزعُ إنْ رأتْه على صورته الملائكية فتمثَّلَ لها بشرًا سويًا، أي كامِلًا من الرجالِ في صورةٍ جميلةٍ وفي هيئةٍ حسنةٍ لا عيبَ فيهِ ولا نقصَ، وهذا يدل على أن جبريلَ من الملائكةِ الذين لهم صورةٌ غيرَ الصورةِ الملائكيةِ، لذلك كان إذا أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي على صورةِ بشرٍ، وكان أحيانًا يتمثلُ في صورةِ "دحيةَ بنِ خليفةَ الكلبيِّ" وهو من الصحابةِ الأجِلَّاءِ ذوي الوسامةِ في وجوههم رضي الله عنه وأرضاه. فلما رأته في هذه الحال وهي معتزلةٌ أهلَهَا منفردةٌ عنِ الناسِ، اتخذت حِجابًا عن أعز الناسِ عليها وهم أهلها، فخافت أن يكون رجلًا غريبًا يريدُ أن يتعرضَ لها بسوءٍ أو أن يَطمَعَ بها..

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 18]

فاستعاذت بالله تعالى من هذا البشر ومن شرِّهِ لما تبدى لها الملكُ في صورة بشرٍ وهي في مكانٍ منفردٍ وبينها وبين قومها حجابٌ.. خافته وظنت أنه يريدها على نفسها فقالت: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾.. ما قالت "أعوذ بالله" لأن هذه السورة سورة الرحمة.

وإبراهيمُ عليه السلام أيضًا قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ [مريم: 45].. ما قال "عذابٌ من الجبارِ المنتقمِ، يُذَكِّرُهُ بالرحمة.

﴿**قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾: ألتجئ به وأعتصم برحمته أن تنالني بسوء، وفي هذه الآية فائدة عظيمة وهي أن الإنسان إذا خاف مخلوقا من أذيته أن يقول: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن

كُنتَ تَقِيًّا﴾ في نفسه من غير أن يصرح إن خاف بذلك إشكالا فهذا ذكره الله تعالى على لسان مريم وذكره في كتابه مما يقتدى به.

﴿**إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾: تذكيرٌ له بالله تعالى؛ "إن كنت تخافُ اللهَ وتعمل بتقواه فاترك التعرض لي".. فجمعت بين الاعتصام بربها وبين تخويفه وترهيبه وأمره بلزوم التقوى.. ذكرته بتقوى الله لأنها تعلم أن التقوى تبعد عن الحرام وهي تريد منه بذلك أن يخرج ويتركها، إن كنتَ تتقي الله عز وجل فأنا أعوذ بالرَّحْمَٰن منك أن تقربني.. وكأنها تستجير وتستغيث برحمة الله عز وجل حتى لا يصيبها سوء. وهذا التعوذ منها وهذا التخويف دليل على كمال عفتها وطهارتها. وهذه العفة خصوصا مع اجتماع الدواعي -كما قال السعدي- وعدم المانع، من أفضل الأعمال؛ إذ أن هذا دليلٌ على الإخلاص التام والبعد التام عن كل ما لا يرضي الله تعالى. ولذلك أثنى الله عليها بقوله: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: 12]. فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله تعالى، فالله تعالى يكافئ عبده، فالجزاء من جنس العمل.. فإذا ابتعد الإنسان عن الشر ونأى بنفسه وعفّ وتطهر وتزكى فإن الله تعالى يزكيه ويمنحه من النعم والخير الكثير ما به فضلًا وجزاءً حسنا.

ويقال إنها لما ذكرت الرَّحْمَٰن انتفض جبريلُ عليه السلام فَرَقًا وعاد إلى هيئته والله تعالى أعلى وأعلم.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]

أي قال لها الملَكُ مُجيبًا لها ومُزيلًا لما حصل عندها من الخوف على نفسها: اطمئني لست مما تظنين، ولكني رسول ربك إنما جئتُ برسالةٍ ربانية.

﴿**لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾: أهب لك غلامًا يكون في غاية الزكاء والطهارة، في غاية النقاء والتقوى.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ ﴿لِيَهَبَ﴾ بإخبارِ جِبريلَ عليه السَّلامُ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ أي: لِيَهَبَ لكِ اللهُ غُلامًا، قرأ بها أبو عمرٍو ويعقوبُ البصريان، وورشٌ عن نافعٍ، واختُلِف في قراءةِ قالونَ بها [29].

2- قِراءةُ ﴿لِأَهَبَ﴾ بإسناد الفِعلِ إلى جبريلَ عليه السَّلامُ وذلك لأنَّ الله أمَرَ جِبريلَ أن يَنفُخَ الرُّوحَ في مَريَمَ فهو سببٌ في وجودِ غُلامِها. قرأ بها الباقون [30].

29- يُنظر: النشر لابن الجزري 2/317، 318. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: الحجة لابن خالويه ص: 236، معاني القراءات للأزهري 2/132.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20]

هنا استغربت وتعجبت مريم من كلام جبريل عليه السلام وقالت كيف يكون لي غلام؟! وأنا لم يمسسني بشر لا بالحلال ولا بالحرام..

المسّ هنا كنايةٌ وتعبيرٌ مُهذَّب عن النكاح، لم أكن ذات زوج، ما جاءني بشر فمسّني مثل الزوج ولست ببغيٍّ - أي زانية - ولا يتصور مني الفجور، فمن أين يأتي الولد؟! لأن الولد لا يأتي إلا من هذين الطريقين: إما طريق العفاف وهو النكاح في سنة الله تعالى للبشر، وإما طريق السفاح وهو الزنا نسأل الله العافية والسلامة.

ما الفرق بين كلمة "ولد وغلام" واستخدام الفعل "يفعل ويخلق" في قصتي زكريا ومريم؟

قال تعالى في سورة مريم: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿7﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 7-9].

وقال في سورة آل عمران: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿39﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [مريم: 40] في تبشير زكريا بيحيي. وقال تعالى في سورة مريم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]. وفي سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿45﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿46﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 45-47] في تبشير مريم بعيسى.

وإذا سألنا: أيهما أيسر، أن يفعل أو أن يخلق؟

يكون الجواب: أن يفعل. ونسأل أحدهم: لِمَ تفعل هذا؟ فيقول: أنا أفعل ما أشاء.. لكن لا يقول: أنا أخلق ما أشاء، فالفعل أيسر من الخلق.

ثم نسأل سؤالًا آخر: أيهما أسهل، الإيجاد من أبوين أو الإيجاد من أم بلا أبّ؟ يكون الجواب بالتأكيد: الإيجاد من أبوين. وعليه، جعل الله سبحانه وتعالى الفعل الأيسر ﴿يفعل﴾ مع الأمر الأيسر، وهو الإيجاد من أبوين، وجعل الفعل الأصعب ﴿يخلق﴾ مع الأمر الأصعب وهو الإيجاد من أم بلا أبّ. هذا بالنسبة لما يتعلق بكلمتي "يفعل ويخلق".

30- يُنظر: النشر لابن الجزري 317/2، 318. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: حجة القراءات لابن زنجلة ص: 440، 441، الكشف لمكي 86/2، أضواء البيان للشنقيطي 386/3، 387.

أما ما يتعلق باستخدام كلمة "ولد أو غلام": فإن الله تعالى لما بشّر زكريا بيحيى قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 39]. فكان ردّ زكريا: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40] لأن البشارة جاءت بيحيى، ويحيى غلام. فكان الجواب باستخدام كلمة ﴿غلام﴾، أما لما بشرَّ الله سبحانه وتعالى مريم بعيسى، فالصورة تختلف.. هنا قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿45﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 45-46]. الملائكة تبشرها، هنا أُدخل اسم الله والصورة واضحة، في سورة مريم قال: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19] الملك أبلغها أنه جاء ليهب لها غلامًا باستخدام كلمة ﴿غلام﴾، مهمتي أن أجعلك ذات غلام. قالت: "أنى يكون لي غلام" مباشرة.

لكن في سورة آل عمران ﴿إن الله يبشرك﴾ هنا في هذا الظرف، الملائكة تبشرها وذكرت لها الله سبحانه وتعالى بكل صفاته، هي ماذا اختارت؟ قالت ﴿رَبِّ﴾.. من أسماء الله سبحانه وتعالى "الربّ". والمربي بكل ما فيه من صفات الحنو والرعاية، فجاء ردّها: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾.. الولد في اللغة للذكر أو الأنثى، أصلًا هي مستغربة أن تكون أمًّا بصرف النظر عن أن يكون هذا الذي سترزق به ذكرًا أو أنثى؛ قالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: 47]، لأنه لم ترد هنا كلمة ﴿غلام﴾، ما قيل لها غلام حتى ترد بكلمة غلام؛ وإنما الكلام عن المولود.. بُشّرت بمولود وجاء التبشير في الآية باستخدام ﴿كلمة منه﴾. والكلمة أعمّ من الغلام. فجاء الردّ بكلمة ﴿ولد﴾ لأن الولد يُطلق على الذكر والأنثى، وعلى المفرد والجمع.

وقد ورد في القرآن استخدامها في موضع الجمع: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [الكهف: 39].

وذُكِرت كلمة ﴿المهد﴾ والذي في المهد الوليد حديثًا؛ فالمهد يناسبه الولد والله أعلم.

أما في سورة مريم فجاء التبشير في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]. فجاء ردّ مريم: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ [مريم: 20] باستخدام نفس الكلمة ﴿غلام﴾ لأن الملَك أخبرها أنه يبشرها بغلام.

أما مع زكريا وتبشيره بيحيى، فقد جاء أيضًا في سورة مريم بنفس الكلمة ﴿غلام﴾، فكان الرد في الآيتين باستخدام كلمة ﴿غلام﴾.

لما تأتي الرواية وتذكر لنا كلمة غلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَاْ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19]، فهو يقول لها سأهب لك غلامًا، فترد هي قطعًا: ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾.
ونفس الأمر بالنسبة لزكريا ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ لأن الكلمة كانت مكررة [31].

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 21]

﴿**هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ**﴾: قال لها الملك جبريل مجيبا لها عما سألت: هذا شيء ميسور على الله عز وجل، إنما أمره أن يقول للشيء كن فيكون. كذلك قال ربك إنه سيكون منك غلامٌ وإن لم يكن لك بعل ولا يوجد منك فاحشة، فإنه على ما يشاء قدير.. لا مغير لأمره ولا مبدل لحكمه، هذه الأسباب التي يجعلها الله تعالى في الأشياء هي بإذنه وتقديره وتكوينه، فهو سبحانه القادر على تعطيلها وعلى إيجاد الشيء من دون سبب. فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصور مريم وقوعه هين على الله، فأمام القدرة التي تقول للشيء كن فيكون كل شيء هين.

﴿**وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ**﴾: أي ولنجعل هذا الذي سيحدث لك آية للعالمين، هنا أراد الله تعالى أن يري عباده خرق العوائد، أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس، أمرًا عجيبًا يخرج عن مألوف العادة، أن يخلق إنسانًا من أمٍّ بِلا أبٍ بنفخة من الرَّبِّ يلقيها الله عز وجل على جبريل فيلقيها في جيب درعها، أي في شق الثوب يلقيها فتدخل تلك النفخة من فرجها. قال الله عز وجل ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: 12]. فعملية اللقاح التي حصلت بنفخة ربانية دخلت إلى موضع الولد فتم اللقاح، دلالة وعلامة على عظمة وقدرة بارئهم وخالقهم الذي نوع في خلقهم، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وخلق الناس جميعا من ذكر وأنثى، إلا عيسى عليه السلام فقد خلقه من أنثى فقط دون ذكر فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه فلا إله غيره ولا رب سواه، فينبغي للإنسان أن يكون تعلقه بالله أكثر من تعلقه بالأسباب.

﴿**وَرَحْمَةً مِّنَّا**﴾: الرحمة تنقسم ثلاثة أقسام، فهي:

1- رحمة بالمولود عيسى عليه السلام بأن الله خصه بوحيه وجعله نبيا من الأنبياء يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده، رسولًا، بل من أولي العزم من الرسل، وهم خمسة: آدم وإبراهيم

31- اللمسات البيانية د. فاضل السامرائى.

وعيسى وموسى ومحمد عليهم السلام. وما أعطاه وما خصه من النعم، كالنطق في المهد وإحياء الموتى وإبراء المرضى، فكل ذلك من رحمته.

2- ورحمة بالأم: بأن اصطفاها وأكرمها لتكون أمًّا لنبيٍّ، وذكرها الله وأعلى شأنها وقدرها فصار لها من الفخر والثناء والذكر الحسن والمقام العظيم عند أهلها وعند الناس وعند الله والملائكة.

وحينما قالت ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ لم تعلم أن هذا هو سبب رحمة الله بها وسبب فخرها وذكرها الحسن، فالإنسان لا يدري.. يتصور أن الحدث شرٌ له وهو خيرٌ محضٌ له من الله سبحانه وتعالى.

3- ورحمة بالناس: بأن أرسل لهم رسولًا رحمةً وحجةً عليهم ليدعوهم لعبادةِ اللهِ، يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويطيعونه وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾: قال منا، ولم يقل مني. فهي رحمة معظمة مفخمة بالنسبة له ولأمه وللناس وإلى يوم القيامة وعلى أمة الإسلام أيضا، فإنه عليه السلام سينزل في آخر الزمان ويكون من أمة الإسلام ويتبعه الناس، ولكن ليس على دينه وإنما على دين محمد صلى الله عليه وسلم. ولكن يتبعه الناس مع المهدي على أنه تابع لدين محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾: يحتمل أن هذا من تمام كلام جبريل لمريم يخبرها أن هذا أمرٌ مقدرٌ في علم الله تعالى وقدرته ومشيئته، ويحتمل أن يكون من خبر الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أي وكان وجودُ عيسى عليه السلام على هذه الحالة وخلقُهُ أمرًا منتهيًا محكومًا به مفروغًا منه مَّقْضِيًّا أي قضاءً سابقًا في علم الله تعالى، ولا رادَّ لأمر الله ولا معقب لحكمه. فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفخ جبريل – عليه السلام – في جيبها.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- أحسَنُ الطُّرُقِ في التَّعليمِ والتَّفهيمِ: الأخذُ مِن الأقرَبِ فالأقرَبِ مُترقِّيًا إلى الأصعَبِ فالأصعَبِ. فالله تعالى قدَّمَ قِصَّةَ يحيى على قِصَّةِ عيسى – عليهما السَّلامُ – لأنَّ خَلقَ الولَدِ مِن شَيخينِ فانِيَيْنِ أقرَبُ إلى مناهِجِ العاداتِ مِن تَخليقِ الولَدِ لا مِن الأبِ البتَّةَ.

2- قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ فجمَعَت مريمُ عليها السَّلامُ بينَ الاعتِصامِ بربِّها وبينَ تخويفِ ذلك الشَّابِّ وترهيبِه وأمْرِه بلُزومِ التقوى، وهي في تلك الحالةِ الخاليةِ والشَّبابِ والبُعدِ عن النَّاسِ وهو في ذلك الجمالِ الباهِرِ والبَشَريَّةِ الكاملةِ السَّويَّةِ ولم ينطِقْ لها

بسوءٍ أو يتعَرَّضْ لها وإنما ذلك خَوفٌ منها، وهذا أبلغُ ما يكونُ مِن العِفَّةِ والبُعدِ عن الشَّرِّ وأسبابِه. وهذه العِفَّةُ - خصوصًا مع اجتِماع الدَّواعي وعدَمِ المانِع - مِن أفضَلِ الأعمالِ. ولذلك أثنى اللهُ عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: 12]، ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 91]، فأعاضها اللهُ بعِفَّتِها ولدًا مِن آياتِ اللهِ ورسولًا مِن رُسُلِه.

3- قَولُ مَريمَ للمَلَكِ: ﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كُنتَ تخافُ اللهَ تذكيرٌ له باللهِ وهذا هو المشروعُ في الدَّفعِ: أن يكونَ بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فخَوَّفَتْهُ أوَّلًا باللهِ عزَّ وجَلَّ.

4- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى وعلى أنَّ الأسبابَ جَميعَها لا تستَقِلُّ بالتأثيرِ، وإنَّما تأثيرُها بتقديرِ اللهِ فيُرِي اللهُ تعالى عبادَه خَرْقَ العوائِدِ في بعضِ الأسبابِ العاديَّةِ لئلَّا يَقِفوا مع الأسبابِ ويَقطَعوا النَّظَرَ عن مُقَدِّرِها ومُسَبِّبِها.

5- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿18﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 17-19] فأخبَرَ هذا الرُّوحُ الذي تمثَّلَ لها بشَرًا سَوِيًّا أنَّه رسولُ رَبِّها، فدَلَّ الكلامُ على أنَّ هذا الرُّوحَ عينٌ قائِمةٌ بنَفسِها، ليسَت صِفةً لِغَيرِها، وأنَّه رسولٌ مِن اللهِ ليس صفةً مِن صفاتِ اللهِ. ولهذا قال جماهيرُ العُلَماءِ: إنَّه جبريلُ عليه السَّلامُ، فإنَّ اللهَ سَمَّاهُ الرُّوحَ الأمينَ، وسَمَّاهُ رُوحَ القُدُسِ، وسَمَّاهُ جبريلَ.. وهكذا عندَ أهلِ الكتابِ أنَّه تجسَّد مِن مريمَ ومِن رُوحِ القُدُسِ، لكنْ ضُلَّالُهم حيثُ يظنُّونَ أنَّ رُوحَ القُدُسِ حياةُ اللهِ وأنَّه إلهٌ يَخلُقُ ويَرزُقُ ويُعبَدُ! وليس في شيءٍ مِن الكُتُب الإلهيَّةِ ولا في كلامِ الأنبياءِ أنَّ اللهَ سمَّى صفتَه القائمةَ به رُوحَ القُدُسِ، ولا سمَّى كلامَه ولا شيئًا مِن صفاتِه ابنًا، وهذا أحدُ ما يَثبُتُ به ضَلالُ النَّصارى وأنَّهم حرَّفوا كلامَ الأنبياءِ وتأوَّلوه على غيرِ ما أرادتِ الأنبياءُ.

6- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي: جبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وسُمِّيَ بذلك لأنَّ الدِّينَ يحيا به وبوحيِه. وقيل: إنَّما سُمِّي جبريلُ رُوحًا لأنَّه بمنزلةِ الأرواحِ للأبدانِ، تحيا بما يأتي مِن البيانِ عن اللهِ عزَّ وجلَّ مَن يُهدَى به.

7- قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وخِطابُ الملائكةِ لمريمَ لا يقتَضي النبُوَّةَ، لأنَّ النبيَّ مَن يُوحَى إليه بشَرعٍ.. ومريمُ لم يُوحَ إليها بشَيءٍ مِن الشَّرعِ، ولكِنَّه كان خِطابًا للبِشارةِ بواقعةٍ مُعَيَّنةٍ دالَّةٍ على علُوِّ مَنزِلتِها واصطفاءِ اللهِ سُبحانه وتعالى لها. ولأنَّ الملائكةَ قد كَلَّموا مَن ليس بنبيٍّ إجماعًا

8- قال الله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ السَّوِيُّ: المستوي. أي: تَامُّ الخَلقِ. وإنَّما تمثَّلَ لها كذلك لِوُجوهٍ ذكَرَها العُلماءُ، منها:

- الوجه الأول: للتناسُبِ بينَ كَمالِ الحقيقةِ وكَمالِ الصُّورةِ.
- الوجه الثاني: أُرسِلَ حَسَنَ الشَّكلِ لئلَّا تَشتَدَّ نُفرتُها ورَوْعُها منه.
- الوجه الثالث: كان تمثيلُه على ذلك الحُسنِ الفائقِ والجَمالِ الرَّائقِ لابتلائِها وسَبْرِ عِفَّتِها ولقد ظَهَرَ منها مِنَ الوَرَعِ والعَفافِ ما لا غايةَ وراءَه. ففي ذلك إشارةٌ إلى كَمالِ عِصمَتِها إذ قَالَتْ ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

9- في قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿18﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 17-19] إثباتُ وجود الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، يُخاطِبونَهم ويَرونَهم في صُورِ الآدميينَ الأنبياءِ وغيرِ الأنبياءِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿51﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿52﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿53﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: 51-54] وغيرُ الأنبياءِ كما رأتْهم سارةُ امرأةُ الخليلِ عليه السَّلامُ، وكما كان الصَّحابةُ يرَون جبريلَ لَمَّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ [32]، وتارةً في صورةِ الصحابي دِحْيةَ الكَلْبِيِّ رضي الله عنه [33].

10- قولُه تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿17﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 17-18] لِياذُها باللهِ وعِياذُها به وقتَ التَّمثيلِ دليلٌ على أنَّه أوَّلَ ما تمثَّلَ لها استعاذتْ من غيرِ أن يجريَ كلامٌ بينهما.

11- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: 19] إنْ قال قائِلٌ: الهِبةُ مِن اللهِ تعالى فلِمَ أخبَرَ جِبريلُ عن نَفسِه؟ والجوابُ مِن وُجوهٍ:

- الأولُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ فهو على الحِكايةِ. وحَملُ الحكايةِ على المعنى على تأويلِ: قال: "أُرسِلْتُ إليكِ لأهَبَ لك" فحُذِفَ مِن الكلامِ ﴿أُرسِلْتُ﴾ لدَلالةِ ما ظهَرَ على ما حُذِفَ.
- الثَّاني: جِبريلُ عليه السَّلامُ قال لمريم: ﴿إنَّما أنا رَسولُ ربِّك﴾ أي "أرسلني لأهَبَ لك" إذ كان النافِخَ في جَيبِها بأمرِ الله فتكونُ الهِبةُ في المعنى مِنَ اللهِ وهي في اللَّفظِ مُسنَدةٌ إلى جبريلَ لأنَّ

32- يُنظر ما أخرجه البخاري 4777، ومسلم 9 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

33- يُنظر ما أخرجه البخاري 3634، ومسلم 2451 من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

الرَّسولَ والوكيلَ قد يُسنِدانِ هذا النَّحوَ إلى أنفُسِهم وإن كان الفِعلُ للمُوكِّلِ والمرسَلِ للعِلمِ بأنَّه في المعنى للمُرسِلِ وأنَّ الرَّسولَ مُترجِمٌ عنه.

- الثَّالثُ: أنه جَعَل الهبةَ مِن قِبَلِه لكونِه سببًا فيها مِن جهةِ كونِ الإعلامِ لها مِن جِهتِه.

12-قولُ الله تعالى: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ قولَ مَريمَ عليها السَّلامُ "وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ" يدخُلُ تحتَه قولُها: "وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا". فلماذا أعادَته؟ وممَّا يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ أنَّ في سورةِ آلِ عِمران: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 47] فلم تَذكُرِ البِغاءَ؟ والجوابُ مِن وَجهَينِ:

- الوجهُ الأوَّلُ: أنَّها جعَلَت المسَّ عِبارةً عن النِّكاحِ الحَلالِ لأنَّه كنايةٌ عنه لِقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: 237] والزِّنا ليس كذلك.
- الوجهُ الثاني: أنَّ إعادتَها لِتَعظيمِ حالِها كقَولِه تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238]، وكقَولِه تعالى: ﴿وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ [البقرة: 98] فكذا هاهنا: أنَّ مَن لم تُعرَفْ مِن النِّساءِ بزَوجٍ فأغلَظُ أحوالِها إذا أتَت بولَدٍ أن تكونَ زانيةً، فأُفرِدَ ذِكرُ البِغاءِ – بعد دُخولِه في الكَلامِ الأوَّلِ – لأنَّه أعظَمُ ما في بابِه.

13-قولُها: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾: لم تقُلْ: ﴿بغيَّةً﴾ لأنَّ «بغيًّا» غالبٌ في النِّساءِ، وقلَّما يقولُ العربُ: رجلٌ بغيٌّ فترَكوا التَّاءَ فيه إجراءً له مَجْرَى "حائضٌ"، "وعاقرٌ" أو هو: «فعيلٌ» بمعنى فاعلٍ فترَكوا التَّاءَ فيه كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: 56]، أو لموافقةِ الفواصلِ.[34]

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 22-23]

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾: أي حملت بعيسى عليه السلام بعد أن نفخ جبريل في جيب درعها فاستمر بها حملها.

- وقيل في مدة حملها إنها حملته ساعة واحدة. حكاه الثعلبي.
- وقيل ثلاث ساعات: حملته في ساعة، وصور في ساعة ووضعته في ساعة. قاله مقاتل بن سليمان.

34- يُنظر: تفسير ابن عاشور 80/16، تفسير البيضاوي 8/4، تفسير أبي حيان 249/7، تفسير أبي السعود 260/5، فتح الرَّحْمٰن للأنصاري ص 354، تفسير الرازي 523/21.

- وقيل تسع ساعات، ووضعت من يومها. قاله الحسن.
- وقيل ستة أشهر. حكاه الماوردي.
- وقيل ثمانية أشهر فعاش، ولم يعش مولود قط لثمانية أشهرٍ، فكان في هذا آية. حكاه الزجاج.
- وقيل تسعة أشهر. قاله سعيد بن جير وابن السائب.

ولكن الأرجح والله تعالى أعلى وأعلم أنها حملته تسعة أشهر كاملة كما تحمل النساء بأولادهن، ولهذا لما ظهرت مخايل الحمل عليها، وكان معها في المسجد رجل صالح من قراباتها يخدم معها بيت المقدس يقال له يوسف النجار، فلما رأى ثقل بطنها وكبره، أنكر ذلك من أمرها، ثم صرفه ما يعلم من براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها، ثم تأمل ما هي فيه، فجعل أمرها يجوس في فكره لا يستطيع صرفه عن نفسه، فحمل نفسه على أن عرَّضَ لها في القول فقال: يا مريم إني سائلك عن أمر، فلا تعجلي عليَّ، قالت: وما هو؟ قال: هل يكون قط شجر من غير حب، وهل يكون زرع من غير بذر، وهل يكون ولد من غير أب؟ فقالت: نعم، وفهمت ما أشار إليه. أما قولك: هل يكون شجر من غير حب، وزرع من غير بذر؟ فإن الله قد خلق الشجر والزرع أول ما خلقهما من غير حب ولا بذر. وهل يكون ولد من غير أب؟ فإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم. فصدقها، وسلم لها حالها. ولما استشعرت مريم من قومها اتهامها بالريبة خافت من الفضيحة وهذا أمر طبيعي، فكيف سيصدق الناس أمرها، وكيف سيصدقون أنها تقول إنه نفخ في روعي وأن هذا من الله؟ لا يمكن أن يصدقوه، فلا يمكن أن يخطر هذا على بالهم، فخافت من الفضيحة.

﴿**فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا**﴾: أي ابتعدت وانفردت، ﴿بِهِ﴾ أي بحملها قَصِيًّا بعيدًا عن بيت المقدس. أي ذهبت إلى مكان بعيد وهو بيت لحم الذي ولد فيه عيسى عليه الصلاة والسلام. وغابت وكانت منعزلةً تمامًا فرارًا من قومها حتى لا يعيّروها بولادتها من غير زوج. وشاع الحديث في بني إسرائيل فقالوا: إنما صاحبها يوسف ولم يكن معها في الكنيسة غيره.

﴿**فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾: أي: فاضطرها وألجأها ألمُ الطَّلْقِ إلى جذع نخلة، ليس لها سبيل إلى الخلاص، المخاض هو الألم الذي ينتاب المرأة قبل الولادة، وسمي بالمخاض لحدوث الخض وشدة التحريك.. فألجأها إلى جذع النخلة وهو ساق النخلة، وكانت نخلة يابسةً في الصحراء ليس لها رأس ولا سعف. كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس في قرية هناك يقال لها بيت لحم، هنا وفي لحظة الولادة آلمها وجع الولادة، ووجع الانفراد، ووجع قلبها من مقالة الناس.. وخافت عدم صبرها، تذكرت قومها وأنهم لن يصدقوها؛ فهي عاشت على الطُهْر والنقاء والسُمعة الطيبة، والآن

سيجد الناس مساغًا للقدح في عِرضها والكلام في شرفها وعفّتها فتمنت أن لو كانت ماتت قبل أن يحصل لها هذا الأمر.

﴿**قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا**﴾: أي ليتني مت قبل هذا اليوم ولم أُخلَقْ ولمْ أكُ شيئًا، وكنت شيئًا لا يُعْرَفُ ولا يُذْكَرُ ولا يُدْرَى مَن أنا.. أو كانت شيئًا منسيًّا ومهملًا أو كالشيء الذي تُرِكَ. واستدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز تمني الموت عند الفتنة فإنها عرفت أنها ستُبتَلى وتُمتَحنَ بهذا المولود، وأن الناسَ لا يصدقونها في خبرها بعد أن كانت عندهم عابدةً ناسكةً، ستُصبِحُ فيما يظنون عاهرةً زانيةً.

والإنسانُ قد يتمنى أن لم يكن شيئا وأن لم يكن يحصل له هذا الحدث، ولا يدري أن وراء ذلك من الحكم العظيمة الربانية والخير والمصالح ما لم يتوقعه؛ وهذا من حكمة الله البالغة.

﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: 24]

ربنا سبحانه وتعالى من كمال رحمته لا يَدَعُ العبدَ الضعيفَ وحدَهُ، وإذا تصوّرنا أنها فتاةٌ صغيرةٌ – يقال إنها حملت به وهي في الخامسةِ عشرةِ من عمرها – وهي ضعيفة، وليست نبيّة، لأنه ليس من النساء نبيٌّ، يعني ما يوحى إليها..

هذه الحالة من الضعف سيكون لها هذا الشأن أو هذا الشيء الذي ينكره الناس لا بد أن يكون لها آية من عند الله عز وجل يطمئن به قلبها ويسكن به فؤادها وتعرف فضل الله عليها وأن الله جلا جلاله لن يُسْلِمَهَا ولن يخذلها فماذا حصل؟ لما وضعت ناداها من تحتها.

فإن قيل من هو الذي ناداها؟ قيل: كل الضمائر عائدةٌ إلى شيء واحد وهو عيسى، لأن الله قال ﴿فَحَمَلَتْهُ﴾. حملت من؟ عيسى. ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ أي بعيسى. ﴿فَنَادَاهَا﴾ من هو؟ عيسى.

ويؤيد هذا القول ﴿أن المنادي هو عيسى﴾، فالقراءة الأخرى وهي قراءة شعبة وغيره: ﴿فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا﴾ أي الذي تحتها وهو عيسى عليه الصلاة والسلام. وهذا هو الأصح من قولي المفسرين.

والقول الآخر ﴿فَنَادَاهَا﴾ أي جبريل ﴿مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قالوا كان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت عليها، فالصحيح أن المنادي هو عيسى عليه الصلاة والسلام وليس جبريل، ولماذا يناديها عيسى ساعة ولادته؟ ليطمئنها. فكانت الحكمة تقتضي أن تسمع كلام المولودِ أولًا حتى تكون على يقين تام أنها إذا أشارت إليه ليكلمهم أنه قادرٌ على كلامهم. لتعرف أن عيسى يتكلم وأنه سيدافع عن أمه. ولذلك عندما قال لها:

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 25]

هي تعلم أنها إذا قالت "إني نذرت للرحمن صومًا" أنه سيقوم بالمهمة ويُبَرِّئُ ساحة أمِّهِ لأنه تكلم قبلُ فسمعتْ كلامَهُ، لو ما تكلم قبل ذلك ستقول يا ربي ماذا أفعل؟ كيف سأشير إليه؟ كيف سأقول إني نذرت للرحمن صومًا؟ من سيبرئ ساحتي؟

قال لها: اطمئني الآن أريناكِ ماذا حدث من هذا الغلام الذي خرج منك، وقيل: لما قال عيسى لمريم "لا تحزني" قالت: وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة؟ أي شيء عذري عند الناس؟ يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا. قال لها عيسى "أنا أكفيك الكلام، فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا" هذا من كلام عيسى لأمه؛

فكان هذا المولود المبارك أمانًا لأمه منذ ولادته وسلامًا لأمه قبل ذلك. فأول ما كان من بركات هذا النبي الكريم وهذا المولود العظيم أن كان مؤمنًا لأمه وحامِيًا لها ومؤنسًا لها، وهذا يدل دلالةً عظيمةً على أن أعظم من يؤنسه الإنسانُ في الحياةِ هو الوالِدَيْنِ، وخاصةً الأم. وأن يكون الإنسان دائما في عنايةٍ ورعايةٍ وقربٍ وتأمينٍ وتأنيسٍ لوالده ووالدته.

وبعد أن آنسها وَجَّهَهَا إلى أن تأكل وتشربَ وتهنأ لأن هذا من تمام التأنيس والتخفيف، فلم يكتفِ بقولِهِ لا تحزني فقط، فقال: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾. والسريّ: هو النهر الصغير بالسريانية، الذي يجري بالماءِ العَذْب الزُّلال، لم يكن عندها ماء فأنبع الله تبارك وتعالى لها عينَ ماءٍ نهرًا جاريًا أجراه من حينِهِ حتى تشربَ منه، فجاءها من الأردن. ثم يعطيها الطعام المناسب لحالتها فيقول تعالى:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 26]

نطق بالحكمة وهو في المهد وهذا دليل على أن كلامه مبثوثٌ فيه الوحي والحكمة، بأن أمرها بهز النخلة وهي لا تستطيع أن تهزها وإنما هزها سبب من الأسباب.

﴿**وَهُزِّي**﴾: أمرها بهز الجذع اليابس لترى آيةً أخرَى في إحياء مواتِ الجذع، وأخرج لها الرُّطَبَ من الشجرةِ اليابسةِ فكان ذلك آيةً تدل على قدرةِ الله تعالى في إيجاد عيسى. قيل إن جذع النخلة كان ميتًا، وقيل إنه كان حيًّا لكن ليس فيه رطبٌ، فعندما أخذت مريم بالأسباب وهزت الجذعَ وهي نفساء ضعيفة، كان سقوطُ الرطب من الجذع كرامةً لها وأمرًا خارقًا للعادة.

﴿تُسَـاقِطْ عَلَيْـكِ﴾: أي تتساقط عليك، تُسَاقِطْ أصله بتاءَيْنِ، فقلبت الثانية سينًا وأُدغِمَتْ في السين.

﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾: أي: قد استوى واستحق أن تَجْنِيهِ، وليس مُبْتسرًا قبل موعده؛ فمن الرُّطَب ما يتساقط قبل نُضْجه فلا يكون صالحًا للأكل. وقوله تعالى: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾ فيه دليل على استجابة الجماد وانفعاله، لماذا لم يكن رمانًا أو عنبًا أو غيره من الفواكه والثمرات؟ لأن الرُّطَبَ أفيَدُ ما يكونُ للمرأةِ النُّفَساءِ. وقد كان السلف يوصون به المرأة النُفساء. وأثبت الطب الحديث هذا الأمر وقالوا إن الرطب فيه خاصية قطع النزف لأن المرأة النفساء قد تعاني من النزف الشديد الذي يذهب بدمها ويذهب بقواها، وله أيضًا فوائد كثيرة منها كونه يحمل سُكّرياتٍ خفيفةً يستفيدُ منها الجسم ويعوّضُ بها النقص الذي يحصل له بسبب هذا الضعف العظيم الذي يكون من جراء الولادة.

وقيل: ما للنفساء خير من الرطب. وقيل: إذا عسرت ولادتها لم يكن لها خير من الرطب. وكذلك التحنيك، وكأن الله تبارك وتعالى يريد أنْ يُظهِرَ لمريمَ آيةً أخرى من آياته، فأمرها أنْ تهزَّ جذعَ النخلةِ اليابسَ الذي لا يستطيع هَزَّهُ الرجلُ القويُّ، فما بالُها وهي الضعيفة التي تعاني ألمَ الولادةِ ومشاقَّها والله سبحانه قادر على أنْ يُنزِلَ لها طعامَها دون جَهْد منها ودون هَزِّ جذع النخلة؟ إنما أراد سبحانه أن يجمع لها بين شيئين: الأخذ بالأسباب في هَزِّ النخلة، والاعتماد على المسبب.. رغم أنها متعبة قد أرهقها الحمل والولادة، وجاء إليها بالنخلة لتستند إليها وتتشبث بها في وحدتها، لنعلم أن الإنسان في سعيه مُطَالبٌ بالأخذ بالأسباب مهما كان ضعيفًا.

لذلك أبقى لمريم اتخاذ الأسباب مع ضَعْفها وعدم قدرتها، ثم تعتمد على المسبِّب سبحانه الذي أنزل لها الرُّطَب مُسْتويًا ناضجًا.

وقد صَوَّر الشاعر هذا الموقف بقوله:

أَلَمْ تَرَ أنَّ الله قَالَ لمرْيَم: وَهُزِّي إليك الجذْعَ يَسَّاقَط الرُّطبْ...

وَإنْ شَاءَ أعطَاهَا ومِنْ غير هَزَّة... ولكن كُلّ شَيءٍ لَهُ سَبَبْ.

ما دلالة كلمة "تساقط" في الآية ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾؟ تُساقط في اللغة تفيد تتابع السقوط، كلمة "تسقط" ليس بالضرورة فيها تتابع يستمر، الفعل الماضي "ساقَطَهُ" أي تابع إسقاطه على وزن "فاعَلَهُ" فيها تتابع واستمرار، أما "سقط" فيدل على حدوث الفعل مرةً واحدةً. أما "تُساقِطُ" بالمضارع فيعني تتابع السقوط.[35]

35- لمسات بيانية- د. فاضل السّامرائي.

﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: 26]

﴿**فَكُلِي**﴾ أي من الرطب ﴿**وَاشْرَبِي**﴾ من النهر. فبدأ بالطعام قبل الشراب، لماذا؟ نلاحظ أنه في القرآن كله حيثما اجتمع الأكل والشرب قدّم الله تعالى الأكل على الشرب.. حتى في الجنّة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24] و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 60]. والسبب أن الحصول على الأكل أصعب من الحصول على الشرب، ولأن الإنسان عادةً يأكل أولًا، ثم يشرب.

﴿**وَقَرِّي عَيْنًا**﴾: أي اطمئني فلن يخذلك ربك ولن تري إلا ما يسرك وما تقر به عينك.

﴿**فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا**﴾: أي إذا رأيتِ أحدًا من البشر،

﴿**فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا**﴾: أي تكلمي بهذه الكلمة "أنا صائمة عن الكلام" وكان هذا مشروعًا في دينهم، وليس ذلك في أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلم يشرع عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه يصوم عن الكلام أبدًا، وإنما كان كثير الصمت عليه الصلاة والسلام. فلا يجوز لإنسان أن ينذر أن يتعبد لله بالصوم عن الكلام في شريعتنا.

﴿**فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا**﴾: يعني لا تسألني عن شيء، والمراد بهذا القول الإشارة إليه بذلك لا أن المراد به القول اللفظي، لئلا ينافي "فلن أكلم اليوم إنسيًا" كما أشار زكريا لقومه بالصوم عندما نذر الصوم عن الكلام.

قال أنس بن مالك في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ قال صومًا أي إمساكًا عن الكلام، إني أَوْجَبْتُ على نفسي لله سكوتًا فلن أكلم اليوم أحدًا من الناس، وكان معروفًا عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج ودعواها أنه من غير أحد من أكبر الدعاوى التي لو أقيم عدد من الشهود لم تصدق بذلك فجعلت بينة هذا الخارق للعادة أمرًا من جنسه وهو كلام عيسى في حال صغره.

ماذا تفيد الفاء من الناحية البيانية في قوله تعالى: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿22﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿23﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿24﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ

أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿26﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿27﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿28﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 22-29].

تكرر استخدام حرف الفاء وهي تفيد تعقيب كل شيء بحسبه، أي تفيد تعقيب الأحداث التي وردت في السورة، إذا كان الحمل في موعده تستخدم ﴿الفاء﴾، وإذا تأخر الحمل نستخدم ﴿ثمّ﴾ للترتيب والتراخي في الزمن؛ فمريم عليها السلام حملت عندما نفخ فيها ثم لم يكن هناك أي معوقات بعدها فانتبذت مكانًا قصيًا وجاء الحمل بالمدة المقررة عُرفًا كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ [عبس: 21] القبر يأتي عقب الموت مباشرة فاستخدم الفاء أما قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: 22]. فالنشور والقيامة يأتيان بعد القبر بمدة طويلة، لذا استخدم ﴿ثمّ﴾ التي تفيد الترتيب والتراخي.[36]

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فيه أمرٌ بالسَّبَبِ في الرزقِ وتَكَلُّفِ الكَسبِ، واستُدِلَّ مِن هذه الآيةِ على أنَّ الرِّزقَ وإن كان محتومًا فإنَّ اللهَ تعالى قد وَكَّلَ ابنَ آدمَ إلى السعيِ فيه لأنَّه أَمَرَ مريمَ عليها السلام بهَزِّ النَّخلةِ لترى آيةً، وكان يمكن أن تكونَ الآيةُ بألَّا تَهُزَّ. فأخذ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ السَّعيَ والتسَبُّبَ في تحصيلِ الرِّزقِ أمرٌ مأمورٌ به شرعًا وأنَّه لا ينافي التوكُّلَ على الله جلَّ وعلا، وهذا أمرٌ كالمعلومِ مِن الدِّينِ بالضَّرورةِ: أنَّ الأخذَ بالأسبابِ في تحصيلِ المنافِعِ ودَفعِ المضارِّ في الدُّنيا أمرٌ مأمورٌ به شَرعًا لا ينافي التوكُّلَ على اللهِ بحالٍ لأنَّ المكَلَّفَ يتعاطى السَّبَبَ امتِثالًا لأمرِ رَبِّه مع عِلمِه ويقينِه أنَّه لا يقَعُ إلَّا ما يشاءُ اللهُ وُقوعَه، فهو متوكِّلٌ على اللهِ عالمٌ أنَّه لا يُصيبُه إلَّا ما كتَبَ اللهُ له مِن خيرٍ أو شَرٍّ ولو شاء الله تَخلُّفَ تأثيرِ الأسبابِ عن مُسَبِّباتِها لتخلَّفَ.

2- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾: أمَرَها اللهُ تعالى بأن تنذرَ الصَّومَ لئلَّا تَشرعَ مع مَن اتَّهمها في الكلامِ لِمَعنيين:

- أحدُهما: أنَّ كلامَ عيسى عليه السَّلامُ أقوى في إزالةِ التُّهمةِ مِن كلامِها وفيه دَلالةٌ على أنَّ تفويضَ الأمرِ إلى الأفضَلِ أَولى.

36- يُنظر: تفسير الزمخشري 13/3، تفسير أبي حيان 253/7، تفسير ابن عاشور 87/16، 88، تفسير ابن كثير 225/5، تفسير ابن جرير 516/15، تفسير القرطبي 98/11، تفسير السعدي.

- والثاني: كراهةُ مُجادلةِ السُّفهاءِ، وفيه أنَّ السُّكوتَ عن السَّفيهِ واجِبٌ، ومِن أذَلِّ النَّاسِ سَفيهٌ لم يجِدْ مُسافِهًا.

3- قولُه تعالى حكايةً عن مريمَ: ﴿وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تمنَّتْ مريم عليها السلام لو كانت شيئًا لا يُؤْبَهُ له، من شأْنِه وحقِّه أنْ يُنْسى في العادةِ، وقد نُسِيَ وطُرِحَ، فوُجِدَ فيه النِّسيانُ الَّذي هو حقُّه، وذلك لِما لحِقَها مِن فرطِ الحياءِ والخجلِ مِن النَّاسِ على حُكمِ العادةِ البشريَّةِ؛ لا كراهةً لحُكمِ اللهِ أو لشدَّةِ التَّكليفِ عليها إذا بَهَتوها وهي عارفةٌ ببَراءةِ السَّاحةِ، وبضِدِّ ما عِيبَتْ به مِن اختصاصِ اللهِ إيَّاها بغايةِ الإجلالِ والإكرامِ لأنَّه مقامٌ دَحْضٌ، قلَّما تثبُتُ عليه الأقدامُ: أنْ تعرِفَ اغتباطَكَ بأمْرٍ عظيمٍ وفضْلٍ باهرٍ، تستحِقُّ به المدحَ وتستوجِبُ التَّعظيمَ، ثمَّ تراهُ عندَ النَّاسِ – لجَهْلِهم به – عيبًا يُعابُ به ويُعنَّفُ بسَبَبِه، أو لخوفِها على النَّاسِ أنْ يَعْصوا اللهَ بسببِها.

4- قَولُ اللهِ تعالى إخبارًا عن مريمَ عليها السَّلامُ: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ تمنِّي الموتِ عندَ الفِتنةِ فإنَّها عَرَفَت أنَّها ستُبتلَى وتُمتحَنُ بهذا المولودِ الذي لا يحمِلُ النَّاسُ أمرَها فيه على السَّدادِ، ولا يصَدِّقونَها في خبرِها، وبعدما كانت عندَهم عابِدةً ناسِكةً تُصبِحُ عِندَهم – فيما يظنُّونَ – عاهِرةً زانيةً، فمريمُ تمنَّت الموتَ مِن جهةِ الدِّينِ إذ خافت أن يُظَنَّ بها الشَّرُّ في دينِها وتُعيَّرَ فيَفتِنَها ذلك، وهذا مباحٌ، وعلى هذا الحَدِّ تمنَّاه جماعةٌ مِن الصالحينَ، ونَهيُ النبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن تمنِّي الموتِ إنَّما هو لِضُرٍّ نَزَل بالبَدَنِ.

5- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ في هذا دليلٌ على مقامِ صبْرِها وصدْقِها في تلقِّي البَلوَى الَّتي ابتلاها اللهُ تعالى فلذلك كانت في مقامِ الصِّدِّيقيَّةِ.

6- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿25﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ فيه أصلٌ لِما يقولُه الأطبَّاءُ: إنَّ الرُّطَبَ ينفَعُ النُّفَساءَ. وقال عمرُو بنُ مَيمونٍ: ما من شَيءٍ خَيرٌ للنُّفَساءِ مِن التَّمرِ والرُّطَبِ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ الكريمةَ: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

7- قال الله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ فأُعْطِيَتْ رُطبًا دونَ التَّمرِ لأنَّ الرُّطبَ أشهَى للنَّفْسِ إذ هو كالفاكهةِ وأمَّا التَّمرُ فغِذاءٌ.

فإنْ قيل: ما كان حزنُها لفقْدِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى تُسلَّى بالسَّريِّ والرُّطبِ؟ فالجوابُ: لم تقَعِ التَّسليةُ بهما مِن حيثُ إنَّهما طعامٌ وشرابٌ، ولكنْ من حيثُ إنَّهما مُعجزتانِ تُريانِ النَّاسَ أنَّها من أهلِ العصمةِ والبُعدِ من الرِّيبةِ، وأنَّ مثْلَها ممَّا قَرَفوها به بمَعزلٍ، وأنَّ لها أُمورًا

إلهيَّةً خارجةً عن العاداتِ، خارقةً لِما ألِفُوا واعتادوا، حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّ وِلادَها من غيرِ فحْلٍ ليس ببِدْعٍ مِن شأنِها.

8- قصةُ مريمَ فيها كرامةٌ مِن عِدَّةِ أوجُهٍ:

- الأول: أنَّه قيلَ لها: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ وهي امرأةٌ نُفَساءُ. والمرأةُ النُّفَساءُ عادةً تكونُ ضعيفةً والهزُّ بجِذعِ النَّخلةِ لا يتأتَّى، بل إنَّه صَعبٌ. فإنَّ الرجُلَ القَويَّ إذا هزَّها مِن أسفَلَ لا تهتزُّ، لكنَّ مَريمَ قيل لها: هُزِّي بجِذعِ النَّخلةِ فهَزَّت فاهتَزَّت النَّخلةُ وهذه كرامةٌ.

- الثاني: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ والعادةُ أنَّ الرُّطَبَ إذا تساقَطَ مِن فَوقِ النَّخلةِ فإنَّه يَفسُدُ ويتفضَّخُ،[37] لكِنَّه في شأنِها بَقِيَ رُطَبًا جَنيًّا، وهذه كرامةٌ!

- الثالث: أنَّها لَمَّا جاءت تحمِلُ الولَدَ فقالوا لها مُعَرِّضينَ لها بالزِّنا: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28]، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: 29] فكلَّمَهم وهذه كرامةٌ.

فهذه كراماتٌ، وهي في الحقيقةِ تُشبِهُ آياتِ الأنبياءِ لكِنَّ الفَرقَ بينهما أنَّ آياتِ الأنبياءِ تأتي من النبيِّ، وكرامةَ الأولياءِ تأتي مِن وليٍّ مُتَّبِعٍ للنبيِّ.

9- النكرةُ في سياقِ الشَّرطِ تَعُمُّ. يُستفاد ذلك مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [38].

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُواْ يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]

فلما تعلت مريم من نفاسها أي انتهت منه، أتت بعيسى قومها تحمله، لماذا لم يقل ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا﴾ ويكتفي بذلك؟ لأنه يحتمل أن يكون أتت به وهو يمشي لكنها أتت به وهو طفل رضيع لا يكون منه إلا ما يكون من الأطفال الرُضّع الذين لا يَعُونَ، ولا يعقلون ولا يسمعون ولا يبصرون إلا الشيء الذي يُتاح لهم في تلك الفترة من العمر. وما كانت لتفعل ذلك وتتجرأ عليه إلا لثقتها في الحجة التي معها والتي ستوافيها على يد وليدها، بمعنى على ثقة وصراحة ووضوح لما استقر في نفسها من اليقين بأن هذا من الله عز وجل وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها.

والإنسان إذا كان على ثقة ويقين واطمئنان فإنه يأتي واثقَ الخُطَى مطمئنا، لذلك لما سأل بعضُ المستشرقين الإمامَ محمد عبده رَحِمَهُ اللَّهُ في باريس: بأيِّ وجه قابلتْ عائشة قومها بعد حديث الإفْكِ؟

37- فَضْخُ الرُّطَبَةِ: شَدْخُها. والفَضخُ: كَسْرُ كلِّ شَيْءٍ. يُنظر: المحكم والمحيط الأعظم لابن سيده 44/5.

38- ينظر تفسير ابن عطية 10/4، تفسير الرسعني 406/4.

سبحان الله إنهم يعلمون أنه إفْكٌ وباطل، لكنهم يرددونه كأنهم لا يفهمون. فأجاب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ببساطة: بالوجه الذي قابلتْ به مريم قومها وهي تحمل وليدها. أي: بوجه الواثق من البراءة المطمئن إلى تأييد الله، وأنه سبحانه لن يُسْلِمها أبدًا، لذلك لما نزلتْ براءة عائشة في كتاب الله قالوا لها: اشكري النبي. فقالت: بل أشكر الله الذي برأني من فوق سبع سماوات. فلما رآها القوم على هذه الحال قالوا فيها قولًا غليظًا: ﴿يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾.

﴿**فَرِيًّا**﴾: الفَرْيُ للجلد: تقطيعه. والأمر الفري: الذي يقطع معتادًا عند الناس فليس له مثيل، أو من الفِرْية، وهي الأمر المخالف للواقع. ومنه تعمد الكذب. وأرادوا هنا بذلك البغاء، وحاشاها من ذلك.

لقد جئتِ شيئًا عظيمًا وعجبا، استعظم قومها هذا الفعل واستنكروه من مريم الطاهرة.. لا يليق بك. وقد سارعوا إلى اتهامها فقذفوها وهي امرأة صالحة عابدة لا تُعْرَف إلا في بيت المقدس، قد نذرت نفسها للعبادة، وسارعوا إلى قذفها بهذا الذي هي عليه من دون بيّنة، والافتراء هو الكذب والاختلاق، وهذا كناية عن الزنا.

كان الأجدر بهم أن يسألوها: ما هذا الذي معك؟ من أين لك هذا الطفل؟ حتى يتبين لهم الأمر.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم: 28]

﴿**يَا أُخْتَ هَارُونَ**﴾: يناديها قومها بأخت هارون، قيل لأن لها أخًا من أمها أو من أمها وأبيها اسمه هارون كان رجلًا صالحًا، أو أنه رجلٌ صالح من بني إسرائيل في زمانها يقال له هارون فهم يقولون يا شبيهة هارون في العبادة، ذلك الرجل الصالح، وقيل ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ أي يا شبيهة هارون عليه الصلاة والسلام الذي هو أخو موسى وقد كانت هي من نسل هارون وليست من نسل موسى وكانوا يطلقون كلمة أخ أو أخت على التشابه في الحال أو الصلاح مع هذا الرجل الصالح كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: 48]. أختها هنا أي مشابهةً لها.

وعن المغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: «لَمَّا قَدِمتُ نَجرانَ سَألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤونَ ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قَدِمتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألتُه عن ذلك فقال: إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصَّالحينَ قَبلَهم»[39].

39- رواه مسلم 2135.

﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾: وهنا يبين قومها سبب استغرابهم لهذا الأمر، أي: أنت من بيت طيب طاهر معروف بالصلاح والعبادة والزهادة..

﴿**مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ**﴾ ما كان إنسانًا معروفًا بالفاحشة وبالخبائث والقاذورات.

﴿**وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا**﴾ وأمك طاهرة نقية لم تكن تمارس الزنا وتعتاده فكيف صدر هذا منك؟ ما الذي جعلك تسلكين هذا السلوك المشين وتأتين بهذا البهتان العظيم أي الزنا؟ إذن هم اتهموها وحققوا التهمة وكان الأجدر بهم أن يسألوها وأن يتأكدوا ويتثبتوا قبل أن يظنوا بها ويلقوا بالتهمة عليها. وهذا الذي حصل لها مثل الذي حصل لأمّنا عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الإفك المعروفة في غزوة بني المصطلق.. لما فقدت عِقْدَهَا ذهبت لتبحث عنه فذهب الجيش وتأخرت في البحث.. فلما جاءت إلى مكانهم وجدتهم قد ارتحلوا وهم لم يعلموا عنها لأنها كانت خفيفة اللحم فحملوا الهودج ووضعوه فوق البعير وساروا بها يظنون أن عائشة فيه، فلما جاءت لم تجد أحدًا قالت: "فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونَنِي، فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ"[40] فلما استنار الصبح جاء صفوان بن معطّل وكان رجلًا يبقى من بعد الجيش من أجل أن يحمل المفقود ويردف من تأخر ونحو ذلك. فلما رأى عائشة ما زاد على أن استرجع، وأناخ لها راحلته ثم أركبها ولم يكلمها بكلمة. فلم يدرك القوم إلا في وضح النهار وكانوا قد استراحوا. فلما جاءت الناقة وعليها عائشة ويقودها صفوان قالوا قد فعلت معه الفاحشة – حاشاها من ذلك– ووقعوا في عرضها. وما خطر ببالها رضي الله تعالى عنها وأرضاها ذلك ولا علمت به إلا بعد شهر من حديثهم في هذا الأمر وخوضهم فيه، وما علمت إلا من أم مسطح بن أثاثة: "قالت تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ: بِئْسَ ما قُلْتِ، تَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا فَذَكَرَ حَدِيثَ الإِفْكِ"[41]. فقالت أما سمعتِ ما يتحدث الناس به؟ لأن مسطح كان ممن خاض في عرض عائشة، قالت: فاستأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهبت إلى بيتي ورسول الله صلى الله عليه وسلم لم يوحَ إليه في أمرها شيء، لكنه لم يتكلم في شأنها بشيء عليه الصلاة والسلام لأنه عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن يلقي كلمة إلا ببينة. فهو سأل وتثبّت ولم يعلم عن أهله إلا خيرًا ولم يقل لها شيئًا عليه الصلاة والسلام وذهبت إلى أهلها وحصل ما حصل وجاءت الآيات: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: 11].

40- الراوي: عائشة أم المؤمنين – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 2661 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

41- الراوي: عائشة أم المؤمنين – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 4025 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

من العجائب في هذه القصة أن الإمام الباقلاني رحمه الله في القرن الخامس الهجري لما ذهب برسالة من عضد الدولة البويهي إلى ملك الروم وأراد عضد الدولة أن يُرِي ملك الروم عالما من علماء المسلمين وذكيًا من أذكياء الدنيا، فملك الروم جمع البطارقة والقساوسة والرهبان من أجل أن يُحرِجوا الباقلاني. فكان من ضمن ما قالوه له أن قال له أحدهم: يا إمام، ذُكِرَ لنا أن امرأة نبيكم قد اتُهِمَت بالفاحشة، يريد من ذلك القدح في رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال الباقلاني: نعم هما امرأتان ذُكِرتا في القرآن بسوء وبرّأهما الله، أما إحداهما فجاءت بولد وأما الأخرى فلم تأتِ بشيء، قال: فبهت الذي كفر، يعني إن كان إحداهما تريد أن تُلصِق بها الفِرية فمريم أولى وأنت تنزّه مريم ونحن ننزّه عائشة وننزّه مريم، فإن أصررت على الاتهام فهذه التهمة لازمةٌ لك في مريم لأنها جاءت بولد وعائشة لم تأتِ بولد فبهت الذي كفر وعرفوا أنهم أمام ذكي من أذكياء العالم وأنهم لا طاقة لهم به.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: 29]

سبحان الله! في قصة زكريا حبس الله لسانه ولم يستطع الكلام فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ليكون ذلك دليلًا على حمل امرأته بيحيى، وهنا أمرها الله عز وجل أن تسكت لتكون الآية العظمى، يعني جعل الله الصمت في القصتين دلالة على شيء متصل بالقصة، فعندما استنكر القوم وهاجموا مريم أومأت إلى عيسى عليه السلام وهو في المهد رضيع، أشارتْ إلى الوليد وهي واثقة أنه سيتكلم، مطمئنة إلى أنها لا تحمل دليل الجريمة، بل دليل البراءة.

وقيل المعنى: أشارت إليه أن كلموه وكان عيسى قد كلمها حين أتت قومها وقال يا أماه أبشري فإني عبد الله ومسيحه فلما أشارت أن كلموه تعجبوا من ذلك لأنه لم تجر به العادة؛ كأنهم يقولون: أنت تستخفين بنا بأن تجعلينا نكلم هذا الصبي. وغضبوا وظنوا أنها تستهزئ بهم وقالوا: لَسُخريتُها منا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشدُّ علينا من زناها ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.. جعلوا العيب في أنفسهم ولم يجعلوا العيب فيه، فلم يقولوا: ﴿كيف يتكلم الصبي﴾ كيف نكلم رضيعا؟ من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟ ولم تجر العادة من قبل بأن يتكلم المولود في المهد!!! فلما سمع عيسى كلامهم كان يرتضع فنزع الثدي من فمه واتكأ على جنبه الأيسر ورفع أصبعه السبابة فوق منكبه وأقبل عليهم بوجهه فتكلم:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]

﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ**﴾: فخاطبهم بوصفه بالعبودية.. سبحان الله! عيسى عليه الصلاة والسلام في تلك اللحظة كان الأجدر والأولى في نظرنا أن يبدأ بقصة أمه فيبرئها يقول "أمي ليست زانية" ويكتفي بهذا لكنه بدأ بحق الله أولًا لأن حق الله أعظم من حق أمه، حق الله في التنزيه ونفي الشريك أولى وأعظم من حق أمه فأول ما نطق اعترف بالعبودية لله وهذا يدل على أن أعظم ما ينطق به الإنسان هو اعترافه لله بالعبودية، وفي هذا النطق في هذه الكلمة رد على النصارى الذين قالوا إنه ابن الله؛ لأن السورة نازلة على النبي صلى الله عليه وسلم في الرد على النصارى وهذه هي الكلمة التي هاج بسببها أصحاب بطارقة النجاشي وبسببها أسلم النجاشي، وأنه ليس فيه صفة يستحق أن يكون بسببها إلهًا أو ابنًا للإله، أو ثالث ثلاثة، أو أنه جزء من الله.. تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

وقد آتاه اللهُ الكتابَ قبل الأربعين.

﴿**آتَانِيَ الْكِتَابَ**﴾: أي سيؤتيني الكتاب أي الإنجيل، وقيل علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه.

﴿**وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾: أي سيجعلني نبيًا.

آتاني الكتاب: بصيغة الماضي وهو لم يؤت بعد، وجعلني نبيا وهو لم يُنبأ بعد وكأنه قد حصل. لماذا؟ أفاد الكلام تحقيق خبر الله؛ فلما كان تنزيل الكتاب عليه أمرا محققا وجعله نبيا فلا بد أن يكون كما أخبر الله كقوله سبحانه ﴿اقتربت الساعة﴾.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 31]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال عيسى عليه السَّلامُ: إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا فأخبَرَهم بأنَّه عبدُ الله، وأنَّ اللهَ عَلَّمَه الكتابَ، وجَعَله من جملةِ أنبيائِه، فهذا مِن كَمالِه لنَفسِه؛ ذكَرَ بَعدَه تكميلَه لِغَيرِه، فقال:

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: أي وجعَلَني ذا برَكاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفَّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزمانٍ أكونُ فيه.

اختلف المفسرون في بيان نوع هذه البركة، فمنهم من قال ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي معلِّمًا للخير، ومنهم من قال آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، والصحيح أنها بركة عامة شاملة على كل من يأتي إليه وفي كل مكان ينزل فيه وعلى كل من يصحبه أو يلازمه أو يجلس إليه أو يستمع منه أو يهتدي به.

روى أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية قال: نفّاعًا حيثما توجهت. وقال مجاهد: معلما للخير فالبركة جعلها الله فيَّ من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، وهذه من صفات المؤمن، المؤمن طيب لا يأكل إلا طيبًا ولا يخرج منه إلا طيب، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثَلُ المؤْمِنِ كَمَثَلِ شَجَرَةٍ خَضْراءَ، لا يَسْقُطُ ورَقُها ولا يَتَحاتُّ فقالَ القَوْمُ: هي شَجَرَةُ كَذا، هي شَجَرَةُ كَذا، فأرَدْتُ أنْ أقُولَ: هي النَّخْلَةُ، وأنا غُلامٌ شابٌّ فاسْتَحْيَيْتُ، فقالَ: هي النَّخْلَةُ"[42]. لماذا؟ لو نظرنا إلى النخلة سبحان الله كلها فوائد وقد عدّ بعض الناس ما فيها من الفوائد فوجدوها بالمئات، في كل شيء في سعفها وفي أقنائها وفي جذعها وفي كَرَبها وفي ليفها وفي خوصها وفي تمرها ورطبها وفي نواها، فالمؤمن كما قال عيسى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾.

وقال جمهور المفسرين: من بركته عليه السلام أنه كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر في كل مكان ومن بركته عليه السلام كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله. ومن بركته عليه الصلاة والسلام أنه أحل لبني إسرائيل بعض ما كان محرمًا عليهم.

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾: أوصاني أي أمرني أمرًا مؤكدًا بالقيام بحقوقه التي من أعظمها الصلاة، أجل وأعظم قربة، والصلاة دين الأنبياء كلهم؛ ما من نبي إلا أمر أمته بالصلاة، فليست الصلاة قاصرةً على أمةِ محمد صلى الله عليه وسلم، بل هي في الناس وفي الأنبياء كلهم. وأركان الإسلام كلها مما اجتمعت عليه الأنبياء الشهادتان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج، كل هذه الأركان موجودة في الأمم السابقة. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

لما صلّى النبي صلى الله عليه وسلم في مسجد الخيف من منى وهو المسجد المعروف الآن قال: "صلَّى في مسجدِ الخَيْفِ سبعون نبيًّا"[43] مما يدل على أن الأنبياء حجّوا بيت الله الحرام وأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما جدد بناء البيت كما قال كثير من العلماء. ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: 127].. البيت الحرام معروف من عهد آدم لكن اندثر في زمن من الأزمان، قد يكون بعد الطوفان، فجاء إبراهيم وجدد بناءه.

42- الراوي: عبد الله بن عمر. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 6122. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

43- الراوي: عبد الله بن عباس - المحدث: المنذري - المصدر: الترغيب والترهيب. الصفحة أو الرقم: 2/178 - خلاصة حكم المحدث: إسناده حسن.

﴿**وَالزَّكَاةِ**﴾: وحقوق عباده التي أجلّها الزكاة وهي أيضًا شريعة من شرائع الأنبياء وهي حق الفقراء والمساكين على الأغنياء. وكثيرا ما يقرن الله سبحانه وتعالي الصلاة والزكاة في القرآن لأهميتهما وترابطهما، وهما فرض على كل مسلم بالغ عاقل.

﴿**مَا دُمْتُ حَيًّا**﴾: مدة حياتي، أي: أنا ممتثل لوصية ربي، عامل عليها منفذ لها. وهذا فيه الرد على غُلاة المتصوّفة الذين يرون أن الإنسان قد يصل إلى مرحلة تسقط عنه التكاليف، فهذا عيسى يقول ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وهو من أولي العزم من الرسل، وهؤلاء يقولون إنه يمكن للإنسان أن يصل إلى مرحلة لا يقوم فيها بشيء من التكاليف! قال الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يدل على دوام صلاته، أي أنه رُفع حيًّا إلى السماءِ وهو قائم يصلي والله تعالى أعلى وأعلم.

وقوله ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ فيها دلالة على أن الإنسان مأمور بالزكاة ولو لم يكن غنيًّا، بل إنه ينفق مما أعطاه الله تعالى، فإن استحق ماله الزكاة فهذا واجب عليه، وإنما المقصود هنا بالزكاة أن يكون نافعًا للخلق سواء كان نفعًا ماديًا أو علميًّا أو معنويًّا.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32]

﴿**وَبَرًّا بِوَالِدَتِي**﴾: أي وأمرني ببر والدتي، فيحسن إليها غاية الإحسان ويقوم بما ينبغي لها لشرفها وفضلها ولكونها والدةً لها حقُّ الولادةِ وتوابعُها، وهذا يدل دلالة صريحة وواضحة على أن اقتران الصلاة والزكاة بالوالدين يدل على عظم بر الوالدين وأنه من أحق ما يكون على الإنسان، ولذلك قرنه الله تعالى بحقه في آيات كثيرة: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23].

قالَ ابْنُ عَبّاسٍ: لَمّا قالَ هَذا ولَمْ يَقُلْ: ﴿بِوالِدِي﴾ عَلِمُوا أنَّهُ وُلِدَ مِن غَيْرِ بَشَرٍ.

﴿**وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا**﴾: أي ولم يجعلني جبارًا مستكبرًا عن عبادته وطاعته وبر والدتي فأشقى بذلك، لاحظوا في قصة يحي قال ﴿جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، وهذا يدلنا على أن جبروت الإنسان يمنعه من البِرّ.. فإذا رأينا جبّارًا نعلم أنه عاقٌ لوالديه؛ فالجبار الجافي الغليظ لا يكون مع والديه إلا عاقًا، فإذا ملأ الله عز وجل قلبه رحمة وحنانًا ولطفًا فإنه يكون بإذن الله بَرًّا بوالديه. قال بعض العلماء: لا تجد أحدًا عاقًا لوالديه إلا وجدته جبارًا شقيًا ثم قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾. قال: ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالًا فخورًا. ثم قرأ: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36]. وسيئ الملكة هو من يسيء إلى المماليك.

قال قتادة: ذكر لنا أن امرأةً رأت ابنَ مريمَ يُحيِي الموتى ويبرئُ الأكمَهَ والأبرصَ في آياتٍ سَلَّطَهُ اللهُ عليهن وأذن له فيهن، فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، وطوبى للثدي الذي أرضعت به، فقال نبي الله عيسى عليه السلام يجيبها: طوبى لمن تلا كتابَ اللهِ فاتَّبَع ما فيه، ولم يكن جبارًا شقيًا.

ويدل اقتران كلمة ﴿شَقِيًّا﴾ بكلمة ﴿جَبَّارًا﴾ على أن من أشقى الناس الجبابرة؛ فإنهم يشقون في حياتهم لمخالفتهم الفطرة ولمخالفتهم طبائع الناس في الخير، ولمصادمتهم الناس. فيدل على أن التكبر والتجبر والتسلط سببٌ لشقاء الإنسان في حياته، وأنه كلما كان الإنسان متواضعًا ليّنًا طيبًا سمحًا سهلًا كان من أسعد الناس في حياته.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33]

سلمه الله تعالى في هذه الأحوال التي هي أشق ما يكون على العباد لأنها مواضع تحول، فيوم الولادة تحول من الحمل إلى الدنيا، ويوم الموت تحول من الدنيا إلى القبر ويوم البعث تحول من القبر إلى الحشر وأهوال القيامة، سلمه عند ولادته كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا: "ما مِن مَوْلُودٍ يُولَدُ إلَّا والشَّيْطانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيْطانِ إيَّاهُ، إلَّا مَرْيَمَ وابْنَها"، ثُمَّ يقولُ أبو هُرَيْرَةَ: واقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُها بكَ وذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ}" [آل عمران: 36][44]. وفي روايةٍ "كُلُّ بني آدمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ في جنبَيْه بإصبعِه حينَ يُولَدُ غيرَ عيسى بنِ مريمَ؛ ذَهَب يَطْعُنُ فطَعَن في الحجابِ"[45]. الحجاب: أي: المشيمةِ التي فيها الولدُ.[46]

قال الحافظ ابن حجر: قال القرطبي: هذا الطعنُ مِن الشيطانِ هو ابتداءُ التسليطِ، فحفِظ الله مريمَ وابنَها منه ببركةِ دعوةِ أمِّها حيثُ قالت: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36] ولم يكُنْ لمريمَ ذريةٌ غير عيسى.

ومَرَّ يومُ مولِدِهِ بسلامٍ رغم ما فيه من عجائب، فلم يتعرَّض له أحد بسوء، وهو الوليد الذي جاء من دون أب، وسلمه يوم موته لأنهم أخذوه ليصلبوه فنجّاه الله من أيديهم وألقى شبهَهُ على شخص آخر.. ورفعه الله تعالى إلى السماء، وسيسلمه أيضًا يوم يُبعثُ حيًّا.

44- الراوي: أبو هريرة – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 4548 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

45 – رواه البخاري 3286.

46- يُنظر: فتح الباري لابن حجر 470/6.

وهذه المواضع الثلاثة: يوم الميلاد ويوم الموت ويوم البعث لا يمكن أن تتكرر أبدًا، فالإنسان أيًا كان لا يولد مرتين ولا يموت مرتين ولا يبعث مرتين، فكلنا يولد مرة واحدةً ويموت مرة واحدة ويبعث مرة واحدة، فإذا سلم الإنسان في هذه المواطن الثلاثة فقد سلمه الله جل وعلا.

ما الفرق بين ﴿سلام﴾ ﴿والسلام﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15] و ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 33]؟

﴿السلام﴾: معرفة. والمعرفة هو ما دلّ على أمر معين.

﴿وسلام﴾: نكرة. والأصل في النكرة العموم والشمول. إذن كلمة "سلام" عامة وكلمة "السلام" أمر معين، لما نقول "رجل" نعني أيّ رجل، ولما نقول "الرجل" نقصد رجلًا معينًا، أو تعريف الجنس. إذن ﴿سلام﴾ أعم لأنها نكرة وربنا سبحانه وتعالى لم يحيِّ إلا بالتنكير في القرآن كله لأنه أعم وأشمل لكل السلام لا يترك منه شيئًا، مثل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: 59]، ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: 79]، ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: 109]، ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: 120].. حتى في الجنة: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: 58].. حتى الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: 73].

﴿سَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ هذه تحية ربنا على يحيى سلام نكرة من قبل الله تعالى، والآية الأخرى عيسى سلم على نفسه وليس من عند الله سبحانه وتعالى، والتعريف هنا ﴿السلام﴾ أفاد التخصيص، وعيسى لم يحيي نفسه بالتنكير تأدبًا أمام الله تعالى فَحَيَّى نفسه بالسلام المعرّف.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]

﴿**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ**﴾: يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ذلك الذي قصصناه عليك من خبر عيسى عليه السلام، ذلك العَظيمُ القَدرِ، العالي المنزِلة الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى بنُ مَريَمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه.

﴿قَولَ الحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: الذي فيه يختلفُ النَّاسُ ويشُكُّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنا، قاتلهم الله أنّى يؤفكون، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ أو ثالثُ ثلاثةٍ، تعالى الله عن إفكهم وتقوُّلِهِمْ عُلُوًّا كبيرًا، هذا الحق يمتري فيه النصارى ويمتري فيه اليهود.

﴿يَمْتَرُونَ﴾: من المرية. والمراء: وهو الاختلاف والجدال بالباطل، يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، أما الحقيقة، فهي أنه عبدٌ لله كما صرّح عيسى بنفسه ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾. قال قتادة: امترت

اليهود فيه والنصارى، فزعم اليهود أنه ساحرٌ وزعم النصارى أنه ابن الله وثالث ثلاثة كذبوا، فهذه قصة عيسى وهذا هو الحق الذي فيه يختلفون. فمنهم من آمن ومنهم من كفر به.

والعجيب أنه ليس في نصوص الإنجيل آية واحدة تدل على أن عيسى ربٌ أو ابنٌ للربِّ؛ وإنما كل الآيات تدل على أنه صفيٌ لله، مُختارٌ، مُصطفًى، مُجتبًى، لكنهم أوّلوها على مذهبهم الفاسد. وجعلوا معنى ذلك أنه ابنٌ للهِ، وهذه الحقيقة العظيمة التي ينافح النصارى عليها ويجعلونها أساس دينهم، سبحان الله، مثل ما يفعله الرافضة، فيجعلون ركن الدين الأعظم ﴿الإمامة﴾ فيقولون: من لم يؤمن بالإمامة لا دين له ولا يُقبَلُ منه لا توحيدٌ ولا صوم ولا صلاة ولا زكاة ولا حج. وهي أن نعتقدَ إمامةَ الأئمةِ الاثني عشرَ، نحن نقول لهم هذا هو القرآن بين أيديكم، أخرجوا لنا آية واحدةً تدل على هذا الركن الأعظم الذي جعلتموه محلَّ عقدِ الإيمانِ أو الكفرانِ، نريد آيةً واحدةً حتى تحتجُّوا بها.

كم في القرآن من آيات التوحيد؟ عشرات أو مئات أو يمكن آلاف الآيات، بل يمكن أن تكون كل آيات القرآن تدل على التوحيد، أين هي آية الإمامة؟ ما وجدوها.. ولن يجدوها، راحوا فألّفوا سورةً سموها سورةَ الولايةِ أو غيرها، وافتروا أن القرآن الموجود بين أيدينا هو ثلثُ القرآن الذي أوحاه الله إلى محمد، وأن ثلثيه – وهو قرآن فاطمة – سيأتي به المهدي عندما يخرج من سردابه الذي اختفى فيه منذ أكثر من عشرة قرون.. من أجل أن يغلِّفوا كذبتهم بما يختارون.

ما اللمسة البيانية في ذكر عيسى مرة والمسيح مرة وابن مريم مرة في القرآن الكريم؟

لو عملنا مسحًا في القرآن الكريم كله عن عيسى وجدنا أنه يُذكر على إحدى هذه الصيغ:

- المسيح ﴿لقبه﴾: ويدخل فيها المسيح، المسيح عيسى ابن مريم، المسيح ابن مريم.
- عيسى ﴿اسمه﴾: أي يسوع، ويدخل فيها عيسى وعيسى ابن مريم.
- ابن مريم ﴿كُنيته﴾ حيث ورد المسيح في كل السور سواء وحده أو المسيح عيسى ابن مريم أو المسيح ابن مريم. لم يأتِ في سياق ذكر الرسالة وإيتاء البيّنات أبدًا ولم ترد في التكليف وإنما أتى في مقام الثناء أو تصحيح العقيدة. واللقب في العربية يأتي للمدح أو الذم. والمسيح معناها المبارك: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: 45]، ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: 31].

وكذلك "ابن مريم" لم يأتِ مطلقًا بالتكليف: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: 50]. ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ [الزخرف: 57].

أما "عيسى" في كل أشكالها فهذا لفظ عام يأتي للتكليف والنداء والثناء، فهو عام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 46].

ولا نجد في القرآن كله "آتيناه البينات" إلا مع لفظ "عيسى": ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: 63]. إذن فالتكليف جاء باسم ﴿عيسى﴾ وليس بلقبه ولا كُنيته، والثناء أيضًا.

فكلمة ﴿عيسى﴾ عامة: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 112].

ما هو إعراب كلمة ﴿قَوْلَ﴾ في الآية: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]؟ قول: مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نقول قول الحق.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: 35]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى أنَّه خَلَقه عبدًا نَبِيًّا، نَزَّه نفسَه المقدَّسةَ، فقالَ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾: ينزه الله نفسه عن أن يكون له ولد أو شريك في الملك. ولا يليق ذلك بجلاله وعظمته. فالله جل وعلا غنيٌّ عن كل أحد ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ هذا تكذيب للنصارى في دعواهم أنه ابن الله، ما ينبغي ولا يليق، ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولدا؟! كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: 171].

وقال سُبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: 100].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: 92].

﴿**سُبْحَانَهُ**﴾: ننزّه الله تنزيهًا تامًا عن الولد وعن النقص وعن كل مشابهة للمخلوقين. والإنسان يحب الولد ويسعى إليه، لماذا؟

قالوا: لأن الإنسان ابْنُ دنياه، وهو يعلم أنه ميتٌ، فيحبُّ أن يكون له امتداد في الدنيا وذِكْر من بعده، فالإنسان يتمسّح في الدنيا حتى بعد موته، وهو لا يدري أن ذِكْر الإنسان لا يأتي بعده، بل

ذِكْره يسبقه إلى الآخرة بالعمل الصالح. إذن: فحبُّ الولد هنا لاستدامة استبقاء الحياة وهذا مُحَال في حَقِّ الله تبارك وتعالى لأنه الباقي الذي لا يزول.

وقد يُتخذ الولد ليكونَ عِزْوةً لأبيه وسَندًا ومُعِينًا، وهذا دليل الضَّعْف، والحق سبحانه هو القويّ الذي لا يحتاج إلى معونة أحد. وإذا أراد الله سبحانه شيئا صغيرًا أو كبيرًا، لم يمتنع عليه ولم يستصعب وإنما يقول له: "كن" فيكون كما شاءه وأراده، فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى. ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾.

إنما حقيقة عيسى أنه خُلِقَ بالكلمة، قال الله: كُنْ فكان، يقولون انظروا كيف جاء من أم بلا أب؟ هذا يدل على أنه ابنٌ لله، انظروا لهذا الدليل الواهي.. قال الله عز وجل في سورة آل عمران يحتجّ عليهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ يعني إن كنتم قد استغربتم من حال عيسى فحال آدم أغرب منه، لأن آدم قد خُلِقَ من غير أب ولا أم، فما الذي تستغربونه في حال عيسى؟!

﴿وإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36]

﴿**فَاعْبُدُوهُ**﴾: هذا إما أن يكون من كلام الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم، أو يكون من كلام عيسى عليه الصلاة والسلام الذي نُقِل في القرآن. وعلى أيّ الحالين، المعنى واحد؛ ففي حال كونه كلامَ عيسى عليه السلام فهو أمرَ بِهِ قومَهُ وهو في مهدِهِ بأن أخبرهم أن الله ربُّهُ وربُّهُم، وأمرهم بعبادته فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تشركوا معه أحدًا سواه ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله، صراط مستقيم، أي موصِلٌ إلى الله عز وجل، قويم لا التواءَ فيه ولا اعوجاجَ، وهو الطريق الذي يُوصّلُ العبد لمقصودِهِ من أقرب طريق وبأقلّ مجهود. ومعلوم أن الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطتين، من اتبعه رَشَدَ وهُدِيَ، ومن خالفه ضلّ وغوَى.

ما اللمسة البيانية في زيادة "هو" في آية سورة الزخرف: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 64] عن آية سورة مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾؟

هي: احتمال أن يكونَ ضميرًا منفصلًا يفيد التوكيدَ والحصرَ؛ فالسياق في الزخرف جاء في مقام عبادة عيسى واتخاذه إلهًا: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿57﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: 57-58] فهو أنكر هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ حصرًا على لسان عيسى.. بينما في سورة مريم فالآية جاءت بعد الولادة وليست في مقام اتخاذ إلهٍ، لا تزال المسألة أنه طفلٌ تحمِلُهُ أمُّهُ في المهد.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا زنى فقد يُبْتَلَى نسْلُه بالزِّنا والعياذُ بالله.

2- قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ الفواحشَ من أولادِ الصَّالحينَ أفحَشُ.

3- في قوله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ تنبيهٌ على أَثَرةِ المرأةِ ذاتِ الأصلِ الطاهرِ والمنبتِ الطيبِ، واجتنابِ ذواتِ المنابتِ الخبيثةِ.

4- قال الله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾. فإن قيل: ﴿أَتَتْ بِهِ﴾ يُغني عن تَحْمِلُهُ فما فائدةُ التَّكريرِ؟ فالجوابُ: أنَّه لَمَّا ظَهَرت منه آياتٌ، جاز أن يتوهَّمَ السَّامِعُ من فَأَتَتْ بِهِ أن يكونَ ساعيًا على قَدَميه، فيكون سَعيُه آيةً كنُطقِه. فقطع ذلك التوهُّمَ وأعلَمَ أنَّه كسائرِ الأطفالِ، وهذا مِثلُ قَولِ العَرَبِ: نظَرْتُ إلى فُلانٍ بعَيني.. فنَفَوا بذلك نظَرَ العَطفِ والرَّحمةِ وأثبَتوا أنَّه نظَرُ عَينٍ.

5- جُملةُ: تَحْمِلُهُ حالٌ من تاءِ "فَأَتَتْ"، وهذه الحالُ للدَّلالةِ على أنَّها أتَتْ مُعلِنةً به غيرَ ساترةٍ لأنَّها قد علِمَتْ أنَّ اللهَ سيُبرِّئُها ممَّا يُتَّهمُ به مِثْلُ مَن جاء في حالتِها.

6- في قَولِه تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿28﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ دلالةٌ على أنَّ الإشارةَ وإنْ قامتْ في الإفهامِ مَقامَ الكلامِ، إلا أنها ليستْ بكَلامٍ.. لأنَّ مَريمَ كانت نَذَرتْ ألَّا تُكَلِّمَ أحدًا، فلم تُخرِجْها الإشارةُ إلى ابنِها عيسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن النَّذرِ ولا عَدَّتْ كلامَها مما يُخرِجُها منه.

7- قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ إنَّما أشارَتْ إليه لِما تقدَّمَ لها مِن وعدِه أنَّه يجيبُهم عنها ويُغنيها عن الكلامِ، وقيل: بوحيٍ مِن الله إليها.

8- قال الله تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ الذُّرِّيَّةُ -في الغالِبِ- بَعضُها مِن بعضٍ في الصَّلاحِ وضِدِّه.

9- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ردٌّ على الغُلاةِ في المسيحِ وعلى الجُفاةِ النَّافينَ عنه ما أنعَمَ اللهُ به عليه.

10- قال الله تعالى حِكايةً عن عيسى حينَ تكلَّمَ في المهدِ صَبيًّا: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أنطقَه اللهُ تعالى به أوَّلًا لأنَّه أوَّلُ المقاماتِ، وللرَّدِّ على مَن يَزعُمُ رُبوبيَّتَه، ففي ذلك أعظمُ زجرٍ للنَّصارَى عن دعواهم أنَّه اللهُ أو ابنُه أو إلهٌ معه.

قال مُقاتِلٌ: أقَرَّ على نفسِه بالعُبوديَّةِ لله عزَّ وجَلَّ أوَّلَ ما تكَلَّمَ لِئَلَّا يُتَّخَذَ إلهًا.

11-قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ كلامُ عيسى هذا مِمَّا أهمَلَتْه أناجيلُ النَّصارى لأنَّهم طَوَوْا خبَرَ وُصولِها إلى أهلِها بعد وَضعِها؛ وهو طَيٌّ يُتعَجَّبُ منه ويدُلُّ على أنَّها كُتِبَت في أحوالٍ غيرِ مَضبوطةٍ فأطلَعَ اللهُ تعالى عليه نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

12-قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ هذه الكَلِمةُ التي نَطقَ بها عيسى في أوَّلِ خِطابِه لهم ذكرها اللهُ جَلَّ وعلا عنه في مواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 72]، وقَولِه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 51]، وقولِه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿63﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: 63-64]، وقال هنا: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36]، وقَولِه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: 117] إلى غيرِ ذلك من الآياتِ.

13-قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ مع أنَّ الذي اشتَدَّت الحاجةُ إليه في ذلك الوَقتِ إنَّما هو نفيُ تُهمةِ الزِّنا عن مَريمَ عليها السَّلامُ، إلَّا أنَّ عيسى عليه السلامُ لم يَنُصَّ على ذلك وإنَّما نَصَّ على إثباتِ عُبوديَّةِ نَفسِه كأنَّه جَعَل إزالةَ التُّهمةِ عن اللهِ تعالى أَولى من إزالةِ التُّهمةِ عن الأمِّ، فلهذا أوَّلَ ما تكَلَّمَ إنَّما تكَلَّمَ بها.

14-قولُه تعالى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فيه تنبيهٌ على بَراءةِ أُمِّه مِمَّا اتُّهِمَتْ به لأنَّه تعالى لا يخُصُّ بولدٍ موصوفٍ بالنُّبوَّةِ والخلالِ الحميدةِ إلَّا مُبرَّأةً مُصطفاةً.

15-قال المسيحُ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، فبَرَكاتُ أولياءِ الله الصَّالحينَ -باعتبارِ نَفعِهم للخَلقِ بدُعائِهم إلى طاعةِ اللهِ وبدُعائِهم للخَلقِ وبما يُنزِلُ اللهُ مِن الرَّحمةِ ويَدفَعُ من العذابِ بسَبَبِهم- حقٌّ موجودٌ.

16-في قولِ الله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، إنْ قلْتَ: كيف أُمِرَ بذلك مع أنَّه كان طِفلًا، وخِطابُ التَّكليفِ إنَّما يكونُ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ؟

فالجوابُ: أنَّ ذلك لا يدُلُّ على أنَّه أوصاهُ بأداءِ ذلك في الحالِ، بل أوصاهُ بالأداءِ بعدَ البُلوغِ والتَّمييزِ. وقيل: إنَّ اللهَ صَيَّره عقِبَ وِلادتِه بالغًا مُمَيِّزًا بدليلِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: 59]، فكما أنَّه تعالى خلَقَ آدمَ تامًّا كاملًا دَفعةً، فكذا القولُ في عيسى عليهما السَّلامُ وهو أقرَبُ إلى ظاهرِ قولِه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾، فما أوصاهُ بذلك إلَّا بعدَ بُلوغِه وتَمييزِه.

فإنْ قلْتَ: الزَّكاةُ إنَّما تجِبُ على الأغنياءِ وعيسى لم يزَلْ فقيرًا لابِسًا كِساءً مُدَّةَ مُكثِه في الأرضِ مع علْمِه تعالى بحالِه، فكيف أوصاهُ بها؟!

فالجواب: المرادُ بالزَّكاةِ هنا: تزكيةُ النَّفسِ وتطهيرُها من المعاصي لا زكاة المالِ.

وقيل: بلْ على حقيقتِها، وهذا أمْرٌ خاصٌّ به. وقرينةُ الخُصوصِ قولُه: ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ لدلالتِه على استغراقِ مُدَّةِ حياتِه بإيقاعِ الصَّلاةِ والصَّدقةِ، أي: أنْ يُصلِّيَ ويتصدَّقَ في أوقاتِ التَّمكُّنِ من ذلك، فالاستغراقُ المستفادُ من قولِه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ استغراقٌ عُرفِيٌّ مُرادٌ به الكثرةُ.

17–قال اللهُ تعالى عن المسيحِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿32﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ فبيَّنَ أنَّ اللهَ هو الذي جعله بَرًّا بوالِدتِه ولم يَجعَلْه جبَّارًا شَقيًّا، وهذا صريحُ قولِ أهلِ السُّنةِ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خالقُ أفعالِ العِباد.

وعن عبدِ اللهِ بنِ واقدٍ أبي رجاء، عن بعضِ أهلِ العِلمِ قال: لا تجِدُ عاقًّا إلَّا وجَدْتَه جبَّارًا شقيًّا، ثمَّ قرأ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

18–قوله: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ قد خَصَّه اللهُ تعالى بذلك بينَ قومِه، قيل: لأنَّ بِرَّ الوالدينِ كان ضعيفًا في بني إسرائيلَ يومئذٍ وبخاصَّةٍ الوالدة لأنَّها تُستضعَفُ، لأنَّ فرطَ حنانِها وشفقَتِها قد يُجرِّئانِ الولَدَ على التَّساهُلِ في البِرِّ بها.

19–قولُه تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ إشارةٌ إلى تنزيهِ أُمِّه عن الزِّنا؛ إذْ لو كانت زانيةً لَمَا كانَ الرَّسولُ المعصومُ مأمورًا بتعظيمِها.

20–قولهُ تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ احتَجَّ مالِكٌ –رحمه الله– بهذه الآيةِ على القَدَريَّةِ فقال: "ما أشَدَّها على أهلِ القَدَرِ! أخبَرَ عيسى عليه السَّلامُ بما قُضِيَ مِن أمْرِه وبما هو كائِنٌ إلى أن يموتَ".

21–قال الله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلامُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أعظَمُ أحوالِ الإنسانِ احتياجًا إلى السَّلامةِ هي هذه الأحوالُ الثَّلاثةُ؛ وهي يومُ الوِلادةِ، ويومُ الموتِ، ويَومُ البَعثِ.. فجَميعُ الأحوالِ التي يُحتاجُ فيها إلى السَّلامةِ واجتِماعِ السَّعادةِ مِن قِبَلِه تعالى طَلَبَها لِيَكونَ مَصونًا عن الآفاتِ والمخافاتِ في كلِّ الأحوالِ.

22–القضاءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ هو القضاءُ الكونِيُّ، ويقابلُه القضاءُ الدينيُّ كما في قَولِه تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23] أي: أمَرَ.

23-قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فيه إثباتُ القَولِ لله.

24-في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قولَ اللهِ يكونُ بصَوتٍ مَسموعٍ، لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، وكلمة ﴿لَهُ﴾ صريحةٌ في توجيهِ القَولِ للمَقولِ له، ولولا أنه يَسمَعُهُ لَمَا صار في توجيهِهِ له فائدةٌ؛ ولهذا يَسمَعُه الموَجَّهُ إليه الأمرُ فيَمتثِلُ ويكونُ.

25-في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قَولَ اللهِ يكونُ بحروفٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كُنْ﴾، وهي كلمةٌ بحرفينِ. فإن قال قائل: كيف يمكِنُ أن نتصَوَّرَ هذا ونحن نقولُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وأنتم تقولون إنَّه بحروفٍ؟

فالجوابُ: نعم، الحروفُ هي الحروفُ لكِنَّ كيفيَّةَ الكلامِ وحقيقةَ النُّطقِ بها أو القَولِ لا يُماثِلُ نُطقَ المخلوقِ وقَولَه. ومِن هنا نَعرِفُ أنَّنا لا نكونُ مُمَثِّلةً إذا قلنا إنَّه بحرفٍ وصَوتٍ مَسموعٍ، لأننا نقول: صَوتٌ ليس كأصواتِ المخلوقينَ بل هو حَسَبَ ما يليقُ بعَظَمتِه وجلالِه.

26-في قولِه تعالى :إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ دَلالةٌ على أنَّه ليس بينَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكوُّنِه تراخٍ بل يكونُ على الفوريَّةِ وذلك لقَولِه تعالى :فَيَكُونُ بالفاءِ والفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتَّعقيبِ.

27-قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ مُدبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم هو اللهُ تعالى على خِلافِ قَولِ المنَجِّمينَ: إنَّ مُدَبِّرَ النَّاسِ ومُصلِحَ أمورِهم في السَّعادةِ والشَّقاوةِ هي الكواكِبُ!

28-قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فيه الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الإلهيَّةِ والاستِدلالُ بالأوَّلِ على الثَّاني[47].

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: 37]

انتقل السياق من قصة عيسى إلى حال الناس مع هذه القصة واختلافهم. وهذا إخبار من الله للرسول بتفرق بني إسرائيل فِرَقًا، ومعنى ﴿من بينهم﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين؛ لم يقع الاختلاف بسبب غيرهم. قال المفسرون: "من" زائدة، والمعنى أنهم اختلفوا بينهم.

47- يُنظر تفسير القرطبي 103/11، تفسير ابن عاشور 100/16، تفسير ابن جرير 533/15، تفسير أبي حيان 258/7، تفسير البغوي 232/3. أضواء البيان للشنقيطي 417/3، فتح الرَّحْمٰن للأنصاري ص 354- 355. تفسير الرازي 539/21، تفسير السعدي ص 493.

﴿**الْأَحْزَابُ**﴾: هم اليهود والنصارى على اختلاف طبقاتهم. اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غلى فيه وجاف: النصارى؛ غلوا فيه وقابلوا التفريط بالإفراط، فمنهم من جعله إلهًا وقال إنه الله. ومنهم من قال إنه ابن الله. ومنهم من قال إنه ثالث ثلاثة. ومنهم من لم يجعله رسولًا، بل رماه بأنه ولدُ بغِيٍّ كاليهود؛ فرطوا في عيسى عليه السلام ونسبوا إلى أمه الزنا واتهموه بأنه ساحر.

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة وآراؤهم فاسدة مبنية على الشك والعناد والأدلة الفاسدة والشُّبَهِ الكاسدة.

وكلُّ هؤلاءِ مستحقون للوعيد الشديد ولهذا قال الله تعالى:

﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾: لم يقل "فويل لهم" ولم يقل "فويل للأحزاب"، بل قال فويل للذين كفروا ليبين حكمَهُم وهو أنهم قد كفروا. وهذا دليل على كفرهم في أمر عيسى.

وهناك طائفة من الأحزاب أصابت الصواب ووافقت الحق وقالت إنه عبد الله، ولهذا إذا دخل الإنسان في الإسلام، فإنه يشهد بشهادته بالإسلام: ﴿أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله﴾ كما جاء في الحديث الصحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأنَّ عِيسَى عبدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منه، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ علَى ما كانَ مِنَ العَمَلِ". وفي رِوايةٍ زاد: "مِن أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ أَيَّهَا شَاءَ"[48].

فكل من دخل في الإسلام يقر بذلك، فويل للذين كفروا بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر، مع أن الله تعالى أتى لنا باليقين في شأن عيسى وأنه عبد الله وأنطقه بنفسه في مهده وبعد تكليفه وبعد أن خاطب قومه فقال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾. وقال لقومه ﴿فاعبدوه﴾.. وهنا درس عظيم: فقد يضل أناس مع وجود الحق البَيِّنِ أمامهم ومعرفتهم له، وهذا يوصلنا إلى استشعار نعمة الله علينا أن هدانا وفتح علينا بمعرفة الحق واتباعه. فالله تعالى أنعم علينا – أهل الإسلام– بمعرفة حال عيسى واتباع الحق فيه، ومعرفته والإيمان بما أخبر الله تعالى به. وهذه كرامة وفضل من الله تعالى على أهل الإسلام بينما ضل في ذلك أقوام كثيرون.

﴿**مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ أي: مشهد يوم القيامة، وسماه المشهد العظيم لأنه يوم مشهود يشهده الجميع، يشهده الثقلان: الإنس والجن، وتشهده الملائكة، يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، في حضرة الجبار الذي أشرك به الكفار. لأن العذاب في الدنيا مثلًا لا يشهده إلا الحاضرون المعاصرون، ولا يشهده السابقون ولا اللاحقون، أما عذاب الآخرة فهو المشهد العظيم

48- الراوي: عبادة بن الصامت – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 3435 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

الذي يراه كل الخَلْق، فحينئذ يتبين ما كانوا يبدون ويكتمون.. يوم تُبْلَى السرائر لا أحد يخفي شيئا، فتظهر فضائح الخلق في ذلك اليوم ممن كان على ضلالة، وعلى معصية الله تعالى، فويل لهم يوم يبعثون، وويل لهم يوم يردون إلى الله تبارك وتعالى، يوم يقوم الناس لرب العالمين، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله.. "فويل" تهديد ووعيد شديد لمن كذب على الله وافترى وزعم أن له ولدًا، أي حَذِّرهم يا محمد وهَدِّدْهم بالويل، وهو وادٍ في جهنم تستغيث جهنم من شدة حره.. فكيف بساكنه أعاذنا الله وإياكم، أنظرهم تعالى إلى يوم القيامة وأجلهم حِلمًا منه وثقةً بقدرته عليهم. فإنه الذي لا يعجل على من عصاه، كما جاء في الصحيحين:

"إنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظّالِمِ حتَّى إذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102][49].

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: 38]

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾: يقول تعالى مخبرًا عن الكفار يوم القيامة إنهم يكونون أسمع شيء وأبصره، ما أشدّ سمعهم وأشدّ بصرهم في ذلك اليوم! إنهم لفي قوة السمع وفي قوة البصر يستيقنون حقيقةَ ما هم عليه وحقيقة الحق وحقيقة ضلالهم عليه، فيقرون بكفرهم وشركهم ويعترفون ويقولون ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

لكن ماذا ينفع السمع والبصر في يوم لا تكليف فيه؟! بعد أن كانوا في الدنيا لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها، يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يغني عنهم شيئًا، ولو كان هذا قبل معاينة العذاب لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله.

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ يعني يوم القيامة، ففي هذا اليوم سيرون كل شي على حقيقته. يقول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

في هذه الآية: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾، وفي سورة الكهف: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾.. السياق هنا في الحديث عن المقروء وهو ما ذكره الله تعالى عن عيسى مقروءًا يسمعونه ابتداءً فقدم السمع هنا، أما هناك ﴿أبصر به وأسمع﴾ في الحديث عن الله تعالى وعن ملكوته ففيه التفكر ابتداءً والله أعلم.

49- الراوي: أبو موسى الأشعري – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 4686 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾: لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضحٍ عن الحَقّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه فحيث يطلب منهم الهدى لا يهتدون، فالذي يعرف الحق ولا يسعى للدخول فيه وقبوله هو في ضلال مبين.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه عقَّب تَحذيرِهم من عذابِ الآخرةِ، والنِّداءِ على سُوءِ ضَلالِهم في الدُّنيا بالأمرِ بإنذارِهم استِقصاءً في الإعذارِ لهم[50].

﴿**وَأَنذِرْهُمْ**﴾: خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم، والضمير لجميع الناس، وقيل يعود على الظالمين. أي أنذر الخلائق يوم الحسرة.

والإنذار معناه الإعلام المصحوب بالتخويف على وجه الترهيب والتحذير من شر قادم، أنذر هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم على ما فرّطوا في جنب الله، أنذرهم أي خوفهم يا محمد من عذاب الله خَوِّفْ كفارَ مكة من هذا اليوم العظيم، يوم الحسرة، يوم القيامة، أنذرهم بأسا شديدا لعلهم يخافون ويقلعون عما هم فيه من الكفر والشرك والضلال الذي استحقوا به العذاب.

﴿**يَوْمَ الْحَسْرَةِ**﴾: من أسماء يوم القيامة، اليوم الذي يتحسّر فيه كل أحد، يتحسر المسيء إذ لم يحسن والمقصر إذ لم يزدد من الخير، يتحسّر فيه الكافر على كفره، والظالم على ظلمه، والباغي على بغيه، والمعتدي على عدوانه، بل يتحسّر فيه حتى المؤمن على تقصيره في أن لم يبلغ المنزلة التي كان يتمنى أن يبلغها ويسعى إلى بلوغها، هذا يوم الحسرة عظمه الله وحذر عباده منه فقال تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: 56].. وسيقول الكفار يوم القيامة: ﴿يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: 31] الحسرة: هي الندم البالغ الذي يصيب النفس الإنسانية حينما يفوتها خير لا يمكن تداركه، وهي أشد الندم حتى ينقطع الإنسان من أن يفعل شيئًا، وحينما يلقى شيئًا لا يستطيع دفعه. أما الندم، فيكون حزنًا على خير فاتَ لكن يمكن تداركه، كالتلميذ الذي يخفق في امتحان شهر من الشهور فيندم لكنه يمكنه تداركُ هذا الإخفاق في الشهر التالي، أما إذا أخفق في امتحان آخر العام فإنه يندم ندمًا شديدًا ويتحسَّر على عام فات لا يمكن تداركُ الخسارة فيه.

50- يُنظر: تفسير ابن عاشور 108/16.

والحسير هو المنقطع في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 4]. فحسيرٌ أي منقطعٌ، تبلغ به الحسرةُ درجةً لا ينتفع به حتى ينقطع ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: 30]. هذه أكبر الحسرات على الإنسان وليس هناك أكبر منها ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 167] منقطعة ولا فائدة من الرجوع مرة ثانية.

﴿**إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ**﴾: إذ حكم الله عز وجل وفصل بين العباد فقضى الأمر وفُرِغ من الحكم لأهل النار بالخلود فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح الموت وقال مقاتل: قضى العذاب أي فصل بين أهل الجنة وأهل النار وصار كل إلى ما صار إليه مخلدا فيه، فسر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآية فقال في الحديث الصحيح، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبُّون وينظرون، ويقولون: نعم هذا الموت. قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبُّون [51] وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت. قال: فيؤمر به فيذبح. قال: ثم يقال: يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود فلا موت. قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: 39]، وأشار بيده إلى الدنيا". [52]

والمعنى أن الحسرة ستصيب المتحسرين يوم القيامة بعد دخولهم النار ورؤيتهم دخول المؤمنين الصالحين الجنة. فإذا رأوا الناس دخلوا الجنة وهم في النار تحسروا حينئذ حسرةً ما بعدها حسرة، وندموا ندامةً ما بعدها ندامة.

﴿**وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ**﴾: أي اليوم، أي والحالُ أنَّ الكافرينَ في الدُّنيا في غَفلةٍ وذُهولٍ عَمَّا أُنذِروا به وعمَّا ينتَظِرُهم مِن العذابِ يومَ القيامةِ فهم مُنشَغِلونَ بدُنياهم، مُعرِضونَ عَمَّا يُرادُ منهم، ومن الغفلة غفلتهم عن الموت. وقد قيل: من مات قامت قيامته، كما قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿1﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿2﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1-3]. وقال سُبحانَه: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 97]. وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

51- فَيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: شرح النووي على مسلم 185/17.

52- الراوي: أبو سعيد الخدري - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 2849 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ومن حكمة الله أنْ أبهم الموت، أبهمه وقتًا وأبهمه سببًا وأبهمه مكانًا، فكان إبهام الموت هو عَيْن البيان للموت لأن إبهامه يجعل الإنسان على استعداد للقائه في أيّ وقت وبأيّ سبب وفي أيّ مكان، فالموت يأتي غفلة لأنه لا يتوقف على وقت أو سبب أو مكان.

﴿**وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾: أي وهم لا يصدّقون بالقيامة والبعث ومجازاة الله إياهم على سيئ أعمالهم، ولا يعملون العمل الصالح.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40]

أي نحن نرث الأرض، نميت سكانها فنرثها ومن عليها، فلن يبقوا فيها. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 23].

﴿**وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ**﴾ وإلينا لا إلى غَيرنا يُرَدُّ العِبادُ يومَ القيامةِ فيُبعَثونَ وبأعمالِهم ولن يبقى شيء من الملك لأحد إلا الله ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16]. فالله تعالى هو الخالق المالك المتصرف، والخلق كلهم يهلكون. كل نفس ذائقة الموت حتى ملك الموت نفسه سيموت ولا يبقي إلا وجهه سبحانه وتعالى. ولا أحد يدَّعي مُلكًا ولا تصرفًا، بل هو الوارث لجميع خلقه، الباقي بعدهم، الحاكم فيهم. ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]، فيجازيهم بما عملوا فيها. فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. ولو تدبرنا هذه الآية لوجدنا أربعة ضمائر بأسلوب الجمع، والله تبارك وتعالى واحد لا ثاني له؛ وإنما يتكلم بأسلوب العظمة والعزة والكبرياء لأنه العزيز، وأنه المتكبر وأنه العلي العظيم.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [مريم: 37].. فالناس مختلفون على الحق، فمنهم الغالي ومنهم المفرط.. فالنصارى غلت واليهود قصرت.. وبقيت فرقة أخرى بينهم مؤمنة وهم أهل الإسلام، نحمد الله على أن جعلنا من أهل الإسلام.

2- وفي قوله ﴿فَاخْتَلَفَ﴾: الفاء المباشرة للتعقيب تدل على أنهم مباشرة اختلفوا مع قربهم من الحق، وهذا يدل على أن النصارى اختلفوا في أمر عيسى منذ نشأته مع أن الحق بيّن، فحين رأوا أنه على غير مثال سابق في كونه من غير أب نسبوه إلى الله مباشرة.

3- في هذه الآيات دليل على سعة رحمة الله، فالله أنظرهم إلى يوم القيامة ولم يعاجلهم لعلهم أن يسلموا أو يؤمنوا أو يعودوا.

4- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعدَ قَولِه: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ ولم يقُلْ: ﴿فويلٌ لهم﴾ ليعودَ الضَّميرُ إلى الأحزابِ، لأنَّ مِن الأحزابِ المختَلِفينَ طائفةً أصابت الصَّوابَ ووافَقَت الحَقَّ فقالت في عيسى إنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه فآمَنوا به واتَّبَعوه. فهؤلاء مُؤمِنونَ غيرُ داخِلينَ في هذا الوَعيدِ. فلهذا خَصَّ اللهُ بالوعيدِ الكافرينَ.

5- قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تهديدٌ ووعيدٌ شديدٌ لِمَن كَذَب على اللهِ وافترى وزعَم أنَّ له وَلدًا، ولكِنْ أنظَرَهم الله تعالى إلى يومِ القيامةِ وأجَّلَهم حِلمًا وثِقةً بقُدرتِه عليهم فإنَّه الذي لا يَعجَلُ على مَن عصاه، كما جاء في الصَّحيحينِ: "إنَّ اللهَ لَيُمْلي للظَّالِمِ حتى إذا أخَذه لم يُفلِتْه. ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾" [هود: 102][53]

وفي الصَّحيحَينِ أيضًا عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: "ما أحدٌ أصبَرَ على أذًى سَمِعه مِنَ اللهِ، يَدَّعونَ له الولدَ ثمَّ يُعافيهم ويرزُقُهم"[54]. وما أشار اللهُ إليه مِن أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعذابِ وأنَّه يُؤخِّرُ عذابَهم إلى الوَقتِ المحدَّدِ لذلك، أشار له في مواضِعَ أُخَرَ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: 42]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: 104]، وقولِه تعالى: [وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: 53].

6- قال الله تعالى في شأن عيسى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وفي سورة الزخرف قال: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: 65]. إن قصة عيسى عليه السلام في هذه السورة مشروحة مبسوطة، وفيها نسبتهم إياه إلى الله. فذكر لفظ "الكفر" تصريحا.. وأما قصة الزخرف فهي مجملة، فوصفهم بلفظ دونه وهو "الظلم"، ففي وصف الكفر في المحل الذي استوفي فيه قصة عيسى أنسب من المحل الذي أُجمل فيه قصته والله أعلم.

7- ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: 38] إن التعبير بالظالمين في القرآن الكريم يطلق على المشركين الكافرين، والظلم يطلق على الشرك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] فإن الظالم لنفسه في الدنيا في غاية البعد عن الله

53- أخرجه البخاري 4686 ومسلم 2583 من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

54- أخرجه البخاري 7378 واللفظ له، ومسلم 2804 من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

لأن الله قال: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فأبعد الناس عن الله هم الظالمون والكفار.

8- قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿39﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 39-40].. والإنذارُ هو الإعلامُ بالمخُوفِ على وَجهِ التَّرهيبِ والإخبارُ بصِفاتِه، وأحقُّ ما يُنذَرُ به ويُخَوَّفُ به العِبادُ يومَ الحَسرةِ حينَ يُقضى الأمرُ فيُجمَعُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في مَوقِفٍ واحدٍ ويُسأَلونَ عن أعمالِهم، فمَن آمنَ باللهِ واتَّبَع رُسُلَه سَعِدَ سَعادةً لا يشقى بعدَها. ومَن لم يؤمِنْ باللهِ ويتَّبِعْ رُسُلَه شَقِيَ شَقاوةً لا سعادةَ بَعدَها وخَسِرَ نَفسَه وأهلَه. فحينئذٍ يتحَسَّرُ ويندَمُ ندامةً تتقَطَّعُ منها القُلوبُ وتنصَدِعُ منها الأفئدةُ، وأيُّ حسرةٍ أعظمُ مِن فواتِ رضا الله وجنَّتِه واستحقاقِ سخطِه والنارِ على وجهٍ لا يتمكَّنُ مِن الرُّجوعِ ليَستأنفَ العملَ ولا سبيلَ له إلى تغييرِ حالِه بالعودِ إلى الدُّنيا.

9- في هذه الآيات دليل على أن أمر الله نافذ لا محالة في قوله تعالى: ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ فالله تعالى إذا قضى الأمر فلا رجوع فيه إلا بإذنه سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28]. وفي هذه الآية دليل على أن باب التوبة مفتوح حتى تقوم الساعة أو يبلغ الإنسان أجله لقوله تعالى إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ولم يقض بعد. وفي هذه الآية تسلية لأهل الإيمان بأن هذا الطغيان الذي عليه أهل الكفر سيزول ويرجع الأمر إلى الله ويؤول هؤلاء الظلمة إلى عقاب ربهم، فمرجع الأمر إليه سبحانه وتعالى ﴿يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: 16].

10- وفي هذه الآية دليل على أن ملك العباد ملك مؤقت بالموت لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: 23]، فهنا ينقطع ملك الإنسان وما يملك بموته فأي قيمة للدنيا التي ينقطع فيها ملكه وما يملك إلا ما وفق إليه من عمل صالح.

11- وفيها أيضا كمال قدرة الله تعالى وشمول ملكه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ﴾ وفيها إثبات البعث والجزاء لقوله تعالى ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ وفيها أن أمر الخلق كلهم إلى الله وبيده لقوله تعالى ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، فالأمر لا يتوقف على وراثة ملكهم، بل يرجعون إليه للحساب والجزاء.

12- يفيد أسلوب التخويف في هذه الآية الحث على الأعمال الصالحة والذي يقرب إلى الله ويوصل إلى جنته ومرضاته؛ وفيه الحذر من طول الأمل. عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَنْكِبِيَّ فَقَالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ" وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ

عَنْهُمَا يَقُوْلُ: "إِذَا أَمْسَيْتَ فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلا تَنْتَظِرِ المسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِموْتِكَ" [55].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى ضَلالَ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ حَيًّا عاقِلًا فاهِمًا وهم النَّصارى، تكلَّمَ في ضَلالِ مَن أثبَتَ مَعبودًا غيرَ اللهِ جمادًا وهم عَبَدةُ الأوثانِ، فذَكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- مع أبيه تذكيرًا للعَرَبِ بما كان إبراهيمُ عليه مِن توحيدِ الله وتبيينِ أنَّهم سالِكو غيرِ طَريقِه، فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾. هذه السورة تتحدث عن التوحيد وعن عناية الله بأوليائه الموحدين وتوبيخه للمشركين المتخذين له ولدا، فبعد أن ذكر الله عنايته ورعايته لزكريا ومريم عليهما السلام إشارة إلى منحته الخاصة لأوليائه الموحدين وتذكيرا لبني إسرائيل بأن يكون زكريا ومريم من أسلافهم الصالحة فذكرهم الله تعالى بما كانوا عليه من التوحيد وأشعرهم بمنة الله عليهم ومنحهم الولد فكيف ينسبون لله الولد وهم يعلمون أنه سبحانه وتعالى هو الذي منح مريم الولد، ثم يتجه الحديث لإبراهيم عليه السلام في دعوته للتوحيد للأقربين، فاتصلت القصة في هذا الغرض العظيم وهو الدعوة للتوحيد وإخلاص الأنبياء لله تعالى بتوحيده توبيخا للمشركين والذين زعموا أن الله اتخذ ولدا، ولذلك نلاحظ أن قصص الأنبياء الواردة تضمنت لفظ "المخلص، إخلاصًا".

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾: أي واتلُ -يا محمَّدُ- في القرآنِ خبَرَ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ على قَومِك الذين هم مِن ذريَّتِه ويدَّعون كَذِبًا أنَّهم على مِلَّتِه ويتمَسَّكونَ بتَقليدِ آبائِهم، فهم يَعبُدونَ الأصنامَ. والحالُ أنَّ أعظَمَ آبائِهم -إبراهيمَ- كان حنيفًا مُسلِمًا ينهَى أباه عن الشِّركِ وعبادةِ الأصنامِ كما قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: 69].

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾: أي إنَّ إبراهيمَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِه وأعمالِه ومواعيدِه، بليغَ التَّصديقِ بكُلِّ ما هو أهلٌ لأن يُصَدَّقَ به، وكان نبيًّا رفيعَ القَدرِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: 124]. وقال سُبحانَه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: 37]. والصدِّيق هو من لم يُعْهَد منه كذبٌ قط،

55- رواه البخاري. يُنظر: تفسير ابن جرير 548/15، البسيط للواحدي 252/14، 253، تفسير ابن كثير 232/5، أضواء البيان للشنقيطي 420/3، تفسير السعدي ص ٤٩٣.

فهو يقول الصدق ويتحرّاه، في كل أمر من أموره يقول السداد ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: 70] أي مصيبًا لا كذب فيه ولا زيادة ولا نقص، الصديقية مرتبة عظيمة تأتي بعد مرتبة النبوة وقبل الشهادة لقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]، إذا قُدمت الصديقية على النبوة فهي دالة على الصدق في التوحيد والصدق في الأقوال والأفعال، وقد سمي أبو بكر بالصديق لأنه مصدقٌ بكل ما أمر به وما جاءه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ووصف الباري عز وجل إبراهيم عليه السلام بالصِّدّيق قبل وصفه بالنبوة، فمرتبة النبوة أرقى من مرتبة الصديقية. ويلزم لكل نبي أن يكون صدِّيقًا في حين أنه ليس كلُّ صديقٍ نبيًّا. وقال المفسرون إن هذا الأسلوب أسلوب الارتقاء في المدح من الأدنى إلى الأعلى وهو أسلوب المدح الحسن ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 41].. أي قد نبّأه الله عز وجل وأوحى إليه، ومن كرامة الله له أن الله لم يبعث نبيًا بعد إبراهيم إلا من ذريته، ولعل هذا بسبب كمال توحيده، وهو أعظم الرسل بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولذلك لم يحقق مرتبةَ الخُلّةِ من أنبياءِ الله أحدٌ إلا إبراهيمَ ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ فهما النبيان الكريمان والرسولان العظيمان اللذان حققا مرتبة الخُلّة، فهما خليلا الرَّحْمَٰن.

وذكر النبي إبراهيم في القرآن الكريم شرف عظيم وذكر حسن، وإبراهيم عليه السلام كان أبَا العرب، وكان العرب ينازعون اليهود والنصارى شرف الانتساب إليه عليه السلام.. وكانوا يقرُّون بعلو شأنه وطهارة دينه. فقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إبراهيم إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة: 130]. وقد اجتهد إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه، وذكر الله قصته مع أبيه ومراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ [مريم: 42] فبدأ بأبيه لأنه أقرب الناس إليه وأحقُّ الناس ببِرِّه. وهذا يبين لنا أن أعظم البِرّ أن يدخِل العبد أباه الجنة، أعظم البر وأبلغه أن يدلّه على الله وأن يوصله إلى رضوان الله عز وجل، ولذلك جاء هذا النموذج من البر بعد أن ذكر الله نموذجين: يحيى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: 14]، وعيسى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: 32].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾
[مريم: 42]

وهذا إبراهيم يبرّ بأبيه الذي قد كفر فيدعوه إلى الله دعاءً رفيقًا حنونًا رحيمًا ويكون مدرسةً للدعاة في دعوته هذه، مستنكرًا عليه عبادة الأوثان وأنها لا تليق به..

﴿**قَالَ يَا أَبَتِ**﴾: ما قال "يا هذا" أو قال "يا آزر" وإنما ﴿يَا أَبَتِ﴾ بكل تلطُّف وتحنُّن في الخطاب يتوجه إبراهيم إلى أبيه يحاول أن يهديه إلى الخير الذي هداه الله إليه وهو يتحبب إليه فيخاطبه: ﴿يَا أَبَتِ﴾. والأصل في الكلمة "يا أبي" وجيء بها كذلك دلالة على زيادة العطف والحنان والرقة بين الأب وابنه، ويسأل عليه السلام أباه قائلا:

﴿**لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا**﴾: لم تعبد أصناما ناقصة في ذاتها وأفعالها فلا تسمع ولا تبصر ولا تملك لعابدها نفعا ولا ضرًّا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع ولا تقدر على شيء من الدفع.. يستنكر عليه عبادة أحجارٍ لا تنفع ولا تضر، بل لا تسمع ولا تعي ولا تبصر شيئًا، فأنت يا أبي تسمع وتُبصِر وهذا الذي تعبده لا يسمع ولا يبصر، أنت أكمل منه وخيرٌ منه حالًا، فكيف يعبد الأكملُ الأقلَّ الأذل الأصم الذي لا يسمع ولا يعقل ولا يبصر، فهذا برهان جلي دال على أن عبادةَ الناقصِ في ذاتِهِ وأفعالِهِ مستقبحَةٌ عقلًا وشرعًا. وإذا ذمّ هذه الأصنام بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني شيئا دل على أن الذي ينبغي أن يُعبَدَ هو الكاملُ وهو الله، والذي لا يدفع عن العباد النقمةَ إلا هو سبحانه وتعالى.

وقد استدل العلماء بهذه الآية على أن اللهَ سميعٌ بصيرٌ، فلما استنكر إبراهيم على أبيه عبادة هذه الأصنام ووصفها بما وصفها من الصمم والبكم والعمى، وهي ثلاثُ صفاتٍ قادحةٌ في الألوهيةِ، لم يعارض ذلك آزر، بل ولم يرد عليه بالمثل بأن يقول له وأنت أيضا يا إبراهيم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر.. فهو يعلم أن الله العليَّ القديرَ سميعٌ بصيرٌ، وعلى كل شيء قديرٌ.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 43]

ثم يعيد عليه السلام النداءَ بتلطف آخر لعله يستدر لطفَ أبيهِ وحنانَهُ فكرّر قولَه: ﴿يَا أَبَتِ﴾ ليكون ذلك سببًا في قبول أبيه لدعوته، وهذا ما ينبغي على الداعية أن يصاحبه وهي الألفاظ الجميلة اللطيفة التي تقرّب الداعية من المدعو.

مناسبتُها لما قبلَها:

لما سألَه عن العلَّةِ في عبادةِ الصنمِ، ولا يمكنُ أن يجِدَ جوابًا، انتقَل معه إلى إخبارِه بأنَّه قد جاءَه مِن العلمِ ما لم يأتِه. وأيضًا لَمَّا نبَّهَه على أنَّ ما يَعبُدُه لا يَستَحِقُّ العبادةَ، بل لا تجوزُ عبادتُه لِنَقصِه مُطلَقًا ثمَّ نَقصِه عن عابِدِه، ولن يكونَ المعبودُ دونَ العابدِ أصلًا، وكان أقَلُّ ما يَصِلُ إليه بذلك مقامَ الحَيرةِ- نبَّهَه على أنَّه أهلٌ للهِدايةِ، فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾.

يتجلى لطف إبراهيم عليه السلام ورفقه بابيه؛ فهو لا يغلط في مدح نفسه ولا يفرط في حق أبيه، تأدّب مع أبيه فلم يصفه بالجهل، لم يقل يا أبتِ أنت جاهل ولا تفهم فخذ العلم مني، لأجل ألا ينفر أبوه منه.. فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبتِ إنِّي قد أُعطِيتُ مِن العِلمِ بالحَقِّ ما لم تُعْطَهُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: 51]. فأنت وإن كان عندك علم وإن كنت أنا من صلبك وأصغر منك سنًّا، إلا أنه جاءني علمٌ من عند الله عز وجل، عندي شيء جديد وأريد أن أضيفه إليك، مثل قول الهدهدِ لسليمان: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: 22] بمعنى: أنا عندي شي جديد فلا تستعجل في عقوبتي. ولا شك أن هذا أدعى لقبول عذره، عندي حُجّة وبرهان ووحي من الرَّحْمٰن، وأنت تقلِّد الآباء والأجداد من غير بيّنةٍ ولا حُجّةٍ، فاتَّبِعْني. ثم إني أنا ابنك لا يمكن أن أقودك إلى شيءٍ فيه مضرةٌ لك، لا يمكن أن أُضِلّكَ وقد هداني ربي، فلا ضيرَ ولا غضاضةَ في أن يتبعَ الوالدُ ولَدَهُ إذا كان الولدُ على اتصالٍ بمصدرٍ أعلَى.

﴿**فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ أدُلّك على الطريق السوي الذي لا عوج فيه ولا انحراف، يتفق مع العقل ومع الفطرة ومع الواقع ومع الحقيقة الكونية والحقيقة الشرعية.. ثم يناديه بتلطف مرة أخرى قائلا:

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: 44]

أي: يا أبتِ، لا تُطِعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ، فتكونَ عابدًا له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿60﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: 60-61]

﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا**﴾ أي: لأنَّ الشَّيطانَ عاصٍ للرَّحمنِ مُستكبِرٌ عن طاعتِه فلا تتَّبِعْه فتكونَ عاصيًا لله مِثلَهُ، لأن عبادةَ الأصنامِ هي طاعةٌ للشيطانِ، ومن عَبَدَ غيرَ اللهِ فقد عبدَ الشيطانَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: 60].

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾ إضافة العصيان إلى اسم الله ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله وتغلق عليه أبوابَها، فمن أراد أن ينال من رحمة الله فليكن للرحمنِ طائعًا.

وهنا نلاحظ تكرارَ كلمةِ "الرَّحْمَٰنِ" ستة عشر مرة في هذه السورة (سورة الرحمات) وهذا يدل على أن جو الرحمة يشعّ في السورة. ويناديه لمرة رابعة محافظا على أسلوبه المتلطف في الخطاب فيقول:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 45]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما قرَّر له أنَّ عبادتَه الأصنامَ اتِّباعٌ لأمرِ الشَّيطانِ، انْتَقَل إلى تَوَقُّعِ حرمانِه مِنْ رحمةِ اللَّهِ بأنْ يَحِلَّ به عذابٌ مِنَ اللَّهِ، فحَذَّره مِنْ عاقبةِ أنْ يصيرَ مِن أولياءِ الشَّيطان.

﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ**﴾ أي: يا أبتِ إنِّي أخافُ –إن أقمْتَ على الشِّركِ وأصرَرْتَ عليه– أن يُصيبَك عذابٌ واقِعٌ مِن الرَّحْمٰن. قال "عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ" مع أن الأمرَ متعلقٌ بالعذاب، ولم يقل "من الجبّار"، يذكره بالله وبرحمته وأنه رحيمٌ إذا تُبْتَ إليه تَابَ عليك، وإذا أقبلتَ عليهِ أقبلَ عليكَ، كما قال جل وعلا في الحديث القدسي:

"إذا تَقَرَّبَ العَبْدُ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ منه ذِراعًا، وإذا تقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ منه باعًا (أوْ بُوعًا)"[56].

يحذر إبراهيم عليه السلام أباه آزر من أن يغضب عليه الرَّحْمَٰنُ فيعاقبه، فقال: ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾ ولم يقل "يُصِبْكَ"؛ فالإصابة تكونُ شديدةً وقويةً، قال ﴿يَمَسَّكَ﴾ يعني مجرد مسّ، أنا ما أريد أن يصل إليك أدنى مسيسٍ من النارِ بسبب إصرارِكَ على الكفر، فمن أصر على الكفر استحق عذابَ الله.

﴿**فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا**﴾ أي: فتكونَ من أولياءِ الشَّيطانِ ومُقارِنًا له في النِّيرانِ، ويتبرَّأُ منك الرَّحْمَٰنُ فلا تكونُ لك نصرةٌ أبدًا، كما قال الله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: 30]. وقال سُبحانه: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: 63].

ولقد تدرج إبراهيم عليه السلام في دعوة أبيه بالأسهل فالأسهل، فأولًا أخبره بأن عنده علم، وثانيًا أن ذلك موجبٌ لاتباعهِ هذا العلمَ لأن الإنسانَ ينبغي أن يتبعَ العلمَ الصحيحَ إذا جاءه، وثالثًا أنه إن أطاعهُ اهتدى إلى الصراطِ المستقيمِ، ورابعًا انتقل إلى ضدِّ الأمرِ وهو عبادةُ الشيطانِ، فنهاهُ عن عبادتِهِ

56- الراوي: أبو هريرة – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 7537 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وأخبره بما فيها من المضار، وخامسًا حذّره عقابَ اللهِ ونقمتِهِ إن أقامَ على حالِهِ وأنه يكونُ حينئذٍ وليًّا للشيطان.

وهذه كلها خطوات عظيمة في الدعوة إلى الله، فعلى الداعيةِ أن يُخبِرَ بالعلمِ الصحيحِ ويبينَ أثرَ اتّباعِ هذا العلمِ الصحيحِ، ونتيجته، ثم ينهى عن ضدِّهِ ويبيّنُ ضررَ هذا الضِّدِّ، ثم نتيجةَ اتّباعِ الضدِّ وهي عقوبةُ اللهِ، تحلية وتخلية، فقد حلَّاهُ بالإيمان والتوحيد، وخلاه تخليةً من عبادةِ غير الله ﴿الشرك﴾.

لماذا استخدم اسم "الرَّحْمَٰن" مع العذاب مع أن اسم الرَّحْمَٰن اسم ينفعُ المؤمن؟ لأن الرَّحْمَٰن قد يُعذِّب من رحمته حتى يرعوِيَ من يرعوي، كما نربي نحن أولادنا ونضربهم حتى يرعوون.

- أولًا: نلاحظ أن السمة التعبيرية للسورة تفيض بالرحمة من أولها إلى آخرها من ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 1] إلى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]. فهي أكثر سورة في القرآن تشيع فيها الرحمة، وتكرر فيها لفظ الرَّحْمَٰن ستة عشر مرة، ولم يرد في سورة من السور مثل هذا التكرار. ففي سورة البقرة على طولها ورد ذكر الرَّحْمَٰن مرة واحدة: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]، فإذن اختيار الرَّحْمَٰن هنا مناسب لجو السورة.
- ثانيًا: نلاحظ لفظ "المسّ" مناسب لذكر الرحمة، ولم يقل مثلما قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: 47]، أتى العذابُ كاملًا، لم يرد فيها اسم الرَّحْمَٰن من حيث الجو التعبيري، بينما في سورة مريم ﴿يَمَسَّكَ عَذَابٌ﴾، المسّ الخفيف.. بينما في سورة الأنعام قال: ﴿أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ﴾، عذاب فيه تنكيرٌ وبغتةٌ أو جهرةٌ وهلاكٌ، ورغم هذه الدعوةِ اللطيفةِ بأرق الألفاظ وأحَنِّها، إلا أَنَّ ذلك لم يصل إلى القلب المشركِ، فيقول أبو إبراهيم آزر مُهَدِّدًا ومُتَوعِّدًا لابنه عليه السلام: ﴿وهذا يدلنا على أن الأب كان جاهلًا، جافيًا لم يكن عنده من الرحمة شيء، جبارًا عصيًا﴾:

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾

[مريم: 46]

أي: قال أبوه: أتُعرِضُ يا إبراهيمُ عن عبادةِ آلهَتِي، وتَترُكُها إلى غيرِها، استفهم استفهامَ إنكارٍ، فالأب لم يُراعِ هنا حنانَ وعطفَ ابنِهِ، ولم يُراعِ حقَّ القرابةِ ولا حرمةَ البُنُوَّةِ، إبراهيم عليه السلام قال لأبيه ﴿يَا أَبَتِ﴾ أربع مراتٍ، والأب لم يتلفظ بقول ليِّنٍ مثل "يا بني"، من جفائه وغلظته، وكونه لا يقابل الحسنةَ بالحسنةِ إنما قابلها بالسيئة؛ فقابل وعظَهُ له بالسفاهة: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

والرغبة عن الشيء تركه عمدًا، الفعل "رغب" يحمل المعنى وضده حَسْب حرف الجر الذي يأتي بعده.. فنقول: "رغب في كذا" أي: أحبه وذهب إليه، "ورَغب عن كذا" أي: كرهه واعتزله. فمعنى ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يا إبراهيم﴾ أي: تاركها إلى غيرها. وآلهته أصنامه، إن كنت لا ترضى بعبادتي لهذه الأصنام وكنتَ كارهًا لها ومعرضًا عنها وتدعوني لأن أهجرها، فانتَهِ عن سَبِّها وشتمِها وعيبِها.. أصر على ادِّعاء الألوهية لتلك الأصنام جهلًا وتقليدًا من دون حجة ولا برهان.

﴿**لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾ وصل به الأمر إلى تهديده بالضرب والشتم فيقول مهددًا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ﴾ أي: لئِنْ لم تَترُكْ –يا إبراهيمُ– نُصحي وذِكرَ آلهتي بسُوءٍ لأرجُمَنَّك.

قال بعض العلماء إن قوله ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ أي بالكلام الغليظ والقول الفاحش، بالشتم، وقال بعضهم: بل هي شاملة للكلام الغليظ والقول الفاحش وللرجم بالحجارة، وهذا يدل على أن الأب كان جافيًا غليظًا عنيدًا شقيًا جبارًا عصيًا.. وإلا، كان المفترض أن يقول: لك دينك ولي ديني.

﴿**لأرجمنك**﴾: أي لأُبادئنّك بالرجم بالحجارة وبالقول، ثم أصدر قراره:

﴿**وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا**﴾: اهجرني هجرًا طويلًا وابتعد عني طويلًا استبقاءً لحياتِكَ قبل أن تصيبك مني عقوبة.. فهذا دليل على أنه كفر بالتوحيد؛ ولا يستطيع أن يسمع كلمة الحق وقد امتلأ قلبه وعقله وفكره شِركًا، فلا يستطيع أن يستقبل كلمة الحق. ولذلك أمر ابنه أن يهجره ولم يستمع إلى كلمة منه. وهذه فيها تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام لأنه يدعو قومه من قريش ومنهم عمه أبو طالب فلم يؤمن، وتسلية لنا جميعا بألا نأسى ولا نحزنَ من عدم استجابةِ الأقربين لنا في دعوتنا. ومَنْ أصدقُ دعوةً ولهجةً من إبراهيم عليه السلام، ومَنْ أعظمُ أسلوبًا منه، ومع ذلك ما استُجيبَ له.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 47]

﴿**قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ**﴾ فأجابه الصدّيق الموحد جوابَ عبادِ الرَّحْمٰن عند خطابِ الجاهلين: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ.. كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]. وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55]، فهذا خلق أهل التوحيد عباد الرَّحْمٰن، رغم هذا الرد القاسي لم يغضب إبراهيم الحليم ولم يفقد بره وعطفه وأدبه مع أبيه، وقابل كل ذلك الجهل بالرحمة تقديرا لحق الأبوة، وتأدبًا بأدب التوحيد والموحدين، بينما والده على الكفر وعلى الشرك. ولم يكن سلامًا فقط؛ بل إنه ما زال راغبا من ربه أن ينال والده مغفرة وهو على الكفر فقال:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ أي سأطلُبُ لك مِن ربِّي أن يستُرَ ذُنوبَك ويتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِك بها، كما حكى الله تعالى قَولَ إبراهيمَ: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: 86]. فما زال يحمل هم والده ويرغب من ربه أنه يهديه أو يغفر له، وذلك قبل أن يتبين له أنه عدوٌ لله فلما تبين له أن أباهُ عدوٌ لله تبرأ منه ولم يستغفر له: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: 114].

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾: إنِّي عَهِدتُ رَبِّي لطيفًا مُعتَنيًا بي شديدَ البِرِّ والإكرامِ لي كثيرَ الإحسانِ إليَّ، وقد هداني للعبادة وإخلاصها له وعوَّدَني إجابةَ دُعائي، يحتفي بي رحيم ورؤوف بحالي.. وهذا دليل على تعلقه بالله عز وجل وأمله بالله تعالى واستغاثته برحمة الله وعنايته. وقيل الحفي الذي يهتم بأمره.

وقد أمرنا الله تعالى باتباع ملة إبراهيم؛ إذ أنه تعالى قد ساق لنا قصته وذكّرنا بقصته. فمن اتباع ملته: سلوك طريقه في الدعوة إلى الله بالعلم والحكمة، ولين الجانب والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى أخرى، والصبر على ذلك، وحسن الظن بالله.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾

[مريم: 48]

لما قال آزر: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ قال إبراهيم: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي أجتنبكم وأتبرأ منكم ومن آلهتكم وأصنامكم التي تعبدونها من دون الله وَأعبد رَبِّي مخلصًا موحدًا إياه طالبًا منه النصر والعون والتمكين، فهو ما زال متعلقا بالله يدعو ربه.. فإذا يئس الإنسان وما قوبل بقبول دعوته ينبغي أن يستمر في دعائه ولا ييأس، وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي حتى ولو هجر أحدا ألا يترك الدعاء له.

﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ وأعبُدُ رَبِّي وَحدَه، وأدعوه مُخلِصًا له لا أُشرِكُ به شيئًا.

﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي أرجو ألَّا أشقَى بدُعائي لربِّي، وإفرادي له بالعبادةِ، بل أرجو أن يجيبَني، ويتقبَّلَ أعمالي ويُسعِدَني، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات: 99]. هذه سورة السعادة، وإن أعظم سبب للسعادةِ طولُ الدعاءِ.

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: 49]

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾: أي فلمَّا اجتنَبَ إبراهيمُ قَومَه واجتنَب عبادةَ أصنامِهم وهاجَر، فقد الناصر والمعين والقريب والولي، فكان جزاء الله له من جنس العمل؛ رزَقْناه ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يعقوبَ، أبدله الله من هو خير منهم فعوّضه الله عز وجل بالذرية ولم يكن عنده ذرية، لأن إبراهيم بلغ الكِبَر، وامرأته عجوز: ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿72﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: 72-73].

﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾: فوهب الله له إسحاق ويعقوب فآنس وحشته عن فراق قومه بأولادٍ كرام. قال المفسرون إنه هجر أهله ودياره وهاجر عنهم إلى أرض الشام، فلم يتركه الله وحيدًا، بل وهب له ذرية طيبة إسحاقَ ويعقوبَ، يعني ابنه وابن إسحاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 72]، وقال: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71].. ولا خلاف أن إسحاق والد يعقوب؛ وهو نص القرآن في سورة البقرة: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 133].. فإسحاق من سارة، ويعقوب من إسحاق، وسُمِّيَ يعقوبًا لأنه سيكون له عَقِبٌ؛ فكل بني إسرائيل من عَقِبِ يعقوبَ، وإنما يُذكر يعقوبُ إذا أريد به التذكير بنعمة العَقِب، وأنه سيكون له ولدٌ، ولذلك قال: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: 71]. وقال: ﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ أي زيادة على إسحاق، ووُلِدَ ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ولدًا هم آباءُ أسباطِ بني إسرائيل؛ فمنهم تولّد بنو إسرائيل وانتشروا في الأرض، كلهم من ولد يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ومن أعظم ما استجاب الله تعالى به دعاءَ إبراهيم عليه السلام، هو إسعاده بالولد الصالح، فهذه سعادة عظيمة جدا، فقوله: ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أنه أسعده الله تعالى بمنحة الولد الصالح النبيل، فحصل له هبة هؤلاء الصالحين: إسحاق ويعقوب. وَيَعْقُوب ليس ابنًا لإبراهيم عليه السلام، بل حفيد.

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي: وكلًّا مِن إسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه نبيًّا، وهذا يدل دلالة واضحة صريحة أن من عنى بنصح والديه ودعوتهم إلى التوحيد وإلى طاعة الله وسعى في كل ما يقربهم إلى الله، فإن الله تعالى يمنحه صلاح ولده، وهذا من أعظم البر كما فعل إبراهيم، والجزاء من جنس العمل؛ فكما أنه سعى لإصلاح والده أصلح الله أولاده.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 50]

أي: ووهبنا للثلاثة: إبراهيمَ وابنيه إسحاقَ ويَعقوبَ مِّن رَّحْمَتِنَا. ولاحظوا أن الرحمة تدور معنا في هذه السورة. وهب الله تعالى لهم النبوة والعِلمَ النافِعَ والأعمالَ الصالحةَ، والرزقَ الواسعَ والذريَّةَ الكثيرةَ، والشرفَ العظيمَ، وغيرَ ذلك من الخيرات.. كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: 27]. أي: كثر فيهم الأنبياء والصالحون. وقال المفسرون: المال والولد والعلم والعمل بديلًا له عن الأهل الذين اعتزلهم.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾: أي وجعَلْنا لهم ثناءً حَسَنًا وذِكرًا جميلًا عاليًا صادقًا مُستَمِرًّا مَنشورًا بين النَّاسِ إلى يومِ القيامةِ، كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]. وقال سُبحانَه: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿45﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 45-46]. امتلأت بمحبتهم القلوب، وفاضت بها الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارهم في سائر العصور متجددة. فكل من جاء بعدهم يذكرهم بخير ويثني عليهم، انظروا كيف نذكره في كل صلاة: "اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم.." بل إن كل الأمم لتنتمي إليهم الآن؛ ما من أمة إلا وهي تنتمي إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وتقول إبراهيم منَّا، قالت اليهود إبراهيم يهودي، وقالت النصارى إبراهيم نصراني. وقال الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: 67] أي على التوحيد الخالص الذي لا شِرْك فيه وأنتم قد أشركتم فكيف يكون منكم؟! وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ولأن الثناء يكون باللسان لذلك قال تعالى: "لسان صِدْقٍ". والعرب كانت تسمي الشيء باسم ما تكون به الجوارح.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾.. النبيُّ يجِبُ أن يكونَ صادِقًا في كلِّ ما أخبَرَ عنه لأنَّ اللهَ تعالى صَدَّقَه، ومَن يُصَدِّقْه اللهُ فهو صادِقٌ وإلَّا لزِمَ الكَذِبُ في كلامِ اللهِ تعالى. فيلزمُ مِن هذا كَونُ الرَّسولِ صادِقًا في كُلِّ ما يقولُ، ولأنَّ الرُّسُلَ شُهَداءُ اللهِ على النَّاسِ على ما قال اللهُ تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]. والشَّهيدُ إنَّما يُقبَلُ قَولُه إذا لم يكُنْ كاذِبًا، فلمَّا ثَبَت أنَّ كُلَّ نبيٍّ يجِبُ أن يكونَ

صِدِّيقًا ولا يجِبُ في كلِّ صِدِّيقٍ أن يكونَ نبيًّا، ظَهَرَ بهذا قُربُ مَرتبةِ الصِّدِّيقِ مِن مَرتبةِ النبيِّ. فلهذا انتقَلَ مِن ذِكرِ كَونِه صِدِّيقًا إلى ذِكرِ كَونِه نبيًّا.

2- في قَولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: 41]، وقَولِه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى﴾ [مريم: 51]، وقَولِه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ [مريم: 54]، وقَولِه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: 56]: دَلالةٌ على أنَّ تذكرةَ قَصصِ الأنبياءِ المتقَدِّمينَ هو ممَّا أمَرَ اللهُ به المؤمنينَ.

3- قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿41﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿42﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿43﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿44﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: 41-45]: فتدرَّج الخَليلُ عليه السَّلامُ بدعوة أبيه بالأسهَلِ فالأسهَلِ، فأخبَرَه بعِلمِه وأنَّ ذلك مُوجِبٌ لاتِّباعِه إياه، وأنَّه إن أطاعه اهتدى إلى صراطٍ مُستَقيمٍ.. ثمَّ نهاه عن عبادةِ الشَّيطانِ وأخبَرَه بما فيها من المضارِّ.. ثمَّ حَذَّره عقابَ اللهِ ونِقمَتَه إن أقام على حالِه وأنَّه يكونُ وليًّا للشَّيطانِ.

4- قول إبراهيمَ الخليلِ –عليه السَّلامُ– لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ ابتدأ خطابَه بذِكْرِ أُبُوَّتِه الدَّالَّةِ على توقيرِه، ولم يُسَمِّهِ باسمِه، ثم أخرجَ الكلامَ معه مَخْرَجَ السُّؤالِ فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، ولم يقُلْ: "لا تعبُدْ"، ثمَّ قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ فلم يقُلْ له: "جاهلٌ لا عِلْمَ عندك"، بل عَدَلَ عن هذه العبارةِ إلى ألطفِ عبارةٍ تدلُّ على هذا المعنى، فقال: ﴿جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾، فأتَى بصيغةٍ تقتضي أنَّ عندي وعندك علمًا وأنَّ الذي وصَلَ إليَّ لم يصلْ إليك ولم يأتِك، فينبغي لك أن تتبعَ الحجةَ وتنقادَ لها. ثم قال: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾.. وهذا مِثْلُ قولِ موسى لفرعونَ: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [النازعات: 19].

5- ثمَّ قال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.. فنسَبَ الخوفَ إلى نفْسِه دون أبيه كما يَفعَلُ الشفيقُ الخائفُ على مَن يُشْفِقُ عليه، وقال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ فذكَر لفظَ المسِّ الذي هو ألطفُ مِن غيره، ثم نَكَّرَ العذابَ، ثمَّ ذَكَرَ الرَّحْمَٰن، ولم يقلِ: "الجبارُ" ولا "القهارُ"، فأيُّ خطابٍ ألطفُ وألينُ مِن هذا؟ نصيحةُ الابنِ لأبيه أو لأمِّه أو لأقاربه ليست عقوقًا للوالِدَينِ ولا قطيعةً للأقاربِ؛ بل هذا مِن برِّ الوالِدَينِ وصِلةِ الأقاربِ.. فالواجِبُ على الإنسانِ أن يبَرَّ والدَيه بنصيحتِهما وأن يصِلَ أقاربَه بنَصيحتِهم كما قال الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. وإذا غَضِبَ الوالدانِ أو الأقاربُ مِن هذه النَّصيحةِ فغَضَبُهم عليهم وليس عليك منهم شيءٌ، ولا يُعَدُّ إغضابُهم بالنصيحةِ قطيعةً ولا عقوقًا، ولكن يجِبُ عليك أن تكون حكيمًا في النصيحةِ، بأن تتحرَّى الأحوالَ التي يكونون بها أقربَ إلى الإجابةِ والقَبولِ، وألَّا تُعَنِّفَ وتَسُبَّ وتَشتُمَ لأنَّ هذا قد ينفِّرُ من تُوجِّهُ إليهم النصيحةَ. فإذا أتيتَ بالتي هي أحسَنُ مُخلِصًا لله عزَّ وجلَّ مُمتَثِلًا لأمرِه ناصِحًا لعباده، كان في هذا خيرٌ كثيرٌ، ولا يضُرُّك غَضَبُ مَن غَضِبَ. ولنا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ مع أبيه أُسوةٌ. فلما نصَحه إبراهيمُ عليه السلامُ متلطفًا في خطابِه قال له أبوه: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.. فهل تجدُ غضبًا أشدَّ مِن هذا الغضبِ؟! يقول لابنِه: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾. ويقولُ: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي طويلًا، فماذا قال له إبراهيم؟ ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فاتَّخِذْ من هذه القصةِ عبرةً.

6- قال الله تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾... إلى قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ فرتَّب نبيُّ الله إبراهيمُ صلَّى الله عليه وسلَّم كلامَه في غايةِ الحُسنِ، لأنَّه نبَّه أوَّلًا على ما يدُلُّ على المنعِ مِن عبادةِ الأوثانِ، ثمَّ أمَرَه باتِّباعِه فيما يدعو إليه مِن التوحيدِ ونبذِ الشركِ، ثمَّ نبَّه على أنَّ طاعةَ الشيطانِ غيرُ جائزةٍ في العقولِ، ثمَّ ختم الكلامَ بالوعيدِ الزَّاجِرِ عن الإقدامِ على ما لا ينبغي، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أورد هذا الكلامَ الحَسَنَ مَقرونًا باللُّطفِ والرِّفقِ؛ فإنَّ قولَه في مُقَدِّمةِ كُلِّ كلامٍ: ﴿يَا أَبَتِ﴾ دليلٌ على شِدَّةِ الحُبِّ والرَّغبةِ في صَونِه عن العِقابِ وإرشادِه إلى الصوابِ.

7- وختَم الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ تعلُّقِ قَلبِه بمصالحِه، وإنَّما فعَل ذلك لوجوهٍ:

- أحدُها: قضاءً لحَقِّ الأبوَّةِ، على ما قال الله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23]. والإرشادُ إلى الدينِ مِن أعظَمِ أنواعِ الإحسانِ، فإذا انضاف إليه رعايةُ الأدبِ والرِّفقِ، كان ذلك نورًا على نور.
- ثانيها: أنَّ الهاديَ إلى الحقِّ لا بدَّ أن يكونَ رفيقًا لطيفًا يورِدُ الكلامَ لا على سبيلِ العُنفِ، لأنَّ إيرادَه على سبيلِ العُنفِ يصيرُ كالسبَّبِ في إعراضِ المستَمِع، فيكونُ ذلك في الحقيقةِ سَعيًا في الإغواءِ.

- سمَّى اللهُ تعالى طاعةَ الشَّيطانِ في معصيتِه عِبادةً للشَّيطانِ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: 60]، وقال حاكيًا عن خليلِه إبراهيمَ إنَّه قال لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾، فمن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحْمٰن وطاعتَه فإنَّه يعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلَّا مَن أخلَصَ عبوديَّةَ الرَّحْمٰن، وهم الذين قال اللهُ فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]. فهم الذين حَقَّقوا قَولَ: "لا إلهَ إلَّا اللهُ" وأخلصوا في قَولِها وصَدَّقوا قَولَهم بفِعلِهم فلم يلتَفِتوا إلى غَيرِ الله محبَّةً ورجاءً، وخشيةً وطاعةً وتوكُّلًا.. وهم الذين صَدَقوا في قَولِ: "لا إلهَ إلَّا اللهُ"، وهم عبادُ الله حقًّا. فأمَّا مَن قال: "لا إلهَ إلَّا اللهُ" بلِسانِه ثمَّ أطاع الشَّيطانَ وهواه في مَعصيةِ الله ومخالفتِه، فقد كَذَّب فِعلُه قَولَه، ونَقَص مِن كَمالِ توحيدِه بقَدرِ مَعصيةِ اللهِ في طاعةِ الشَّيطانِ والهوى. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص: 50]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: 26].

8- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا﴾.. في ذِكرِ إضافةِ العِصيانِ إلى اسمِ الرَّحْمٰن إشارةٌ إلى أنَّ المعاصيَ تمنَعُ العبدَ مِن رَحمةِ اللهِ وتُغلِقُ عليه أبوابَها كما أنَّ الطاعةَ أكبَرُ الأسبابِ لِنَيلِ رَحمتِه.

9- قولُه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾ التَّعبيرُ بالخوفِ الدَّالِّ على الظَّنِّ دونَ القطعِ: تأدُّبٌ مع اللهِ تعالى بألَّا يُثْبِتَ أمرًا فيما هو مِن تصرُّفِ اللهِ وإبقاءٌ للرَّجاءِ في نفْسِ أبيه لينظُرَ في التَّخلُّصِ من ذلك العذابِ بالإقلاعِ عن عبادةِ الأوثانِ.

10- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾.. في ذلك تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وسلَّم وتأسيةٌ فيما كان يلقَى مِن الأذى ويُقاسي مِن قَومِه مِن العناءِ، ومِن عَمِّه أبي لهبٍ مِن الشَّدائِدِ والبلايا، بأعظَمِ آبائِه وأقرَبِهم به شَبَهًا.

11- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على جوازِ مُتاركةِ المنصوحِ إذا ظهَر منه اللَّجاجُ.

12- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ هذا دليلٌ على أنَّه تَحسُنُ مُقابلةُ الإساءةِ بالإحسانِ، فقولُه ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ توديعٌ ومُتارَكةٌ على طريقةِ مُقابلةِ السَّيِّئةِ بالحسنةِ، أي: لا أُصيبُك بمكروهٍ بعْدُ ولا أُشافِهُك بما يُؤذيك. ويجوزُ أنْ يكونَ قد دعا له بالسَّلامةِ استمالةً له؛ ودليلُ ذلك أنَّه وعَدَه الاستغفارَ وبادرَهُ بالسَّلامِ قبْلَ الكلامِ الَّذي أعقبَه به إشارةً إلى أنَّه لا يَسوؤه ذلك الهجْرُ في ذاتِ اللهِ تعالى ومَرضاتِه.

13-قال الله تعالى حاكيًا عن إبراهيم: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، قال بعضُ الحُكَماءِ: "من هاجر لطَلَبِ رِضا اللهِ عَزَّ وجَلَّ أكرمَه الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا والآخرةِ". كما أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هاجر مِن قَومِه في طَلَبِ رِضا الله تعالى عنه، فأكرَمَه الله تعالى وعوَّضه أولادًا مؤمنينَ أنبياءَ فما خسِر على اللهِ أحدٌ ترَك الكفَّارَ الفسقةَ لوجهِه، واللَّهُ سبحانَه يَجْزي العبدَ على عملِه بما هو مِن جنسِ عملِه. ومَن تَرَك لِلَّهِ شيئًا عَوَّضه اللَّهُ خيرًا منه..

14-قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾، فوَصَف الأوثانَ بصِفاتٍ ثلاثٍ؛ كُلُّ واحدةٍ منها قادِحةٌ في الإلهيَّةِ، وبيانُ ذلك مِن أوجُهٍ:

- أحدها: أنَّ العبادةَ غايةُ التعظيمِ فلا يَستَحِقُّها إلَّا مَن له غايةُ الإنعامِ وهو الإلهُ الذي منه أصولُ النِّعَمِ وفُروعُها. قال تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [مريم: 36]، وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]، وكما يُعلَمُ بالضَّرورةِ أنَّه لا يجوزُ الاشتِغالُ بشُكرِها ما لم تكُنْ مُنعِمةً وجَبَ ألَّا يجوزَ الاشتِغالُ بعبادتِها.
- ثانيها: أنَّها إذا لم تَسمَعْ ولم تُبصِرْ، ولم تميِّزْ مَن يُطيعُها عَمَّن يَعصيها فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟! وهذا ينبِّهُك إلى أنَّ الإلهَ يجِبُ أن يكونَ مَوصوفًا بصِفاتِ الكَمالِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ حتى يكونَ العبدُ آمِنًا مِن وُقوعِ الغَلَطِ للمَعبودِ.
- ثالثها: أنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ، فالوَثَنُ إذا لم يَسمَعْ دُعاءَ الدَّاعي فأيُّ مَنفعةٍ في عبادتِه؟! وإذا كانت لا تُبصِرُ بتقرُّبِ مَن يتقرَّبُ إليها فأيُّ مَنفعةٍ في ذلك التقرُّبِ؟
- رابعها: أنَّ السَّامِعَ المبصِرَ، الضَّارَّ النَّافِعَ أفضَلُ مِمَّن كان عاريًا عن كلِّ ذلك، والإنسانُ موصوفٌ بهذه الصِّفاتِ فيكونُ أفضَلَ وأكمَلَ مِن الوَثَنِ، فكيف يليقُ بالأفضَلِ عِبادةُ الأخَسِّ؟!
- خامسها: إذا كانت لا تنفَعُ ولا تضُرُّ فلا يُرجَى منها مَنفَعةٌ ولا يُخافُ مِن ضَرَرِها فأيُّ فائدةٍ في عبادتِها؟!
- سادسها: إذا كانت لا تحفَظُ أنفُسَها عن الكَسرِ والإفسادِ على ما حكى اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه كَسَرَها وجعَلَها جُذاذًا فأيُّ رجاءٍ للغيرِ فيها؟!

15-قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ عابَ إبراهيمُ الوَثَنَ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ: أحَدُها: أنه لا يسمَعُ، وثانيها: أنه لا يُبصِرُ. وثالثها: أنه لا يغني عنك شيئًا، كأنه قال له: بل الإلهيَّةُ ليست إلَّا لربي، فإنَّه يسمَعُ ويُجيبُ دَعوةَ الداعي ويُبصِرُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: 46]، ويقضي الحوائجَ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ

﴿الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]. فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ مَنْ لا يتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ لا يصلحُ أنْ يكونَ ربًّا ولا إلهًا.

16- في قَولِه تعالى عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلام: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ ردٌّ على المعتزلةِ والجَهميَّةِ إذْ لا يُنْكِرُ إبراهيمُ على أبيه ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ إلَّا ومعبودُه يُبصِرُ ويَسمعُ ويُغني عن كلِّ شَيءٍ.

17- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ تَفريعُ أمْرِه بأنْ يتَّبِعَه على الإخبارِ بما عندَه من العلْمِ: دليلٌ على أنَّ أحقِّيَّةَ العالِمِ بأنْ يُتَّبعَ مركوزةٌ في غريزةِ العُقولِ، لم يزَلِ البشرُ يتقصَّونَ مظانَّ المعرفةِ والعلْمِ لجلْبِ ما ينفَعُ واتِّقاءِ ما يضُرُّ.

18- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فقال: "لِلرَّحْمَنِ" ولم يقُلْ "للجَبَّارِ" لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّه ما أملَى لعاصِيه مع جَبَروتِه إلَّا للعَجزِ عنه، سُبحانَه وتعالى.

19- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ إنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لإمعانِه في الإخلاصِ لم يذكُرْ مِن جناياتِ الشَّيطانِ إلَّا كَونَه عاصيًا لله تعالى، ولم يَذكُرْ مُعاداتَه لآدمَ عليه السَّلامُ، كأنَّ النَّظَرَ في عِظَمِ ما ارتكبَه من ذلك العِصيانِ غَمَّى فِكرَه وأطبَقَ على ذِهنِه. وأيضًا فإنَّ مَعصيةَ اللهِ تعالى لا تَصدُرُ إلَّا عن ضَعيفِ الرَّأيِ، ومَن كان كذلك كان حقيقًا ألَّا يُلتفَتَ إلى رأيِه ولا يُجعَلَ لِقَولِه وَزنٌ.

20- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ كلُّ مَن كان الشَّيطانُ يُزَيِّنُ له الكُفرَ والمعاصيَ فيَتَّبِعُه في ذلك في الدنيا فلا وليَّ له في الآخرةِ إلَّا الشَّيطانُ.

21- قال الله تعالى حكايةً عن والدِ إبراهيمَ: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ بيَّنَ الله جلَّ وعلا هنا أنَّ إبراهيمَ لَمَّا نصَح أباه النَّصيحةَ المذكورةَ مع ما فيها مِن الرِّفقِ واللِّينِ وإيضاحِ الحَقِّ والتحذيرِ مِن عبادةِ ما لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ ومِن عذابِ الله تعالى وولايةِ الشَّيطانِ- خاطبَه هذا الخِطابَ العَنيفَ وسمَّاه باسمِه لا بلَفظِ البُنُوَّةِ المذكِّرِ بالشَّفقةِ والعَطفِ، زيادةً في الإشارةِ إلى المقاطعةِ وتَوابِعِها. فلم يقُلْ له: "يا بُنَيَّ" في مقابلةِ قولِه له ﴿يَا أَبَتِ﴾، وأنكَر عليه أنَّه راغِبٌ عن عبادةِ الأوثانِ!

22-لما كان في قولِه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ فظاظةٌ وقساوةُ قلْبٍ قابلَه إبراهيمُ عليه السلامُ بالدُّعاءِ له بالسَّلامِ والأمْنِ ووعَدَه بالاستغفارِ قضاءً لحقِّ الأُبوَّةِ، وإنْ كان قد صدَرَ منه إغلاظٌ.

23-في قولِ الله تعالى حاكيًا عن إبراهيمَ: ﴿عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم شَقُوا بعبادةِ الأصنامِ لأنَّها لا تنفعُهم ولا تجيبُ دُعاءَهم.

24-في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ المؤمنِ تُثمِرُ له الثَّوابَ في الدُّنيا والآخرةِ.

25-في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ به شيءٌ جاز أن يُنقلَ إلى غيرِه لِسَعةِ اللِّسانِ؛ إذِ اللسانُ المعروفُ عند العامَّةِ هو الذي يُنطَقُ به. وقد نُقِلَ في هذا الموضِعِ إلى الثَّناءِ الحَسَنِ.

26-في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿49﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ الثَّناءَ الحَسَنَ حِليةٌ جميلةٌ يُلبِسُ اللهُ عبدَه المؤمِنَ التقيَّ، لأن "لِسَانَ صِدْقٍ" في هذا الموضِعِ هو الثناءُ الحَسَنُ. وإذا كان اللهُ بجودِه جعَلَه في عِداد النِّعَمِ ومَدَحَ به مَن جعَلَه فيه لم يَجُزْ للمؤمِنِ أنْ يكرَهَه، وكان له أن يفرحَ به ويَعُدَّه مِن كِبارِ نِعَمِ اللهِ عليه.

27-قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ المرادُ باللِّسانِ هاهنا الثَّناءُ الحَسَنُ؛ فلمَّا كان الصِّدقُ باللِّسانِ وهو محَلُّه أطلَقَ اللهُ سُبحانَه ألسِنةَ العبادِ بالثَّناءِ على الصَّادقِ جزاءً وِفاقًا وعبَّرَ به عنه.

28-مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ: أن يَرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكرَه ويُعلِيَ قَدْرَه، ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿45﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 45-46]، أي: خصَصْناهم بخَصيصةٍ وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرونَ به في هذه الدَّارِ -وهذا على قَولٍ في الآيةِ- وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث قال سائلًا الله تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: 84]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: 50]. وقال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه

وسلَّم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 4]؛ فأتباعُ الرُّسُلِ لهم نَصيبٌ مِن ذلك بحَسَبِ مِيراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم وكُلُّ مَن خالفَهم فإنَّه بَعيدٌ مِن ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم[57].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 51]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه أفضَتْ مُناسَبةُ ذِكرِ إبراهيمَ ويَعقوبَ -عليهما السَّلامُ- إلى أن يُذكَرَ موسى عليه السلامُ في هذا الموضع، لأنَّه أشرَفُ نبيٍّ مِن ذُرِّيةِ إسحاقَ ويعقوبَ عليهما السَّلامُ.

﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى**﴾: واتْلُ يا محمَّدُ، في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ موسى بن عمران عليه الصَّلاةُ على وجه التبجيل له والتعظيم والتعريف بمقامه الكريم وأخلاقه الكاملة.

﴿**إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا**﴾:

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ ﴿مُخْلَصًا﴾ بفتحِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ واختاره لرسالتِه وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا خالِصًا مِن الدَّنَسِ. قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وخَلَف[58].

2- قراءةُ ﴿مُخْلِصًا﴾ بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه ولا يُرائي بأعمالِه أحدًا. قرأ بها الباقون[59]..

﴿**مُخْلَصًا**﴾ بفتح اللام: قد أخلصه الله عز وجل للعبادة والنبوة واصطفاه كما قال تعالى: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الأعراف: 144]، وقال: ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ [ص: 46] أي جعله مختارا خالصا من الدنس. والإخْلاص سببٌ للاستخلاص؛ أخلص لله سبحانه وتعالى فاستخلصه الله تعالى لنفسه فكان مخلَصًا، فالله لا يصطفي العبد حتى يُخْلِص، كما في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿23﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

57- ينظر: تفسير أبي حيان 272/7، نظم الدرر للبقاعي 207/12، تفسير ابن عاشور 115/16- 116. أضواء البيان للشنقيطي 427/3، تفسير الرازي 544/21. النكت الدالة على البيان للقَصَّاب 246/2، تفسير السعدي ص 494.

58- يُنظر: النشر لابن الجزري 295/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: تفسير ابن جرير 558/15، حجة القراءات لابن زنجلة ص: 444.

59- يُنظر: النشر لابن الجزري 295/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: تفسير ابن جرير 558/15، حجة القراءات لابن زنجلة ص 445، تفسير القرطبي 114/11.

[يوسف: 23-24]، وفي قراءة: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلِصِينَ﴾ والجمع بينهما أن يوسف أخلَص دينه لله فأخلَصه الله واصطفاه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ كان موسى رسولًا إلى بني إسرائيلَ والقِبطِ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه، جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل وتبليغ جميع ما جاء به من الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إيحاء الله إليه وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، فإنه كان من المرسلين الكبار أولي العزم الخمسة، وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم وعلى سائر الأنبياء أجمعين.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: 52]

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمينِ موسى، حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ.

﴿الْأَيْمَنِ﴾: إما من جهة اليمين لموسى، وهذا يدل على فضيلة جهة اليمين وفضيلة ميامن الصفوف، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحب التيمّن في أمره كله، أو الأيمن: أي: الأكثر بركة، أي من اليُمن والبركة، فهو أتى من جانب الطور الأيمن المبارك. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: 8] ولا تعارض بين القولين. ومن عظمة القرآن أنه يأتي باللفظة التي تدل على معنيين. وقيل: صفة للجانب وهو الجانب الأيمن للطور، لأن الطور جبل له جانبان، جانب أيسر وجانب أيمن، لقول الله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [طه: 80] بنصب "الأيمن" نعتًا لجانب الطور.

والنداء يكون للبعيد، بينما تكون المناجاة للقريب. وفي هذه الآية إثبات صفة الكلام لله عز وجل، إذ أن الله تبارك وتعالى نادى موسى، وسمع موسى كلام الله تبارك وتعالى. وليس من الأنبياء أحد كلمه الله عند بعثته وتكليفه إلا موسى عليه السلام، وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرَّحْمَٰن.

وسُمي كليمَ الله لأن الله عز وجل كلمه من غير واسطة المَلَكِ عند تكليفه بالرسالة والوحي، فخصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه وأفضلها وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى.

أما تكليم الله لنبينا صلى الله عليه وسلم في الإسراء والمعراج فكان في إسرائه بعد تبليغه، فالله كلّم آدم وكلم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

نعلم في قصة موسى عليه السلام أنه عندما استعان به رجل من قومه على عدو له فقتل موسى الرجل العدو من بني إسرائيل كما في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ

مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: 15] فأرادوا قتله ففر إلى مدين ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿23﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿24﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: 23-25]. فلما جاء موسى عليه السلام أخبره الرجل أنه سيزوجه إحدى ابنتيه واتفق معه على أن يعمل عنده ثمان سنوات أو عشر سنوات. وبعد أن قضى لصهره أبر الأجلين وأوفاهما، عشر سنين استأذن صهره وخرج بأهله، وبينما هو بذلك المكان المقدس "طوى" ناداه ربه من ناحية جبل طور سيناء اليمنى. ﴿والطور جبل مشهور بالشام﴾ ناداه الله تبارك وتعالى وقصة نداء الله تعالى لموسى عليه السلام مذكورة بتفصيل في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: 9].

﴿**وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا**﴾ وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ وخاطَبه عن قُربٍ بلا واسِطة، أي قرَّبْناه لِنُنَاجيه بكلام. والنجيّ: هو المُنَاجِي الذي يُسِرُّ القول إلى صاحبه كما جاء في الحديث الشريف: "إذا كنتم ثلاثةً، فلا يتناجى اثنانِ دونَ صاحِبِهما، فإنَّ ذلك يُحزِنُهُ"[60].

وقد قرَّب الله تعالى موسى ليناجيه، وهذه خصوصية لموسى عليه السلام، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره، فإنْ قلنا: فكيف يكلّمه الله بكلام ويسمى مناجاة؟ قيل: لأنه تعالى أسمعه موسى وأخفاه عن غيره فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِرًا، وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ولا يُسمع ذاك وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله أدنى موسى من الملكوت ورفعت له الحُجُبُ حتى سمع صريف الأقلام حين كتب له في الألواح: لا إله إلا الله، فما أكمل وما أعظم هذا المقام؛ فالله تعالى يوم القيامة يناجي عباده ويقربهم.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: 53]

أي من نعمتنا عليه ورحمتنا به أجبنا سؤاله وشفاعته في أخيه حين سأل الله تبارك وتعالى أن ينبئ له أخاه هارون حتى يكون له عونًا ووزير صدق ويشد عضده: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿29﴾ هَارُونَ أَخِي﴾ [طه: 29-30] فجعلناه نبيًا، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ [القصص: 34]. وقال الله: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿13﴾ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: 14]. وقال: ﴿قَالَ قَدْ

60- الراوي: عبدالله بن مسعود - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 2184 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: 36]. هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه ونصحه لأخيه هارون، ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحدٌ في أحدٍ شفاعةً في الدنيا أعظمَ من شفاعةِ موسى في هارون أن يكون نبيًا. فاستجاب الله تبارك وتعالى له ونبأ هارون وأرسله مع أخيه موسى إلى فرعون ومَلَئِهِ. وقال بعضهم: ما نفع أخٌ أخاه مثلما نفع موسى هارون، لأن الله تبارك وتعالى نبأ هارونَ إكرامًا لأخيه موسى، وهذه منحة خاصة له، فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليه السلام مع أن هارون أكبر من موسى، وفي هذا دلالة على أن الإنسان ينبغي أن يكون نفعه لأخيه الأقرب الشقيق من أولى الناس، فأول من يعتني به الإنسان في خدمته بعد الوالدين الأخ أو الأخت، فهؤلاء شركاؤه في الرحم.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 54]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كان إسماعيلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- هو الذي ساعد إبراهيمَ عليه السَّلامُ في بناءِ البَيتِ الذي كان مِن الأفعالِ التي أبقَى اللهُ بها ذِكْرَه، وشَهَر أمْرَه، وكان مُوافِقًا لِموسى عليه السَّلامُ في ظُهورِ آيةِ الماءِ الذي به حياةُ كُلِّ شَيءٍ.

وإن كانت آيةُ موسى عليه السَّلامُ انقَضَت بانقضائِه، وآيتُه هو باقيةً إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَن عليها، عَقَّب ذِكْرَه بذلك. ولما ذكر إسحاق ويعقوب، ناسب أن يذكر موسى وهارون لأنهما من ذرية إسحاق ويعقوب اللذَيْن هما من ذريةِ إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام، فلما انتهى من ذكر بني إسرائيل وأنبيائهم، انتقل إلى ذكر إسماعيل، فإنه لم يكن من بني إسرائيل. إسماعيل عليه السلام هو ابن إبراهيم أبو العرب وهو أبو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم نسبًا، وهو أخٌ لإسحاق وعمٌّ لإسرائيل (يعقوب).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ يخاطب الله سبحانه وتعالى محمد ﷺ قائلًا له: اذكر في الكتاب أي في القرآن الكريم يا محمد قصة إسماعيل ابن إبراهيم الخليل عليه السلام أبو العرب، هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم، وقد فضّل الله تعالى إسماعيل ببركة إبراهيم، كما فضّل الله تعالى هارون ببركة موسى، فإن الله تعالى جعل لإسماعيل من الفضل من بركات إبراهيم أن أكرمه معه في بناء البيت ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّاۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]، فالأصل في البناء هو إبراهيم، فساعده إسماعيل فنال من هذه البركة وهذا الشرف العظيم، وذكر الله تعالى له بعد موسى عليهما السلام، دليلٌ على فضله، وتذكيرٌ للعرب بفضائلهم، فإذا كان ذكر موسى وفضائله وما خصه الله تعالى به تذكيرًا لبني إسرائيل في فضلهم الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده الذي كان عليه

موسى، فإن ذكرَ إسماعيلَ تذكيرٌ لعربِ قريش، فهم ذرية إسماعيل عليه السلام، بأن يكونوا على سننه بالتوحيد. وكأن من مقاصد هذه السورة التذكيرُ بأسلاف الطوائف ليكونوا على سننهم في التوحيد.

﴿**إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا**﴾ ونلاحظ أن الصدقَ صفةٌ مشتركة بين الأنبياء، لأنه من واجبهم أن يكونوا من الصادقين؛ فالصدق بالوعد هو من صفات النبيين وعباد الله الصالحين. ولا يمكن أن يكون نبيًا إلا من كان صادقًا. والله عز وجل خص إسماعيل عليه السلام بذكر صدقه لأنه بلغ في الصدق مرتبة عالية: كان صادق الوعد، هذا عام فيما بينه وبين الله وفيما بينه وبين الناس. وقال مجاهد: لم يعد ربه بوعد قط إلا وفى له به. وقيل لأنه وفى بوعده لأبيه وسلم نفسه ليذبحه، فلذلك أثنى الله عليه كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

وقيل إن إسماعيل وأحد أصحابه خرجا إلى البرية، وفي الطريق عرضت لهم حاجة استوجبت الرجوع للمدينة لقضائها. فقال لصاحبه: إما أن تذهب أنت وأنتظرك أنا هنا، وإما أن أذهب أنا وأنت تنتظرني. فقال صاحبه: أنا أرجع للمدينة لقضاء الحاجة. وطلب من إسماعيل انتظاره. فلما دخل المدينة انشغل بالسوق ونسي إسماعيلَ عليه السلام، وبقي ثلاثة أيامٍ كذلك. وبعد ثلاثة أيام تذكر الصاحبُ إسماعيلَ عليه السلام فعاد إليه فوجده واقفًا ينتظره فتعجب من ذلك فقال له: أنت هنا منذ فارقتك؟ قال: لقد قلت لك إني سأنتظرك؛ وما كان لي أن أخلف وعدي وأتركك. وهنا تبين صدق وعده. وصدق الوعد من الصفات الحميدة التي يجب الاتصاف بها. وإخلاف الوعد من الصفات الذميمة، بل هي من صفات المنافقين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 2]. وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آيةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حَدَّثَ كذَّبَ، وإذا وعدَ أخلفَ وإذا اؤْتُمِنَ خَانَ"[61].

وقد مدح الله المؤمنين الصادقين في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 23].

61- الراوي: أبو هريرة - المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 6095 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: 55]

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾: أي كان مقيمًا لأمر الله على أهله، قال مقاتل: يعني قومه، وهم "جرهم". وقال الزجاج: أهله جميع أمته، كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن وراءهم.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ وجعَلَه من الخواصِّ المقَرَّبينَ، لاجتهادِهِ فيما يُرضيه. فرضِيَ ربُّه عنه ورضِيَ هو عن رَبِّه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: 56]

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾: يقول الله لنبينا محمد ﷺ: اذكر في القرآن الكريم إدريس عليه السلام، أوّل نبي بعد آدم عليه السلام، فهو إدريس بن شيث بن آدم. وبعد إدريس جاء نوح ثم إبراهيم، ومنه جاءت سلسلة النبوات المختلفة.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾: والصِّدِّيق هو الذي يبالغ في تصديق ما جاءه من الحق، هو الذي لم يعهد منه كذبًا قط، ولم تؤثر عنه كلمة مخالفة للواقع، صادقٌ مع الله ومع الناس، صادقٌ صِدقًا قلبيًا وصِدقًا لسانيًا، لأن الصدق منشؤه القلب، ولذلك جعل الله عز وجل المنافقين كاذبين؛ وقد تكلموا بالحق: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]. المنافقون يقولون ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ هذه كلمة كاذبة أم صادقة؟ هي صادقة، لكن لما لم يكن الصدق قلبيًا جعلهم كاذبين مع أنهم تلفظوا بالحق، مما يؤكد أن الصدق منشؤه القلب وأن صدق القلب أعظم من صدق اللسان، فالصِّدِّيق وإن لم يكُنْ نبيًا فهو مُلْحَقٌ بالأنبياء والشهداء كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: 69]. فلما كان صادقا اصطفاه الله نبيا، ولم يقُلْ رسولًا نبيًا، لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة، ولذلك قدّم الصديق على النبي، وصف الله تعالى إدريس بالصدّيق كما وصف إبراهيم بهذه الصفة فجعل الله إدريس صديقا ونبيا.

والصديقية تأتي بعد النبوة، والصديقية ما تزال في الأمة إلى قيام الساعة، فأن يكون الإنسان صديقا بصدقه التام مع الله والناس وفي أحواله فيبلغ بها مرتبة الصديقية ولذلك كانت لأبي بكر الصديق، وقد كانت لمريم أيضا، فليست كمرتبة النبوة التي لا تكون بعد النبي صلى الله عليه وسلم لأحد من الخلق.

وقيل إنه سمي إدريس عليه السلام لكثرة درسه في كتاب الله، فكان يقرأه آناء الليل وأطراف النهار.

وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من خط بالقلم، وأول من نظر في علم النجوم والحساب، وأنزل الله عليه ثلاثين صحيفة. وقال ابن عباس إن إدريس كان خياطا، كان لا يغرس إبرة إلا قال سبحان الله فكان يمسي حين يمسي ليس في الأرض أحد أفضل عملًا منه. وقيل إنه كان يصعد له من العمل مثل ما يصعد لجميع بني آدم.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: 57]

﴿وَرَفَعْنَاهُ﴾: قيل إن إدريس لم يمت وإنما رفعه الله إلى السماء كما رُفِع عيسى والله أعلم.

﴿مَكَانًا عَلِيًّا﴾: عالي المنزلة في مكان عليّ حيث جُعِل في السماء الرابعة، فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عند معراجه إلى السماء رأى إدريس في السماء الرابعة، وقيل رُفِعَ مكانًا عليًّا في الجنة، وقيل إنما المقصود أن الله رفعه في الدنيا بالنبوة، ورفع ذكره في العالمين ومنزلته بين المقربين فكان عالي الذكر.

﴿أُوْلَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: 58]

﴿أُوْلَئِكَ﴾: اسم إشارة للبعيد. وقد استعمل هاهنا للدلالة على علو مقام الأنبياء وارتفاع شأنهم، أولئك الأنبياءُ المذكورونَ في هذه السورةِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدايةِ والنُّبُوَّةِ والعِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ مِنَ النبيّينَ.

﴿مِن ذُرِّيةِ آدَمَ﴾: وهو إدريسُ عليه السلامُ.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حَمَلْنا معَ نوحٍ في السَّفينةِ وهو إبراهيمُ عليه السلامُ، لأنه هو أبو الأنبياء من بعد نوح عليه الصلاة والسلام. فالأب الثاني للبشرية هو نوح، لأن الناس كلهم من آدم، وقيل إن نوح عليه السلام أول الرسل بعثه الله عز وجل إلى أهل الأرض ثم مات الناس كلهم في عهد نوح إلا من حمله نوح في السفينة ولم يُبْقِ اللهُ ذريةً للخلق أو للبشر إلا ذريةَ نوحٍ ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات: 77] فكل البشر من ذرية نوح فهو أبو البشرية الثاني، ثم جاء إبراهيم فلم يبعث نبيٌ بعد إبراهيم إلا من ذريته؛ فهو أبٌ للأنبياء وإمامٌ للحنفاء.

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْـرَاهِيمَ﴾: إسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم السلامُ، وَإِسْرَائِيل ﴿أي يعقوبَ عليه السلامُ﴾ وهم موسَى وهارونُ وزكريَّا ويحيي وعيسَى بنُ مريمَ، عليهم السلامُ.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾: عمّم بعد أن خصّ، أي وممَّن هدينا للإيمان والعمَلِ الصَّالحِ وممَّن اختَرْناهم للنُّبوَّةِ.

﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾: ما قال آيات الله مما يؤكد أن هذا الاسم مقصود في هذه السورة.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: أي هذه صفتهم، فالصفة العظمى البارزة التي اجتمعوا عليها هي أنهم كانوا ذوي رقة في قلوبهم، إذا تليت عليهم آيات الله عز وجل خروا ساجدين لله باكين من خشيته، وهم المعصومون من الخطأ، إذا سمعوا كلام الله المتضمن لتوحيده وحججه ولعظيم قدرته ودلائل وجوده، خضعوا لآيات الله وخشعوا لها وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرهبة ما أوجب لهم البكاء والإنابة والسجود لربهم فخرُّوا ساجدين لله خضوعًا واستكانة. ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صما وعميانا، وبكَوْا من خشيته سبحانه وتعالى.. لماذا يخشون الله جل وعلا؟ ومن أي شيء يخشون وهم معصومون من المعاصي والذنوب؟ بل أخبرنا الله تعالى أيضا أن الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون، قال الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: 50] فإذا كان خوف الملائكة والنبيين من رب العالمين وهم لا يعصون الله ما أمرهم، فكيف يكون خوفنا نحن المسرفين على أنفسنا في المعاصي والذنوب؟ فلعل في هذا إشارة لنا نحن المقصرون على أنفسنا للرجوع إلى أنفسنا ومحاسبتها، فالآية تنبهنا إلى تقصيرنا وتحفزنا لعمل الطاعات ومحاسبة النفس.

﴿خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾: هنا سجود تلاوة وهي ليست واجبة لا في صلاة ولا خارجها، لكنها مستحبة. والرسول صلى الله عليه وسلم كان يسجد أحيانًا، وأحيانًا لا يسجد. وقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر بآية فيها سجود في سورة النجم فسجد، ومرة أخرى مر بنفس الآية ولم يسجد. وورد أيضا أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في الجمعة بآية فيها سجود فسجد، ومرة أخرى لم يسجد.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سجود التلاوة تطوع مستحب، ويشرع عند سجود التلاوة قول الدعاء التالي: "سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره بحوله وقوته فتبارك الله أحسن الخالقين، اللهم اكتب لي بها أجرا وحط عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود".

الهدايات والفوائد التربوية:

1- وصفَ اللهُ تعالى نفسَه بالمناداةِ والمناجاةِ، في قولِه: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾. وقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [القصص: 62]، وقولِه: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف: 22]، ووصفَ عبدَه بالمناداةِ والمناجاةِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: 4]. وقال: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ [المجادلة: 12]، وقال: ﴿إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المجادلة: 9]، وليست المناداةُ كالمناداةِ، ولا المناجاةُ كالمناجاةِ.

2- قال الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾. ذكَر مناداتَه لموسى عليه السَّلامُ ومناجاتَه إيَّاه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولم يَذكُرْ أنَّه فعَل ذلك بغيرِه مِن الأنبياءِ، وهذا ممَّا أجمع عليه المسلِمونَ وأهلُ الكتابِ: أنَّ تكليمَ اللهِ تعالى لموسى من خصائِصِه التي فضَّله بها على غَيرِه من الأنبياءِ والرُّسُلِ.

3- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ حُجَّةٌ على مَن يقولُ بخَلْقِ القُرآنِ إذْ لا يمكنُه أن يقولَ في المناداةِ ما يتأوَّلُه في الكلامِ، وإنْ كان ما يتأوَّلُه فيه خطأً، وقولُه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أكَّدَه بلا إشكالٍ، لأنَّ النَّجِيَّ لا يكونُ إلَّا مَن يُكَلَّمُ ويُحاوَرُ.

4- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ حُجَّةٌ على مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه بنَفسِه على العَرشِ، وأنَّ عِلْمَه في الأرضِ؛ إذ لو كان بنَفسِه في كلِّ مَوضعٍ -كما يزعُمونَ- ما كان لقَولِه ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ مَعنًى، ولَمَا كان لموسى فضيلةٌ على غَيرِه؛ إذِ المعنى الذي يَذهَبُ إليه يستوي جميعُ النَّاسِ فيه -كافِرُهم ومُؤمِنُهم- وليس لِمَا يتأوَّلُه مِن أنَّ القُرْبَ قُربُ الطَّاعةِ -لَمَّا قَرَّبَه بالمناجاة- خَصيصةٌ. ولذا رُوِيَ في الخبرِ أنَّه قَرَّبَه حتى سَمِعَ صريفَ القَلَمِ.

5- قال الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.. هذه الآيةُ ممَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ يتكَلَّمُ كيف شاء، مُناداةً كان الكَلامُ أو مُناجاةً، وأنَّ اللهَ تعالى يتكلمُ بصوتٍ، فالنداءُ في لغةِ العربِ هو صوتٌ رفيعٌ، ولا يُطلَقُ النداءُ على ما ليس بصوت -لا حقيقةً ولا مجازًا. وإذا كان النداءُ نوعًا مِن الصوتِ، فالدالُّ على النوعِ دالٌّ على الجنسِ بالضرورةِ، وموسى عليه السَّلامُ سَمِعَ كلامَ الله تعالى بحَرفٍ وصَوتٍ كما تدُلُّ عليه النُّصوصُ التي بلَغَت في الكثرةِ مَبلغًا لا ينبغي معه تأويلٌ، ولا يناسِبُ في مقابلتِه قال وقيل. فقد قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: 52]، ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى﴾ [الشعراء: 10]، ﴿نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ﴾ [القصص: 30]، ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ

طُوًى﴾ [النازعات: 16]، ﴿نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: 8].. واللائقُ بمقتضى اللُّغةِ والأحاديثِ أن يُفسَّرَ النِّداءُ بالصَّوتِ، بل قد ورَد إثباتُ الصَّوتِ لله تعالى في أحاديثَ لا تُحصى وأخبارٍ لا تُستَقصَى.

6- قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ النِّداءُ والنِّجاءُ أخَصُّ مِنَ التَّكليمِ لأنَّه تكليمٌ خاصٌّ، فالنِّداءُ تكليمٌ مِن البُعدِ يَسمَعُه المنادي، والنِّجاءُ تَكليمٌ مِن القُرب.

7- قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾، وإنَّما جُعِلَتْ تلك الهِبةُ من رحمةِ اللهِ لأنَّ اللهَ رحِمَ مُوسى إذ يسَّرَ له أخًا فصيحَ اللِّسانِ، وأكمَلَه بالإنباءِ حتَّى يُعْلَمَ مُرادُ مُوسى ممَّا يُبلِّغُه عن اللهِ تعالى.

8- قال اللهُ تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.. قَولُه: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا يَلزَمُ أن يكونَ صاحِبَ شَريعةٍ؛ فإنَّ أولادَ إبراهيمَ كانوا على شريعته.

9- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ في هذا دلالةٌ على شَرفِ إسماعيلَ على أخيه إسحاقَ، لأنَّه إنما وُصِفَ بالنبُوَّةِ فقط وإسماعيلُ وُصِفَ بالنبُوَّةِ والرِّسالة.

10- قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ فيه أنَّ حَقَّ الصَّالِحِ ألَّا يألوَ نُصحًا للأجانبِ، فضلًا عن الأقاربِ والمتَّصِلينَ، وأن يُحظِيَهم بالفوائِدِ الدِّينيةِ ولا يفرِّطَ في شَيءٍ مِن ذلك.

11- قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى عن إسماعيلَ عليه السَّلامُ أنَّه كان يأمُرُ أهلَه بالصَّلاةِ والزكاة، وكان عندَ ربِّه مَرضيًّا؛ فالإنسانُ مَسؤولٌ عن أهلِه، مسؤولٌ عن تربيتِهم حتى ولو كانوا صِغارًا إذا كانوا مميِّزينَ. أمَّا غيرُ المَمَيِّزِ فإنَّه يُؤمَرُ بما يتحمَّلُه عَقلُه. عن الحَسَنِ قال: "من كان له واعِظٌ مِن نَفسِه كان له مِنَ اللهِ حافِظٌ، فرَحِمَ اللهُ مَن وعَظَ نَفسَه وأهلَه فقال: يا أهلي صلاتَكم صلاتَكم، زكاتَكم زكاتَكم، جيرانَكم جيرانَكم، مساكينَكم مساكينَكم، لعلَّ اللهَ أن يرحَمَكم يومَ القيامةِ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أثنى على عبدٍ كان هذا عَمَلَه فقال: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾".

12- قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴿58﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾. فرَّق الله تعالى ذِكْرُه أنسابَهم وإن كان يجمَعُ جميعَهم آدمُ، لأنَّ فيهم من

ليس مِن ولَدِ مَن كان مع نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إدريسُ، على القَولِ بأنَّه كان قَبلَ نوحٍ عليه السَّلامُ.

13-قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ﴿58﴾ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فلإدريسَ ونوحٍ شَرَفُ القُربِ مِن آدَمَ -على القَولِ بأنَّ إدريسَ كان قبلَ نوحٍ- ولإبراهيمَ شَرَفُ القُربِ مِن نوحٍ، ولإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ شَرَفُ القُربِ مِن إبراهيمَ.

14-قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ أي: وَمِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، وكان منهم موسى وهارونُ وزكريَّا ويحيى وعيسى. وفيه دَليلٌ على أنَّ أولادَ البَناتِ مِن الذُّرِّيَّة؛ لأنَّ عيسى مِن مريمَ، ومريم مِن نَسلِ يَعقوبَ.

15-قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ﴾: في إضافةِ الآياتِ إلى اسمِه تعالى "الرَّحْمَٰنِ" دَلالةٌ على أنَّ آياتِه تعالى مِن رَحمتِه بعِبادِه وإحسانِه إليهم، حيثُ هداهم بها إلى الحَقِّ وبصَّرَهم مِن العَمى وأنقَذَهم من الضَّلالةِ وعَلَّمَهم مِن الجَهالة.

16-في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ حُجَّةٌ في جوازِ البُكاءِ في السُّجودِ والاقترابِ به مِن المعبودِ، وأنَّه لا يقطعُ الصَّلاةَ، لأنَّ اللَّه تعالَى قد مَدَحهم بالبكاءِ في السُّجودِ ولم يُفَرِّقْ بينَ سجودِ الصَّلاةِ وسُجودِ التِّلاوةِ وسَجدةِ الشُّكرِ.

17-قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على مشروعِيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ.

18-قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ فيه استِحبابُ البكاءِ عندَ تلاوةِ القُرآنِ. وعن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه أنَّه قرأ سورةَ مريمَ فسجَد، وقال: ﴿هذا السجودُ فأين البكيُّ؟﴾ يريدُ: فأين البكاءُ؟

19-قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ استُدِلَّ به علَى أنَّ سامِعَ السَّجدةِ وتالِيَها سَواءٌ في حكمِها، وأنَّهم جميعًا يسجُدونَ لأنَّه مَدَح السَّامعينَ لها إذا سَجَدوا.[62]

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾

[مريم: 59]

مناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَ الأنبياءَ المذكورينَ في الآياتِ السَّابقةَ بصفاتِ المدحِ ترغيبًا لنا في التأسِّي بطريقتِهم، ذكَرَ بَعدَهم مَن هو على الضِّدِّ منهم، فقال:

﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ**﴾ أي: فجاء مِن بعدِ الذين أنعَم اللهُ عليهم مِن النبيِّينَ عَقِبُ سَوءٍ أضاعُوا الصَّلاةَ إمَّا بتَركِها بالكُليَّةِ أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأخيرِها عن مواقيتِها وغير ذلك.

﴿**خَلْفٌ**﴾: أي قرونٌ تخالفهم في الصفة. والخَلْف: هم القوم الذين يخلُفون الإنسان، أي يأتون بعده. وهناك فَرْقٌ بين "خَلْفٍ" و"خَلَفٍ": فالأولى: بسكون اللام ويُراد بها الأشرار من عَقِب الإنسان وأولاده، والأخرى: بفتح اللام ويُراد بها الأخيار. والمراد بهذا الخلف ثلاثة أقوال:

- أحدها أنهم اليهود. رواه الضحاك عن ابن عباس.
- والثاني: اليهود والنصارى. قاله السدي.
- والثالث: أنهم من هذه الأمة يأتون عند ذهاب صالحي أمة محمد صلى الله عليه وسلم يتبارون بالزنا، ذكر أعظم صفة في المخالفة وهي الصلاة ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ ويدل ذلك على عظم قدر الصلاة وأن من تَرَكها فهو لما سواها أترك. رجعوا إلى الخلف والوراء فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها فلم يؤدوها بالكُلّية أو أخّروها عن مواعيدها ومواقيتها التي وقّتها الله عز وجل فتهاونوا فيها وضيعوها. وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، وهي آكد الأعمال وأفضل الخصال، وهي أهم ركن من أركان الدين.

62- يُنظر: تفسير القرطبي 120/11، تفسير الطبري 566/15، تفسير البيضاوي 14/4، تفسير ابن كثير 239/5- 240، تفسير ابن عاشور 129/16، تفسير الألوسي 18/1، تفسير الزمخشري 23/3، تفسير ابن جرير 565/15، تفسير ابن عطية 21/4.

﴿**أَضَاعُوا الصَّلَاةَ**﴾: الإضاعة هنا ليس المقصود منها ترك الصلاة نهائيا وإنما استهانوا بها وأخروها عن أوقاتها وأدوها بغير خشوع ولا تدبر. وقد جاء هذا المعنى في آيات أخرى في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿4﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4-5] هؤلاء مصلون والله يتوعدهم بالويل وهو وادٍ في جهنم، لماذا يتوعدهم الله بالويل وهم يصلون؟ هم من المصلين لم يتركوا الصلاة، ولكنهم تهاونوا في أوقاتها ولم يصلوها في وقتها كمن يجمع الصلوات لانشغاله بعمله الدنيوي، أو يصلون بلا خشوع ولا حضور قلب ولا تدبر لآيات الله.

﴿**وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ**﴾: وأقبلوا على شَهَواتِ أنفُسِهم وانهَمَكوا في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ وآثَروها على طاعةِ اللهِ، جعلوا الشهوات متبوعة؛ أي يتبعونها، فهي التي تُملي عليهم مسيرة حياتهم، متى برزت لهم شهوة اتبعوها وجاؤوا بالوحي والنصوص وسوّقوها لتكون مطيّة لهم إلى شهواتهم.

﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾: فهؤلاء سيلقون غيًّا، أي خسارًا يوم القيامة. اختلف المفسرون في شرح الغي، فالمقصود بالغَيّ: إما أن يكون الخسارة والهلاك، أو أن يكون وادِيًا في جهنم من قيح ودم تستغيث منه جهنم لشدة حره، فكيف بساكنيه! نسأل الله تعالى أن يعيذنا من النار وحر النار. وقيل هو نهر في جهنم والله تعالى أعلى وأعلم.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾

[مريم: 60]

﴿**إِلَّا مَن تَابَ**﴾: فاستثنى من هؤلاء الذين سيلقون الغي، استثنى على عادة القرآن في كونه مثاني: بين الترغيب والترهيب، وذِكْر الصالحين والطالحين، والسعداء والأشقياء.. فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ أي إلّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ.

﴿**وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾: وآمنوا باللهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا صادقًا جازمًا لا تردد فيه ولا ريب، وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ لله، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه.

﴿**فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا**﴾: ﴿فَأُوْلَئِكَ﴾ أي المذكورون، وعبّر عنهم بأولئك، إشارةً إلى بُعدِ منزلتِهم وعلوّها وكمالِها، فأولئك يدخُلونَ الجَنَّةَ، ويَنجُونَ مِن النَّارِ، كقوله في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿68﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿69﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: 68-70].

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾: أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِهم، بل يجدونها كاملةً، موفورةً أجورها، مضاعفًا عددُها، ولن يبخسوا أجورهم ولو مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 40].

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ [مريم: 61]

﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ الجنة: مفعول به منصوب. ثم قال الله تعالى:

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بدلٌ منها ولذلك جاءت ﴿جَنَّاتِ﴾ مكسورة.. لماذا كُسِرت؟ لأنها جمع مؤنث سالم، وجمع المؤنث السالم علامة نصبه الكسرة، ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي يدخُلُ أولئك التائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ وخلود قد وعد الرَّحْمَٰنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخر:

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي عِبادَهُ الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، والمقصود هنا العبودية الاختيارية.. فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادةً وأعظم إنابةً وأكثر حبًا وأجل شوقًا.. أو أن الله وعدهم إياها وعدا غائبًا فآمنوا بها وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيها مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها؟ لو رأوها لكانوا أشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبةً وأكثر لها سعيًا.. وفي هذا مدحٌ لهم بإيمانهم بالغيب الذي هو الإيمان النافع، آمنوا بها لأن الذي وعدهم بها هو الله ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾:

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا كان مِن شأنِ الوُعودِ الغائبةِ –على ما يتعارَفه النَّاسُ بينهم– احتِمالُ عَدَمِ الوُقوعِ، بَيَّن أنَّ وَعدَه ليس كذلك، بقَولِه: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾. أي: سيأتي المؤمنونَ المطيعونَ ويَصيرونَ إلى اللهِ وينالونَ ما وُعِدوا به فيُدخِلُهم جنَّتَه تحقيقًا لوَعدِه. والجنّات تؤتى ولا تأتي؛ أي مأتية وليست آتية، فالوعد هو الجنة، والله لا يخلف الميعاد ولا يبدله. ويؤكد حصولَ ذلك وثبوتَهُ واستقرارَهُ قولُ اللهِ تعالى: ﴿كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا﴾.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: 62]

﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**﴾: أي لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفَعُهم، ولكِنْ يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِن الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مثل تحيَّةِ اللهِ وملائكتِه لهم وتسليمِ بعضِهم على بعضٍ. قال ابن عباس: اللغو كل ما لم يذكر فيه الله جل وعلا.

﴿**إِلَّا سَلَامًا**﴾ استثناء منقطع، إلا تسليمًا، فهم يسمعون السلام من إخوانهم المؤمنين، والملائكة كلما مروا بهم سلموا عليهم، وربهم سبحانه وتعالى يسلِّم عليهم.. لهم فيها سلام وهو قول الملائكة: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: 24]، وكقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿25﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: 25-26]. وقيل: يسلم الله عليهم عند دخول الجنة، وقيل سلام أهل الجنة بعضهم على بعض.

وهؤلاء المؤمنون عندما كانوا في الدنيا كانوا ينزهون أسماعهم عن اللغو لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55]. وقال الله عز وجل أيضا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿1﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿2﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: 1-3]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 71].. لذلك نزههم الله عن اللغو في الجنة.

﴿**وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾: أي يرزقهم الله عز وجل بكرة وعشيًا، هذا تقريب قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووَقتِ العَشيّ مِن أيّامِ الدُّنيا، ليس في الجنة ليلٌ أو نهار، وإنما هو ضوء ونورٌ بكرةً وعشيًّا، هم في نور أبدًا ولهم مقدار الليل والنهار؛ يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وبفتح الأبواب.. والطعام يأتيهم في كل وقت، في أول الوقت وفي آخره يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم والليلة من الزمن. وقيل أرزاقهم من المآكل والمشارب وأنواع اللذات مستمرة حيثما طلبوا وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذاتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة ومقدرة بأوقات.. تُهَيَّأُ لهم الموائد بأوقات معلومة، ولهم أن يطلبوا ما يشاؤون وفي أي وقت.

ما الحكمة من كون رزقهم يأتيهم بُكْرَة وَعَشِيّا؟ هناك معنًى دقيق ذكره بعض المفسرين وهو أن أهل الجنة اعتادوا أن يكون طعامهم صباحا ومساء في الدنيا، فُجري لهم هذا في الجنة، بمعنى أنهم على حال ما اعتادوا عليه في الدنيا ليكتمل نعيمهم مع اختلاف الموائد والملذات. واستنبط بعضهم من هذه الآية أن أطيب الطعام ما كان بكرةً في الصباح، وعشاءً قبل المغرب.. وهذا الذي اعتاده الناس في الزمان السابق، إنما في وقتنا هذا لكثرة النعمة ووفرتها بحمد الله وفضله، زادوا وجبة ثالثة فجعلوا للصباح وجبة، وللغداء وجبة، وللعشاء وجبة.. وإلا فالناس في الزمن الأول، بل حتى في القديم في

وقت نزول القرآن كانوا على وجبتين في الصباح والمساء فقط، هذه وجباتهم الرئيسية. وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان ينبغي ألا يكثر من وجبات طعامه إلا ما يعينه ويقويه. وكلما قلت كثر نعيمه فيها لأنه كما قال عمر: نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، فعندما يكون الإنسان بحاجة للطعام يتلذذ به.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: 63]

هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقِيًا لعذابِ اللهِ، بامتثالِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، كما قال تعالى في أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿1﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿2﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿3﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿4﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿5﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿6﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿7﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿8﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿9﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿10﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: 1-11].

﴿**نُورِثُ**﴾: في هذا دلالة على أنهم ينالون الجنة ويورثها الله لهم من غير مقابل لعملهم؛ وإنما رحمة من الله، وإن كان عملهم سببًا، لأن الإرث هو الذي يناله الإنسان بلا كد.. نورث أي نعطي، لعلكم تلاحظون في هذه السورة أن الإرث والوراثة جاءت بشكل كبير: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿5﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 5-6]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40] فيكون كالميراث لهم، فنورثها لهم ونجعلها منزلهم الدائم الذي لا يظعنون عنه ولا يبغون عنه حولًا.

وقيل إن وراثتهم إياها أن يملّكهم الله عز وجل إياها بعد أن لم تكن ملكًا لهم، وقيل لأن الله قد كتب لكل إنسان مقعده من الجنة ومقعده من النار، فأما الكفار إذا تخلّفوا عن مقاعدهم في الجنة، ورثها المؤمنون منهم، كما أن الكفار يرثون مقاعد المؤمنين في النار فيكونون من أهلها، نسأل الله العافية.

﴿**مَن كَانَ تَقِيًّا**﴾: دل على أن أولى الناس بالجنة هم المتقون. فبحسب تقوى العبد تكون منزلته، كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 133]. وجماع التقوى هو فعل الواجبات وترك المحرمات. والتقوى تزداد في القلب بازدياد الإيمان. وقد جمع الله خصال التقوى في آية في سورة البقرة، وهي قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ

وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177]. فمن شاء الوراثة فالطريق معروف: التوبة والإيمان والعمل الصالح.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قولِه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ أنَّه إذا كان سبحانه قد توعَّدَ بلُقِيِّ الغَيِّ مَن يُضيعُ الصلاةَ عن وقتِها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- ويَتبعُ الشَّهواتِ، والمؤَخِّرُ لها عن وَقتِها مُشتَغِلًا بما يَشتَهيه، فهو مُضيّعٌ لها مُتَّبِعٌ لشَهوتِه، فدَلَّ ذلك على أنَّه مِن الكبائرِ إذْ هذا الوعيدُ لا يكون إلَّا على كبيرةٍ.

2- قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿59﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصلاةِ، الكفرَ الأكبرَ المخْرِجَ عن الملة. ووجهُ الدلالةِ أنَّ اللهَ قال في المضيّعينَ للصلاةِ المتَّبعينَ للشهواتِ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ﴾، فدلَّ على أنَّهم حينَ إضاعتِهم للصلاةِ واتِّباعِ الشهواتِ غيرُ مؤمنين، فلو كان مضيّعُ الصلاةِ مؤمنًا لم يُشترَطْ في توبتِه الإيمانُ، فإنَّه يكونُ تحصيلًا للحاصلِ، وذلك على أنَّ المرادَ بالإضاعةِ: التركُ.

3- في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ ذمٌّ لمن تَرَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصلاةِ -وإن كان في الظاهر مُصَلِّيًا- مثل أنْ يَتْرُكَ الوقتَ الواجبَ أو يَتْرُكَ تكميلَ الشرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظاهرةِ والباطنةِ، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسير الآية.

4- إنَّ مِن أهمِّ وأعظَمِ أسبابِ التَّهاونِ في الصَّلاةِ اتِّباعَ الشَّهواتِ، ولهذا قرنَ اللهُ تبارك وتعالى إضاعةَ الصَّلاةِ باتِّباعِ الشَّهَواتِ فقال سُبحانَه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

5- الصَّالحونَ كُلُّهم قَلَّلوا مِن عَيشِ الأجسادِ وكثَّروا من عيشِ الأرواحِ، فإنَّ الأخذَ مِن عَيشِ الأجسادِ أكثَرَ مِن قَدرِ الحاجةِ يُلهي عن اللهِ، ويَشغَلُ عن خِدمتِه؛ فما تفرَّغ أحدٌ لطَلَبِ عَيشِ الأجسادِ وأعطَى نفسَه حَظَّها مِن ذلك إلَّا ونقَص حَظُّه مِن عَيشِ الأرواحِ وربَّما مات قلبُه مِن غَفلتِه عن الله وإعراضِه عنه، وقد ذمَّ اللهُ عز وجل مَن كان كذلك فقال: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، ثمَّ إنَّ



ما حصَّلوه مِن شَهواتِهم ينقَطِعُ ويزولُ بالموتِ ويَنقُصُ بذلك حظُّهم عندَ الله في الآخرةِ، فإن كان ما حصَّلوه من شهواتِهم مِن حَرامٍ فذلك هو الخُسرانُ المبينُ فإنَّه يُوجِبُ العقوبةَ الشَّديدةَ في الآخرةِ.

6- شَرَط الله في قَبولِ التوبةِ ومغفرةِ الذنوبِ: العملَ الصالحَ؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، وقَولِه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [طه: 82]، وقَولِه: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص: 67].

7- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ فيه تنبيهٌ ظاهِرٌ على وجوبِ تجنُّبِ اللَّغوِ واتِّقائِه حيثُ نَزَّه اللهُ عنه الدَّارَ التي لا تكليفَ فيها، وما أحسَنَ قولَه سُبحانه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72]، وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

8- قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾، فقَولُه "نُورِثُ" فيه إشارةٌ إلى أنَّها ليست عِوَضًا عن الأعمالِ بوَجهٍ، ولم يأخُذْها أحَدٌ بالاستِحقاقِ، وإنَّما كالوارِثِ الذي أخَذَ الإرثَ بغيرِ مُعاوَضةٍ ولا استِحقاقٍ.[63]

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذكَرَ الله تعالى قَصَص الأنبياءِ عليهم السَّلامُ تثبيتًا للنبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأعقَبَه بذِكرِ ما أحدَثَه الخَلْفُ بَعدَهم، وذكَرَ جزاءَ الفَريقينِ، أعقَبَ ذلك بقصة تأخُّرِ نُزولِ جِبريلَ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ زعم المشرِكونَ أنَّ اللهَ ودَّعَه وقلاه. وقد ردَّ عليهم زَعْمَهُمْ وبيَّن لهم أنَّ الأمرَ على غيرِ ما زَعَموا.

63- يُنظر: تفسير الزمخشري 27/3، تفسير أبي حيان 280/7، تفسير أبي السعود 273/5، جامع العلوم والحكم لابن رجب 437/1، تفسير ابن عرفة 126/3، البسيط للواحدي 278/14، الوجيز للواحدي ص 685، تفسير الخازن 193/3، تفسير ابن كثير 248/5، نظم الدرر للبقاعي 227/12.

وأيضًا لَمَّا كَشَفَت هذه السُّورةُ عن هذه القِصَصِ الغَرِيبةِ، وكان المتعَنِّتونَ ربَّما قالوا: نريدُ أن يخبِرَنا هذا الذي يَنزِلُ عليك بجَميعِ أنباءِ الأقدَمينَ وأخبارِ الماضِينَ، كان جوابًا عن ذلك أن قيلَ: ما أُنزِلْنا عليك بأخبارِ هؤلاء إلَّا بأمرِ رَبِّك، وما نتنزَّلُ فيما يأتي أيضًا إلَّا بأمرِ ربِّك.

سببُ النُّزول:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "يا جِبْرِيلُ، ما يَمْنَعُكَ أنْ تَزُورَنا أكْثَرَ ممَّا تَزُورُنا، فَنَزَلَتْ: ﴿وَما نَتَنَزَّلُ إلَّا بأَمْرِ رَبِّكَ له ما بيْنَ أيْدِينا وما خَلْفَنا﴾" [مريم: 64] إلى آخِرِ الآيَةِ، قالَ: كانَ هذا الجَوابَ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم"[64].

﴿**وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ**﴾: أي: قُلْ -يا جبريلُ- لمحمَّدٍ: وما ننزِلُ -نحن الملائِكة- من السَّماءِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالنُّزولِ متى شاء؛ فنحن عبيدٌ مأمورونَ ليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ، فلا تَستبطئْ نُزولَنا يا محمَّد، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27].

﴿**لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ**﴾: أي لله وحدَه جميعُ الجهاتِ والأماكنِ وجميعُ الأزمانِ الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ؛ فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه.

اختلف المفسرون في تفسيرها فقيل: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ أي مما يستقبل من أمر الآخرة، ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ مما مضى من الدنيا، ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي ما بين الدنيا والآخرة من وقتنا الحاضر.. وقيل: المراد بما بين أيدينا: أمر الدنيا، وما خلفنا: أمر الآخرة، وما بين ذلك: ما بين النفختين.. وقيل إن معنى الآية أن الله له ملك السماوات والأرض وما بينهما وكل المخلوقات هي ملك لله سبحانه وسترد إلى الله عز وجل فله الأمر كله في الزمان والمكان، وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [سبأ: 9]. وقال تعالى في سورة طه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ما اللمسة البيانية في قوله تعالى في سورة مريم: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾؟ ولماذا لم تأتِ مثل سورة البقرة: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ في آية الكرسي؟

في سورة مريم سياق الآيات "عن الملك": ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا﴾، ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.. فالذي يرزق هو الذي يورّث فهو المالك. وقوله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ

64- الراوي: عبد الله بن عباس. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 7455. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿وَالْأَرْضِ﴾ فهو مالكهم، أما في آية الكرسي فالسياق "عن العلم"؛ فبعدها يأتي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾[65].

﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾ أي: ولم يكُنْ رَبُّك -يا محمَّدُ- ذا نسيانٍ لشَيءٍ مِن الأشياءِ؛ فإنْ تأخَّرَ نزولُنا إليك فليس عن نِسيانٍ منه، وإنَّما اقتضت حكمتُه ذلك، ولم يكن ربُّك لينساك ويُهمِلَك، كما قال عز وجل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3]؛ بل لم يَزَلْ مُعتَنيًا بك فلا تحزَنْ إن تأخَّرَ نزولُنا، واعلَمْ أنَّ اللهَ أراد ذلك، كما قال تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52].

في هذه الآية ينزه الله سبحانه نفسه عن النسيان. قد يقول البعض: كيف ذلك والله تبارك وتعالى يقول: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67]، ويقول الله تعالى أيضًا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 14]. فما هو موهم التعارض بين الآيات؟

الجواب: هو أن النسيان في هاتين الآيتين الأخيرتين ليس معناه نقيض الذكر؛ ولكن المعنى هنا هو الترك والإهمال والإعراض، وأن الله يطردهم من رحمته. ونستفيد من هذه الآية استحباب مجالسة الصالحين واستحباب زيارتهم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّما مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ والجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ، فَحامِلُ المِسْكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَكَ، وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رِيحًا طَيِّبَةً، ونافِخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحْرِقَ ثِيابَكَ، وإمَّا أنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[66].

وقال أيضا صلى الله عليه وسلم: "لا تُصاحبْ إلا مؤمنا، ولا يأكلْ طعامكَ إلا تَقِيّ"[67]. وقال عليه أفضل الصلاة والسلام: "المرءُ على دينِ خليلِه، فلينظُرْ أحدُكم من يخالِلُ"[68].

65- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل. د. فاضل السامرائي.

66- الراوي: أبو موسى الأشعري - المحدث: مسلم - المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 2628 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

67- الراوي: أبو سعيد الخدري - المحدث: البغوي - المصدر: شرح السنة. الصفحة أو الرقم: 468/6 - خلاصة حكم المحدث: حسن.

68- الراوي: أبو هريرة - المحدث: ابن حجر العسقلاني - المصدر: تخريج مشكاة المصابيح. الصفحة أو الرقم: 442/4 - خلاصة حكم المحدث: حسن.

﴿رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾

[مريم: 65]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وُصِفَ اللهُ سبحانه وتعالى بنفوذِ الأمرِ واتّساعِ العِلمِ على وجهٍ ثبَت به ما أخبَرَ به عن الجنة فثبَت أمرُ البعث، أتبع ذلك ما يُقَرِّرُه على وجهٍ أصرحَ منه وأعمَّ، فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. ثم علل إحاطة علمه وعدم نسيانه بأنه ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالِقُ السَّماواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما مِن الخَلقِ، ومُدَبِّرُ ذلك كلّه، فلو كان نَسِيًّا لما استَقامَ الوُجودُ، ولاضطربَ نظامُ الحياةِ وهلكَت المخلوقاتُ، وأثبت سبحانه الربوبية له دون سواه، لا ربوبية لغيره ولا شريك معه، سبحانه هو رب وخالق ومالك السماوات والأرض وما بينهما، فربوبيته للسماوات والأرض وكونهما على أحسن نظام وأكمله ليس فيه غفلة ولا إهمال ولا سُدًى ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل وعنايته الكاملة.

وقيل إن هذه الآية جمعت أنواع التوحيد الثلاثة: أما الأول فهو توحيد الربوبية ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. وأما الثاني فهو توحيد الألوهية ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾. وأما الثالث فهو توحيد الأسماء والصفات ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

﴿**فَاعْبُدْهُ**﴾: أي فاعبُدْ رَبَّك وحده يا محمد فهو المستحق للعبادة. والعبادة هي لفظ جامع لكل ما يحب الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة. وحقيقة العبادة هي الطاعة بغاية الخضوع ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود سبحانه. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

﴿**وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ**﴾: ليس "اصبر" وإنما "اصطبر"، مبالغةً في التأكيد، لأن عبادة الله تحتاج إلى صبرٍ شديد، والاصطبار أعلى من الصبر، ولذلك قال الله تعالى في سورة طه: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: 132]. واصبِرْ صَبرًا عظيمًا بغايةِ جُهدِك على عبادتِهِ والعَمَلِ بطاعتِه. العبادة تكليف من الله عز وجل، وكل تكليف لا يخلو من المشقة، فعلى الإنسان أن يصبر نفسه عليها ويجاهدها.

﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾: هذا استفهام بمعنى النفي، هل تعلم لله سبحانه مثيلًا أو شبيهًا أو نظيرًا من المخلوقين؟ أو هل تعلم أحدًا يُسمَّى اللهَ غيره؟ لا تعلم له شبيهًا في أسمائه وصفاته جلا وعلا، لا سميَّ ولا نِدَّ ولا كُفؤَ ولا نظير. قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 3]. هو رب السماوات والأرض المستحق لأن يُفرَدَ بالعبادة لأنه الربُّ وغيره مربوبٌ، الخالقُ وغيرُهُ مخلوقٌ، الغني من جميع

الوجوه، وغيره فقيرٌ بالذات من كل وجهٍ، الكاملُ الذي له الكمالُ المطلقُ من جميع الوجوهِ وغيره ناقصٌ ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطعٌ على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية وأن عبادَتَهُ حقٌ وعبادةَ ما سواهُ باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده والاصطبار لها. وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: استُدِلَّ به على أنَّ الأزمنةَ ثَلاثةٌ: مُستقبَلٌ وماضٍ وحالٌ، خِلافًا لِمَن نفى الحالَ، وهذا على القولِ بأنَّ الآيةَ في الأزمنة.

2- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67]، وقولُه تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ [طه: 126]، وقَولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الجاثية: 34] ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ [الأعراف: 51]، لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: 52]، وقَولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: 64]، لأنَّ معنى النسيان من الله جل وعلا: هو تركُهم في العذابِ محرومينَ مِن كُلِّ خَيرٍ، واللهُ تعالى أعلَمُ.

3- اجتمَعَت في قولِه تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أقسامُ التَّوحيدِ الثَّلاثةُ: توحيدُ الربوبيَّة، وتوحيدُ الألوهيَّة، وتوحيدُ الأسماءِ والصِّفاتِ، فتوحيد الربوبية في قولِه تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وتوحيد الألوهيةُ في قولِه تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات في قولِه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾.

4- نهانا الله تعالى عن أن نَضرِبَ له المثَلَ فقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74]. وأخبَرَنا الله عزَّ وجَلَّ أنَّه لا مِثلَ له، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]. وقال تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وبهذه الآياتِ يتبيَّنُ أنَّه لا يحِلُّ لنا أن نُمَثِّلَ صفاتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

5- قول الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ يستفادُ منه أنَّ النكرةَ في سياقِ الاستفهامِ تَعُمُّ.

6- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ الاستفهامُ للنفيِ. وإذا كان الاستفهامُ بمعنى النفيِ كان مُشرَبًا معنى التحَدِّي، أي: إن كنتَ صادِقًا فأخبِرْنا: هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا؟[69]

وهنا انتهى الحديث عن القسم الأول من السورة، حيث جاء فيه الحديث عن قصة زكريا ومنحته الولد، ثم الحديث عن يحيى، ثم الحديث عن مريم وعيسى وما كان من شأن قومه بعده من اختلافهم، ثم عن إبراهيم عليه السلام، ثم عن بعض الأنبياء الذين خصهم الله تعالى كموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، ثم من أنعم الله عليهم من النبيين وخضوعهم لله وتعبدهم لله، ثم الإشارة إلى من خَلَفَهُمْ على غير هداهم، ثم الحديث عن وعد الله تعالى للمؤمنين بجنة النعيم، ثم الحديث عن تنزل الوحي بأمره، وارتباط ذلك بأمر الله، والتعريف به سبحانه وتعالى وملكه وكماله.

ثم انتقل الحديث في القسم الثاني عن الكافر والمنكرِ للبعثِ والمشركِ بالله تعالى المتخذ له ولدًا:

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: 66]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تضَمَّنَ قَولُه تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ إبطالَ عَقيدةِ الإشراكِ به، ناسبَ الانتقالُ إلى إبطالِ أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو نفيُ المشركينَ وُقوعَ البعثِ بعد الموتِ حتى يتِمَّ انتقاضُ أصلَيِ الكُفر ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿66﴾﴾ أي: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل سأُخرَجُ بعدَ موتي وفَنائي حيًّا مِن قبري؟!

سبب نزول الآية:

أن رجلًا من قريش -هو أُبَيُّ بن خلف- أخذ عظمًا باليًا فجعل يفتُّهُ بيده ويذروه في الريح ويقول: زعم لكم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نكون مثل هذا العظم البالي. فنزلت هذه الآية.

والمراد بالإنسان هاهنا كلُّ منكرٍ للبعث والحشر والحساب، مستبعدٍ لوقوعه، فهو يسأل متعجبًا ومستنكرًا، مستفهمًا على وجه النفي والعناد والكفر: ﴿أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ ويستبعد إعادته بعد موته كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: 5]. وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿77﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿78﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ

69- يُنظر: تفسير ابن جرير 585/15، تفسير القرطبي 130/11، عمدة الحفاظ للسمين الحلبي 174/4، نظم الدرر للبقاعي 230/12، تفسير أبي السعود 273/5، تفسير السعدي ص 498.

عَلِيمٌ﴾ [يس: 77-79] وهناك أدلة كثيرة في القرآن تدل على البعث يوم القيامة، ونستفيد منها الرد على منكري البعث بالبراهين والأدلة الكونية والعقلية.

ومن هذه الأدلة في القرآن:

1- خلق السماوات والأرض وخلق الكون لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: 57].

2- البعث أهون على الله سبحانه من النشأة الأولى لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27]. وقوله سبحانه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 67].

3- النوم؛ فهو ميتةٌ صغرى لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 60]، وقد ورد عن النبي ﷺ عند النوم قول: "باسْمِكَ اللَّهُمَّ أمُوتُ وأَحْيَا". وإذَا اسْتَيْقَظَ مِن مَنَامِهِ قالَ: "الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أحْيَانَا بَعْدَما أمَاتَنَا وإلَيْهِ النُّشُورُ"[70]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: 42].

4- إحياء الله الأرض بعد موتها لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39]. وقوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: 33]. وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5].

70- الراوي: حذيفة بن اليمان، المحدث: البخاري - المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 6324 - خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: 67]

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسير:

في قولِه تعالى ﴿يَذْكُرُ﴾ قراءتانِ:

1- قِراءةُ ﴿يَذْكُرُ﴾ مِنَ ﴿الذِّكر﴾ الذي يكونُ عَقيبَ النِّسيانِ والغَفلةِ أي: أوَلا يتنبَّهُ الإنسانُ ويعلَمُ؟ قرأ بها نافعٌ، وعاصمٌ، وابنُ عامرٍ.[71]

2- قِراءة ﴿يَذَّكَّرُ﴾ مِن ﴿التذَكُّرِ﴾ الذي هو بمعنى التدبُّر، أي: أوَلا يتدبَّرُ الإنسانُ ويتفَكَّرُ؟ قرأ بها الباقون.[72]

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ أي: أوَلا يتنبَّهُ الكافِرُ المنكِرُ قُدرةَ اللهِ على بَعثِه أنَّ اللهَ قد خلقَه مِن قَبلُ ولم يكُنْ شَيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ مَوتِه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: 27].

وقال سُبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿78﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 78-79]. وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "قال الله: كذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولَدٌ، فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولدًا"[73]. فهنا، يستدل الله سبحانه ببدء الخلق على إعادته، خَلَقَ الإنسان ولم يكُ شيئا، أفلا يقدر على إعادته!! ثم يعقب الحق سبحانه على هذا الإنكار والاستكبار بقسم تهديدي فيقول سبحانه:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: 68]

أقسم الباري عز وجل بنفسه الكريمة بربوبيته، وأضافها إلى النبي ﷺ تشريفا وتكريما وتعظيما له، فأُقسِمُ بربِّك -يا محمَّدُ- لنجمَعَنَّ المنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ معَ شياطينِهم الذين أضَلُّوهم، كما قال تعالى:

71- يُنظر: النشر لابن الجزري 318/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءِة: حجة القراءات لابن زنجلة ص 445، الكشف لمكي 90/2.

72- يُنظر: النشر لابن الجزري 318/2. ويُنظر لمعنى هذه القراءة: حجة القراءات لابن زنجلة ص 445، الحجة لأبي علي الفارسي 204/5، الكشف لمكي 90/2.

73- رواه البخاري 4482.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿22﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 22-23].

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: يصف لنا الباري صفةَ حشْرِهِمْ: ثمَّ لَنُحضِرَنَّهم حولَ جهنَّمَ أذِلَّاءَ باركينَ على رُكَبِهم مِن شِدَّةِ الأهوالِ، وفظاعةِ الأحوال. وعن ابن عباس: قعودًا. وعنه: جماعات جماعات. وقيل: هي جمع جثوة، وهو المجموع من التراب والحجارة. وقال مجاهد والحسن والزجّاج: على الركب. وقال السدّي: قيامًا على الركب لضيق المكان بهم جاثين: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: 28].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 69]

أي: ثمَّ لنأخُذَنَّ بشِدَّةٍ وعُنفٍ مِن كُلِّ جماعةٍ وفِرقةٍ مِن طوائِفِ الكُفرِ والضَّلالِ أشَدَّهم تمَرُّدًا على الرَّحْمَٰن وأعظَمَهم فَسادًا وكُفرًا وظُلْمًا فنبدأُ بتعذيبِهم وإدخالِهم النَّارَ. كما قال تعالى عن فرعونَ: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: 98]. أي أنه يقدم إلى العذاب من هو أغلظ إثما فالأغلظ، فيبدأ بتعذيب أعصاهم فأعصاهم وأعتاهم فأعتاهم، وبالأكابر جرما والرؤوس القادة في الشر وهم في تلك الحال متلاعنون يلعن بعضهم بعضًا.. ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿38﴾ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ [الأعراف: 38-39] وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: 70]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنه لما كان هذا النَّزعُ والتَّمييزُ مُجملًا، فقد يزعُمُ كلُّ فريقٍ أنَّ غيرَه أشدُّ عِصيانًا، فأعلَمَهم اللهُ تعالى أنَّه يعلَمُ مَن هو أولَى منهم بمِقدارِ صِلِيِّ النَّارِ، فإنَّها دركاتٌ مُتفاوتةٌ.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا﴾: أي: ثمَّ لنحنُ أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ مِن غَيرِهم.

﴿صِلِيًّا﴾: اصطلاء واحتراقًا في النار، من صَلِيَ يصْلَى: أي دخل النار وذاق حرَّها، أما: اصطلى أي: طلب هو النار كما في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: 7]

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]

أي: وما منكم أحدٌ -أيُّها النَّاسُ- إلَّا سيَرِدُ النَّار، حُكما حتمه الله على نفسه وأوعد به عباده.. فلا بد من نفوذه ولا محيد عن وقوعه. واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ فقيل: الواو تفيد القسم أي بمعنى "واللهِ إن منكم إلا واردها"، أو بمعنى "والله ما منكم من أحدٍ إلا واردها"، أي أنه عامٌ في حق المؤمن والكافر، وهذا قول الأكثرين. واستدلوا بحديث أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "لا يموتُ لمسلمٍ ثلاثةٌ مِن الوَلَدِ فيَلِجَ النَّارَ، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ"[74]. وتدل هذه الآية على أن الدخول يعم الكل، الكل سيرد جهنم سواء كان بَرًا أو فاجرًا، ظالما أو عادلًا. روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "الورودُ الدخولُ، لا يبقَى برٌّ ولا فاجرٌ إلا دخلَها فتكونُ على المؤمنينَ بردًا وسلامًا كما كانتْ على إبراهيمَ حتى إنَّ للنارِ -أوْ قال لجَهَنَّمَ- ضَجِيجًا من بردِهم ثمَّ يُنَجِّي اللهُ الذينَ اتقَوْا ويذرُ الظالمينَ"[75]. وروي عن ابن عباس أنه سأله نافع بن الأزرق عن هذه الآية فقال له: "أما أنا وأنت فسندخلها، فانظر أيخرجنا الله عز وجل منها أم لا". فاحتج بقوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: 98]، وبقوله تعالى ﴿أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: 98]. وكان عبد الله بن رواحة يبكي ويقول: أُنبِئْتُ أني واردٌ ولَمْ أُنَبَّأْ أَنِّي صَادِرٌ. وحكى الحسن البصري أن رجلًا قال لأخيه: يا أخي، هل أتاك أنك واردُ النار؟ قال نعم. قال: فهل أتاك أنك خارج منها؟ قال لا. وقيل: الورود هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم؛ فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يزحف زحفا، ومنهم من يُخطَفُ فيُلقَى في النار.. كلٌ بحسب تقواه. وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنه قال: "يؤتى بالجِسرِ فيُجعَلُ بين ظَهرَي جهنَّم. قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وما الجِسرُ؟ قال: مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ[76]، عليه خطاطيفُ وكلاليبُ[77] وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ[78] لها شوكةٌ عُقَيفاءُ[79] تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها السَّعدان؛ المؤمِنُ عليها كالطَّرْفِ[80] وكالبَرقِ وكالرِّيحِ،

74- تَحِلَّةَ القَسَمِ: أي: تحليلَ اليمينِ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 107/1 قال أبو عبدِ اللهِ أي: البخاري: وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا. رواه البخاري 1251 واللفظ له، ومسلم.

75- الراوي: جابر بن عبد الله - المحدث: الهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد. الصفحة أو الرقم: 58/7 - خلاصة حكم المحدث: رجاله ثقات 2632.

76- مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ: أي: تَزلَقُ عليه الأقدامُ ولا تَثبُتُ. يُنظر: النهاية لابن الأثير 310/2.

77- كلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو: حَديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ. يُنظر: شرح النووي على مسلم 21/3.

78- حَسَكةٌ مُفَلطَحةٌ: شَوْكَة صُلبةٌ قَويَّة لَهَا عرضٌ واتِّساعٌ. يُنظر: فتح الباري لابن حجر 105/1.

79- عُقَيفاء: أي: مُعْوجَّةٌ. يُنظر: شرح القسطلاني 405/10.

وكأجاويدِ[81] الخَيلِ والرِّكابِ[82] فناجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مَخدوشٌ، ومَكدوسٌ[83] في نارِ جهنَّمَ، حتى يمُرَّ آخِرُهم يُسحَبُ سَحبًا"[84].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما، قال: أخبَرَتني أمُّ مُبشِّر أنَّها سَمِعت النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عند حفصة: "لا يدخُلُ النَّارَ -إن شاء اللهُ- من أصحابِ الشَّجرةِ أحَدٌ ﴿الذين بايعوا تحتَها﴾ قالت: بلى يا رسولَ اللهِ! فانتهَرَها، فقالت حفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجَلّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾"[85].

﴿**كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا**﴾: أي كان ورودُكم النَّارَ أمرًا واجبًا لازمًا، قضَى الله تعالى أنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، وحتَّمَهُ على نفسِه. والحتْمُ هو الشيء الذي يقع لا محالةَ، فكلامه تعالى وحكمه نهائيٌّ وكانَ حَتْمًا مقضيًا لا رجعةَ فيه.

﴿**ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا**﴾: أي ثمَّ نُخَلِّصُ الذين اتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ واجتنابِ ما نهى، مِن النَّارِ بعدَ وُرودِ النَّاسِ إيَّاها.

﴿**وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا**﴾: أي ونترُكُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي في النَّارِ بُروكًا على رُكَبِهم[86].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ فيه دعوةٌ للنَّظَرِ بالدَّليلِ العَقليِّ بألطَفِ خِطابٍ، وأنَّ إنكارَ مَن أنكر ذلك مبنيٌّ على غفلةٍ منه عن حالِه الأُولَى، وإلَّا فلو تذكَّرَها وأحضرَها في ذِهنِه، لم يُنكِرْ ذلك.

2- في قَولِ الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ قال بعضُ العُلَماءِ: لو اجتَمع كلُّ الخلائقِ على إيرادِ حُجَّةٍ في البعثِ على هذا الاختصارِ، ما قَدَروا عليه؛ إذ لا

80- كالطَّرْفِ: أي: كلَمحِ البَصَرِ. يُنظر: شرح القسطلاني 405/10.

81- أجاويد الخيل: جَمعُ جَوادٍ، وهو الفَرَسُ السَّابقُ الجيِّدُ. يُنظر: شرح القسطلاني 405/10.

82- الرِّكابُ: الإبلُ، واحِدتُها الرَّاحِلةُ مِن غَيرِ لَفظِها. يُنظر: شرح القسطلاني 405/10.

83- مكدوسٌ: أي: مَصروعٌ. يُنظر: شرح القسطلاني 405/10.

84- رواه البخاري 7439 واللفظ له، ومسلم 183.

85- رواه مسلم 2496.

86- تفسير ابن عاشور 148/16، تفسير مقاتل بن سليمان 634/2، تفسير ابن جرير 606/15، تفسير العُليمي 268/4، تفسير الشوكاني 405/3، تفسير القنوجي 190/8، تفسير السعدي ص 498.

شكَّ أنَّ الإعادةَ ثانيًا أهونُ مِن الإيجادِ أوَّلًا، فهذه الحُجَّةُ في غايةِ الاختصارِ والإلزامِ للخصمِ، ويُسمَّى هذا النَّوعُ: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وبعضُهم يُسمِّيه المذهبَ الكلاميّ.

3- قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في إلحاقِ المِثْلِ بمِثْلِه.

4- في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ يَتوَجَّهُ إلى السَّاداتِ أوَّلًا، ثم تكونُ الأتباعُ تَبَعًا لهم فيه، كما كانوا تَبَعًا لهم في الدُّنيا، فيُعذَّب الرؤساءُ القادةُ في الكفرِ قبلَ غيرِهم، ويشدَّدُ عليهم العذابُ لضلالِهم وإضلالِهم.

5- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿71﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ حُجَّةٌ على المعتَزلةِ في الوعيدِ شَديدةٌ لزعمِهم أنَّ الدَّاخِلَ مِن الموحِّدينَ النارَ لا يَخْرُجُ منها أبدًا، وهذا نصُّ القرآنِ يُخْبِرُ بورودِ الجميعِ إيَّاها، وصَدْرِ المتَّقينَ عنها وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو الدخول.

6- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿71﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ بيانُ نعمةِ اللهِ على المتَّقينَ أنَّهم مع الورودِ والعُبورِ عليها وسُقوطِ غيرِهم فيها نجَوا منها، وذلك على القولِ بأنَّ الورودَ هو المرورُ على الصراط.

7- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ على القَولِ بأنَّ الورودَ هو الدُّخولُ- فيه سؤالٌ: إذا لم يكُنْ على المؤمنينَ عَذابٌ في دُخولِهم النَّارَ، فما الفائدةُ في ذلك الدُّخولِ؟ الجوابُ من وجوه:

- الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ ذلك ممَّا يزيدُهم سرورًا إذا عَلِموا الخلاصَ منه.
- الوجهُ الثَّاني: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ مِن حيثُ يَرَونَ المؤمنينَ الذين هم أعداؤُهم يتخَلَّصون منها وهم يبقَونَ فيها.
- الوجهُ الثَّالثُ: أنَّ فيه مزيدَ غَمٍّ على أهلِ النَّارِ مِن حيثُ تَظهَرُ فضيحتُهم عند المؤمنينَ، بل وعندَ الأولياءِ، وعندَ مَن كان يخوِّفُهم مِن النَّارِ فما كانوا يلتَفِتون إليها.
- الوجهُ الرَّابعُ: أنَّ المؤمنين إذا كانوا معهم في النَّارِ يُبكِّتونَهم فزاد ذلك غمًّا للكُفَّارِ، وسُرورًا للمؤمنين.
- الوجهُ الخامِسُ: أنَّ المؤمنينَ كانوا يخوِّفونَهم بالحَشرِ والنَّشرِ، ويُقيمونَ عليهم صِحَّةَ الدَّلائِلِ، فما كانوا يَقبَلونَ تلك الدَّلائِلَ، فإذا دخلوا جهنَّمَ معهم أظهَروا لهم أنَّهم كانوا صادِقينَ فيما قالوا، وأنَّ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والنَّشرِ كانوا كاذبينَ.

- الوجهُ السَّادسُ: أنَّهم إذا شاهدوا ذلك العذابَ صار ذلك سببًا لِمَزيدِ الْتِذاذِهم بنعيمِ الجنَّةِ كما قال الشاعر أبو الطيبِ المتنبي[87]: وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ.

8- قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالوُرودِ: المرورُ على الصراطِ، فهذه أقوَى آيةٍ في ذِكرِ الصِّراطِ[88].

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: 73]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا أقام الحُجَّةَ على مُنكري البَعثِ، وأتبَعَها بما يكونُ يومَ القيامةِ، أخبَرَ عنهم أنَّهم عارضوا تلك الحُجَّةَ الدَّامغةَ بحُسنِ شارتِهم، أي حسن حالهم ومقامهم في الدنيا حسب ظنهم، وذلك عندَهم يدُلُّ على كرامتِهم على اللهِ تعالى.

وأيضًا فإنَّ هذا عَطفٌ على قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.. وهذا صِنفٌ آخَرُ مِن غُرورِ المشرِكينَ بالدُّنيا، فقد أناطوا الدلالةَ على السَّعادةِ بأحوالِ طِيبِ العَيشِ في الدُّنيا.. ويَرَونَ أنفُسَهم أسعَدَ مِن المؤمنينَ.

نزلت الآية في النضر بن الحارث وأصحابه.

﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**﴾: أي وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُ القُرآنِ -وهي دلالاتٌ واضِحاتٌ لا مِريةَ فيها- قال الكافِرونَ للمُؤمنينَ محتَجِّينَ على بُطلانِها، وكونِهم على الحَقِّ، مُفتَخِرينَ عليهم ومتعَزِّزينَ بالدُّنيا: أيُّ الفريقينِ خَيرٌ مَنزِلًا، وأفضَلُ مَسكنًا وعَيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مجلسًا ومجْمَعًا، وأعمَرُ وأكثَرُ غِشيانًا ووُرودًا؟ نحن؛ بما لنا من الاتِّساعِ، أم أنتم بما لكم من خُشونةِ العَيشِ ورَثاثةِ الحالِ؟! فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ ونحن أفضَلُ منكم في ذلك؟! كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: 53].

وقال سُبحانَه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿55﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55- 56].

87- ويُنظر ديوانه ص 127.

88- ينظر: الإكليل للسيوطي ص: 175، تفسير الرازي 559/21.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم: 74]

﴿**كم**﴾: خبرية تدل على الكثرة التي لا تُحصَى، وأن المقول بعدها وقع كثيرًا؛ بمعنى: كم أهلَكْنا قبل كفَّارِ قُرَيشٍ كثيرًا من كفَّارِ الأُمَمِ الماضية.

﴿**هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا**﴾: أي كانوا أحسَنَ منهم في أمتعتهم ومساكِنِهم، وأجمَلَ في مَنظَرِهم وصُوَرِهم، ومع ذلك لم يمنع ذلك من أن يحيق بهم عذابُ الله لكفرهم وطغيانهم، أهلَكَهم اللهُ بسَبَبِ كُفرِهم.. فلْيَخَفْ هؤلاء المشركونَ نِقمةَ اللهِ بالإهلاكِ كسُنَّةِ مَن قَبلَهم مِن الكُفَّارِ. كقوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: 43].

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: 75]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى دليلَ الكافرينَ الباطلَ الدَّالَّ على شِدَّةِ عِنادِهم وقُوَّةِ ضلالِهم، أخبَرَ هنا أنَّ مَن كان في الضَّلالةِ بأن رَضِيَها لنَفسِه، وسَعى فيها، فإنَّ اللهَ يَمُدُّه منها ويزيدُه فيها حُبًّا؛ عقوبةً له على اختيارِها على الهدى.

وأيضًا فإنَّ هذا جوابُ قَولِ الكافرينَ: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ لقَّنَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كَشفَ مُغالطتِهم أو شُبهتِهم، فأعلَمَهم بأنَّ ما هم فيه من نعمةِ الدُّنيا إنَّما هو إمهالٌ مِن اللهِ إيَّاهم، لأنَّ ملاذَ الكافِرِ استدراجٌ.. فمعيارُ التَّفرقةِ بين النِّعمةِ النَّاشئةِ عن رضا الله تعالى على عبدِه وبين النِّعمةِ التي هي استدراجٌ لِمن كفَرَ به: هو النَّظَرُ إلى حالِ من هو في نعمةٍ بين حالِ هُدًى وحالِ ضلالٍ.

وأيضًا لما بيَّنَ الله تعالى عاقبةَ أمْرِ الأُمَمِ المهلَكةِ معَ ما كان لهم مِنَ التَّمتُّعِ بفُنونِ الحُظوظِ العاجلةِ، أمَرَ الله سبحانه وتعالى رسولَهُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَ هؤلاءِ المفتخِرين بما لهم مِن الحُظوظِ، ببَيانِ مآلِ أمْرِ الفريقين.

﴿**قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا**﴾: هذا شرطٌ جوابه: ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾، أي: قُلْ يا محمَّدُ، لهؤلاء المشرِكينَ: مَن كان مِنَّا أو منكم، مُنغَمِسًا في الضَّلالِ، فلْيُمهِلْهُ اللهُ في ضلالِه، ويَزِدْه مِنَ النِّعَمِ والعُمُرِ، ليطولَ اغترارُه ويزدادَ ضلالُه.. فيكون ذلك أشَدَّ في عقوبتِه. وهذه مباهلة للمشركين الذين يزعمون أنهم على هُدًى فيما هم فيه، كما ذكر الله تعالى مباهلة اليهود في قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: 6]. أي ادعوا بالموت على المبطل منا أو منكم، إن كنتم تدعون أنكم على الحق، فإنه لا يضركم الدعاء، فنكلوا عن ذلك.

وكما ذكر تعالى المباهلة مع النصارى في سورة آل عمران حين صمموا على الكفر واستمروا على الطغيان والغلو في دعواهم أن عيسى ولد الله، وقد ذكر الله حججه وبراهينه على عبودية عيسى وأنه مخلوق كآدم، قال الله تعالى بعد ذلك: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: 5].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: 178]. أي ولا بد لهم من عذاب مهين يوم القيامة.

﴿**حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا**﴾: أي مَن كان في الضَّلالةِ فلْيَمدُدْ له الرَّحْمَٰنُ في ضلالتِه إلى أن يرى الضالُّونَ ما وعَدَ اللهُ أن يأتيَهم به: إمَّا بالعذابِ العاجِلِ يصيبهم في الدنيا كالقتل والأسر وإمَّا بقيامِ السَّاعةِ فيَصيرونَ إلى النَّار، عندها سيكشف عنهم غطاء الغشاوة ويرون الحقائق بأم أعينهم، فسيعلمون حينئذ مَن هو شر مكانًا ومستقرًا وأضعف قوة وجندًا وأعوانا.. أَهُمْ وجندهم الشياطين أم المؤمنون وجندهم الملائكة.. وسيتبيَّنُ لهم خِلافُ ما كانوا يظنُّونَ وبُطلانُ ما كانوا يدَّعونَ.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ۗ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 76]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى إمدادَ الضَّالِّ في ضلالتِه وارتباكَه في الافتخارِ بنِعَمِ الدُّنيا عَقَّبَ ذلك، بزيادةِ هُدًى للمُهتدي، وبذِكرِ الباقياتِ التي هي بدلٌ مِن تنعُّمِهم في الدُّنيا، وهو الذي يضمَحِلُّ ولا يَثبُتُ، وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ سبحانَه عن حالِ أهلِ الضَّلالةِ، أرادَ أنْ يُبَيِّنَ حالَ أهلِ الهدايةِ فقال:

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾: والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح؛ فكل من سلك طريقا في العلم والإيمان والعمل الصالح زاده الله منه وسهله عليه ويسره له.

ونستفيد من هذه الآية أن الهداية تزيد وتنقص، كما أن الإيمان يزيد وينقص.. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: 74]. وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2]. وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: 17].

ويدل عليه أيضا الواقع، فإن الإيمان قَوْلُ القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.. والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظمَ تفاوتٍ، وكما أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي، كذلك الهدايةُ تزيد بالعمل الصالح والطاعات. لهذا نقول في كل صلاة: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] نطلب الزيادة في الهداية؛ فالمصلون مهتدون أصلًا، ويقولون ذلك يطلبون الزيادة في الهداية. ومعنى سؤالهم الثبات على الهداية أي ثبتنا على هذه الهداية وزدنا منها، فالإنسان ما فاته من الهداية أضعاف ما هو عليه، لذلك يجب علينا طلب الزيادة منها.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [مريم: 77]

مناسبتُها لما قبلَها:

لَمَّا ذكر الله تعالى أنَّ الظَّالمينَ جَعَلوا أحوالَ الدُّنيا من المالِ والولَدِ وحُسنِ المقامِ ونحو ذلك علامةً لحُسنِ حالِ صاحِبِها، أخبَرَ الله تعالى هنا أنَّ الأمرَ ليس كما زعموا؛ بل العمَلُ الذي هو عنوانُ السَّعادةِ ومَنشورُ الفلاحِ هو العمَلُ بما يحِبُّه اللهُ ويرضاه.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾: أي: أعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ – التي لا زوالَ لثوابِها مِن أقوالٍ وأفعالٍ– ولا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، والتي كانت خالصةً لوجه الله من صلاة وزكاة وصوم وحج وعمرة وقراءة وتسبيح وتكبير وتحميد وتهليل وإحسان إلى المخلوقين، أعمال قلبية وبدنية.. فهذه الأعمال الصالحات أفضَلُ جزاءً عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه، وهي خيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً لصاحبِها في الآخرةِ، مِمَّا يفتَخِرُ به الكُفَّارُ على المؤمِنينَ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانية، كما قال تعالى: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: 46].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، والله أكبَرُ مِن الباقياتِ الصَّالحاتِ"[89].

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿73﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ فيه أنَّ الاستدلالَ على خيرِ الآخرةِ بخيرِ الدُّنيا مِن أفسَدِ الأدلَّةِ، وأنَّه مِن طُرُقِ الكُفَّارِ.

2- استحباب الجهر بالتلاوة أثناء تلاوة القرآن ليسمع الناس ما فيه من الهدى، وما يسمعه وما يفعله بعض الناس أو كثير منهم من تشغيل إذاعة القرآن شيء طيب لكن لا بد أن يكون في حال من عدم اللغو والحديث الذي يصرف الإنسان عن سماع هذه الآيات. فهنا دليل على التشريف والتعظيم لآيات الله.

3- ﴿آيَاتُنَا﴾ أضافها الله سبحانه وتعالى إلى نفسه بنون العظمة، فما أعظم آيات الله. وكيف لا وهي كلامه، ومن أخذها فإنه أعظم من غيره، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "خَيْرُكُمْ مَن تَعَلَّمَ القُرْآنَ وعَلَّمَهُ"[90] لأنه ارتبط بهذه العظمة.

4- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ فيها أن سنة الله ماضية في إهلاك الأمم الكافرة، وفيها استطراد الله تعالى للكفرة بالنعم التي تكون وَبَالًا عليهم

89- أخرجه ابن جرير في التفسير 34/18. صحَّحه الألباني بشواهده في سلسلة الأحاديث الصحيحة 3264.

90- الراوي: عثمان بن عفان – المحدث: البخاري – المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 5027 – خلاصة حكم المحدث: صحيح.

عند حلول النقم، وفيها أن من كان في الضلالة ورضيها لنفسه واستقر عليها وتفاخر بها وسعى فيها، فإن الله يمده منها، ويزيده فيها حبًا وتعلقًا عقوبةً له، فإذا كان الإنسان يتفاخر بما هو فيه من ضلالة فاعلم أن الله تعالى قد مدّ له في غيّه وضلاله.. فالله يمهل ولا يهمل.

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ فيه تنبيهٌ للمُسلِمينَ ألَّا يغتَرُّوا بإنعامِ اللهِ على الضُّلَّالِ.

6- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ﴿75﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿76﴾ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَمُدُّ للظالمينَ في ضلالِهم، ذكَرَ أنَّه يَزيدُ المهتدينَ هدايةً مِن فَضلِه عليهم ورحمتِه. والهدى يَشمَلُ العِلمَ النَّافِعَ والعمَلَ الصَّالِحَ فكُلُّ من سلك طريقًا في العلمِ والإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ زاده الله منه وسَهَّله عليه ويسَّرَه له ووهب له أمورًا أُخَرَ لا تدخُلُ تحت كَسبِه.

7- مِن الطرقِ التي تعينُ على حفظِ العلمِ وضبطِه: أن يهتديَ الإنسانُ بعلمِه. قال الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ فكُلَّما عَمِلَ الإنسانُ بعِلمِه زاده اللهُ حِفظًا وفَهمًا لعُمومِ الآيةِ، وقد يُيَسِّرُ الله لطالب العِلمِ عُلومًا أُخَرَ ينتَفِعُ بها وتكونُ مُوصِلةً له إلى الجنَّةِ، كما قيل: مَن عَمِل بما عَلِم أورثَه اللهُ عِلمَ ما لم يعلَمْ، وكما قيل: ثوابُ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بعدها.

8- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ حُجَّةٌ على المعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يزعمونَ مِن أنَّ أفعالَ العبادِ لا صنعَ لله فيها البتة، فإضافةُ أفعالِ العبادِ إليهم لا تدفعُ فعلَ الله بهم وإرادتَه فيهم.

9- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ حُجَّةٌ على المرجِئةِ في زيادةِ الإيمانِ، ففيه دَليلٌ على زيادةِ الإيمانِ ونَقصِه. ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: 31]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: 2].

10- إن القرآن هو حقائق، فهو يصحح المفاهيم الخاطئة التي في أذهاننا ويصفي الكدر الذي في قلوبنا ويكمل الخلق الذي نتعامل فيه، فمتعلقات الدنيا كثيرة تأخذنا

وتشدنا، فيأتي القرآن فيصفينا ويرقينا ويأخذنا إلى الملكوت الأعلى فيصحح لنا النظرة ويبين الحق من الباطل، والصحيح من الخطأ، ويهدي لما هو أقوم من الأخلاق ومن الأعمال، ويبين الأشياء التي نراها صوابًا وهي خطأ، فهذا هو كتاب الله يصحح المسار.. ولذلك نقرأ كتاب الله تلاوةً وتصحيحًا للمفاهيم وتقويمًا للأخلاقِ وزيادةً للإيمان، فهذه هي الغبطة.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: 77]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على صِحَّةِ البَعثِ، ثمَّ أورد شُبهةَ المنكِرينَ وأجاب عنها، أورد عنهم بعدها ما ذكَروه على سبيلِ الاستهزاءِ، طعنًا في القَولِ بالحَشرِ.

وأيضًا فهو تفريعٌ على قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ وما اتَّصلَ به من الاعتراضِ والتَّفريعاتِ.

والمناسبةُ: أنَّ قائلَ هذا الكلامِ كان في غُرورٍ مثْلِ الغُرورِ الَّذي كان فيه أصحابُه، وهو غُرورُ إحالةِ البعثِ.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه قال: "جئتُ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهميَّ أتقاضاه حقًّا لي عندَه فقال: لا أُعْطيك حتى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقلتُ: لا، حتى تموتَ ثمَّ تُبعَثَ. قال: وإنِّي لميتٌ ثمَّ مَبعوثٌ؟! قلتُ: نعم. قال: إنَّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكه! فنزلت هذه الآيةُ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾"[91]. أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا محمَّدُ- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ وقال: واللهِ ليعطيَنِّي اللهُ في الآخرةِ -على تقديرِ قيامِها- مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموت: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: 36] فهذه الآية نازلة في كل كافر زعم أنه على الحق أو أنكر البعث.

91- رواه البخاري 4732 واللفظ له، ومسلم 2795.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 78]

يقول الله تعالى بأسلوب استنكاري استفهامي عن هذا الكافر توبيخا له وتكذيبا: ما دليله وما حجته؟

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ أي: هل عَلِمَ هذا الكافِرُ -المتألِّي على اللهِ- عِلمَ الغَيبِ فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا؟ هل نظر في اللوح المحفوظ وكشفت عنه الحُجُبُ ورأى الآخرةَ وما فيها، ورأى أن له فيها مالًا وولدًا حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟ ولا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وتعالى..

﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: أم له عهدٌ عند اللهِ بأنَّه سيعطيه مالا وولدا؟ لا يمكن أن يعلم أنه سيرث ماله في الآخرة إلا بأمرين: إذا كان عنده علم الغيب، أو أنَّ له عند الله عهدًا.. فإذا انتفى هذان الأمران علم بذلك بطلان الدعوى.

﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: 79]

﴿كَلَّا﴾: هي كلمة زجر ووعيد ونفي وردع لما قبلها، وتأكيدٍ لما بعدها.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: كما قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18] أي: ستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمْرِنا ما يقولُ هذا الكافِرُ المفتري على اللهِ أنَّه سيُعطيه في الآخرةِ مالًا وولدًا، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه، كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ [يونس: 21]. وقال سُبحانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: 80]. وقال عزَّ وجلّ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿9﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿10﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿11﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 9-12].

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾: والمد في الآية من المدد أي الزيادة، يمد له الله من العذاب مدًّا، أي في الدار الآخرة، نزيده من أنواع العقوبات والعذاب، سندخله جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ثم هو دائما في زيادة، يزيده من العذاب دائما كما ازداد من الغيّ الضلالَ على قوله ذلك وكفره بالله في الدنيا.. كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿69﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 69-70].

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: 80]

﴿**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ**﴾: أي: ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بمَوتِه عن جميعِ ذلك، فيصيرُ ذلك إلينا دونه، فنكون كالوارث له.

﴿**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾: أي: ويأتينا يومَ القيامةِ وَحدَه لا مالَ معه ولا ولَد.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: 40]. وقال ﷺ: "يتبعُ الميّتَ ثلاثٌ، فيرجِعُ اثنانِ ويبقَى واحِدٌ: يتبعُه أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجعُ أهلُه ومالُه ويبقى عملُهُ"[92].

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: 81]

أي: واتخذَ المشركونَ أوثانًا يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ مِن أجلِ أن ينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم مِن عذابِ اللهِ وتُقرِّبَهم إليه وتنصُرَهم وتشفَعَ لهم. يطلبون العزة من غير مالكها؛ فالآلهة التي كانوا يعبدونها لا تملك لهم شيئا. قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: 10]. أي لا يملك العزة إلا الله، فهو وحده العزيز، ووحده يعز من يشاء ويذل من يشاء.. كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18]. وقال سُبحانه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: 74]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3].

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: 82]

﴿**كَلَّا**﴾: كلمة زجر ونفي، أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا مِن أنَّ آلهتَهم تكونُ لهم عزًّا؛ فهي لا تستطيعُ أن تمنَعَهم من العذابِ أو تنصُرَهم أو تشفَعَ لهم أو تقرِّبَهم إلى الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾

92- الراوي: أنس بن مالك. المحدث: أبو نعيم. المصدر: حلية الأولياء. الصفحة أو الرقم: 9/408. خلاصة حكم المحدث: ثابت صحيح. التخريج: أخرجه البخاري 6514، ومسلم 2960، والترمذي 2379 واللفظ له، والنسائي 1937، وأحمد 12080.

[الأنبياء: 43]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿5﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: 5-6]. ولكن ستَكفُرُ تلك المعبوداتُ يومَ القيامةِ بعبادةِ المشركينَ لها وتتبرأُ منهم وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا فيهم فتكونُ أعوانًا عليهم في خصومتِهم وتكذيبِهم والتبرؤِ منهم ويَؤولُ بهم ذلك إلى الذلِّ والهوانِ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿86﴾ وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: 86-87]. وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿28﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾ [يونس: 28-29]. وقال الله عز وجلَّ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿17﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿18﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ [الفرقان: 17-19].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 82]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ مع الأصنامِ في الآخرة، ذكَرَ بَعدَه حالَهم مع الشياطينِ في الدُّنيا.. فإنَّهم يتولَّونَهم وينقادونَ لهم فقال:

﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ أي: ألم تَرَ يا محمَّدُ، أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ باللهِ فتهيِّجُهم بالإغواءِ والتَّزيينِ إلى الكُفرِ والمعاصي وتُزعِجُهم إليها إزعاجًا؟ كما قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: 25]. وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿36﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: 36-37].

﴿**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾: الأزُّ: هو الهزُّ الشديد بعنف.. والهز هو تحريك الشيء بشدة، أي تهزهم هزًّا، تُزعجهم وتُهيجهم، ومثْلُه النزغ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ

الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ﴾ [الأعراف: 200]. والأَزّ أو النَّزْغ يكون بالوسوسة والتسويل، ليهيجه على المعصية والشر، كما يأتي هذا المعنى أيضًا بلفظ الطائف كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 201]. وعن ابن عباس: تغويهم إغواءً، وتدفعهم عن الطاعة إلى المعصية.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 84]

أي: فلا تَستعجِلْ -يا محمَّدُ- بطَلَبِ وُقوعِ الهلاكِ والعذابِ على أولئك الكافرينَ.. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿34﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: 34-35].

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾: أي: إنَّما نَعُدُّ الأعوامَ والشُّهورَ والأيَّامَ فنُمهِلُهم ونؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصرَ بغيرِ اللهِ إلَّا خُذِلَ.. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿81﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾.

2- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ هذا مِن عُقوبةِ الكافرينَ أنَّهم لَمَّا لم يعتصِموا باللهِ ولم يتمَسَّكوا بحبلِ اللهِ، بل أشركوا به ووالَوا أعداءَه مِن الشياطينِ، سَلَّطهم عليهم وقيَّضَهم لهم فجُعِلَت الشياطينُ تؤزُّهم إلى المعاصي أزًّا وتُزعِجُهم إلى الكُفرِ إزعاجًا، فيُوسوِسونَ لهم ويُوحون إليهم ويُزَيِّنونَ لهم الباطِلَ ويقبِّحونَ لهم الحَقَّ، فيدخُلُ حُبُّ الباطِلِ في قلوبِهم ويُشَرَّبُها، فيسعَى فيه سعيَ المحِقِّ في حَقِّه، فينصُرُه بجُهدِه ويُحارِبُ عنه، ويجاهدُ أهلَ الحَقِّ في سبيلِ الباطِلِ. وهذا كلُّه جزاءً له على تولِّيه مَن ولِيَه وتولِّيه لعدُوِّه.. فجُعِلَ له عليه سلطانٌ. وإلَّا فلو آمَن باللهِ وتوكَّلَ عليه لم يكُنْ له عليه سلطانٌ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ

سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿99﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: 99-100].

3- في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿77﴾ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ دلالةٌ على أن المخْبِرَ عن خَبَرٍ يحصلُ في المستقبلِ لا يكون إلَّا بطريقينِ: إمَّا اطِّلاعُه على الغيبِ -وهو العلمُ بما سيكونُ- وإمَّا أنْ يكونَ قد اتَّخَذَ عندَ الرَّحْمَٰنِ عهدًا -واللهُ مُوْفٍ بعهدِه- فالأولُ عِلْمٌ بالخبرِ، والثاني عِلْمٌ بالأمرِ، الأولُ عِلْمٌ بالكلماتِ الكونيةِ والثاني عِلْمٌ بالكلماتِ الدينيةِ.

4- قَوْلُه تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿78﴾ كَلَّا﴾: في هذه الآيةِ الكَريمةِ رَدٌّ على العاصِ بنِ وائلٍ السَّهميّ قَولَه: إنَّه يؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا، بالدَّليلِ المعروفِ عندَ الأصوليّينَ "بالسَّبرِ والتَّقسيمِ"، وضابِطُ هذا الدَّليلِ العظيمِ أنَّه مُتركِّبٌ مِن أصلَينِ:

- أحدُهما: حَصرُ أوصافِ المحَلِّ بطَريقٍ مِن طُرُقِ الحَصرِ وهو المعبَّرُ عنه بالتَّقسيمِ عند الأصوليّينَ.
- والثَّاني: هو اختيارُ تلك الأوصافِ المحصورةِ وإبطالُ ما هو باطِلٌ منها، وإبقاءُ ما هو صحيحٌ منها.

وهذا الأخيرُ هو المعبَّرُ عنه عندَ الأصوليّينَ ﴿بالسَّبرِ﴾، والتَّقسيمُ الصَّحيحُ في هذه الآيةِ الكريمةِ يحصُرُ أوصافَ المحَلِّ في ثلاثةٍ. والسَّبرُ الصَّحيحُ يُبطِلُ اثنينِ منها ويصَحِّحُ الثالِثَ، وبذلك يَتِمُّ إلقامُ العاصِ بنِ وائلٍ الحَجَرَ في دَعواه أنَّه يُؤتى يومَ القيامةِ مالًا وولدًا. أمَّا وَجهُ حَصرِ أوصافِ المحَلِّ في ثلاثةٍ، فهو أن نَقولُ: قولُك إنَّك تُؤتَى مالًا وولدًا يومَ القيامةِ لا يخلو مُستَنَدُك فيه مِن واحدٍ مِن ثلاثةِ أشياءَ:

- الأوَّلُ: أن تكونَ اطَّلَعتَ على الغَيبِ وعَلِمتَ أنَّ إيتاءَك المالَ والولَدَ يومَ القيامةِ ممَّا كَتَبه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ.
- والثَّاني: أن يكونَ اللهُ أعطاك عَهدًا بذلك فإنَّه إن أعطاك عَهدًا لن يُخلِفَه.
- الثالثُ: أن تكونَ قُلتَ ذلك افتراءً على اللهِ مِن غَيرِ عَهدٍ ولا اطِّلاعِ غيبٍ.

وقد ذكَر اللهُ تعالى القِسمَينِ الأوَّلَينِ في قَولِه: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ مُبطِلًا لهما بأداةِ الإنكارِ، ولا شَكَّ أنَّ كِلا هذينِ القِسمَينِ باطِلٌ لأنَّ العاصِ المذكورَ لم يطَّلِعِ الغَيبَ ولم يتَّخِذْ عند الرَّحْمَٰنِ عَهدًا؛ فتعَيَّنَ القِسمُ الثَّالِثُ وهو

أنَّه قال ذلك افتراءً على اللهِ. وقد أشار الله تعالى إلى هذا القِسمِ الذي هو الواقِعُ بحَرفِ الزَّجرِ والرَّدعِ وهو قَولُه: "كَلَّا"، أي: ليس الأمرُ كذلك لم يطَّلِعِ الغَيبَ ولم يتَّخِذْ عندَ الرَّحْمٰن عَهدًا؛ بل قال ذلك افتراءً على اللهِ لأنَّه لو كان أحَدُهما حاصِلًا لم يَستوجِبِ الرَّدعَ عن مقالتِه كما ترى.

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ فيه سؤالٌ: لم قال الله تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ بسينِ التَّسويفِ؟ قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18].

الجوابُ فيه مِن أوجهٍ:

- الأول: سيظهرُ له ويعلَمُ أنَّا كتَبْنا.
- الثاني: أنَّ المتوعِّدَ يقولُ للجاني: سوف أنتَقِمُ منك وإن كان الانتقام في الحال، ويكونُ غَرَضُه من هذا الكلام محضَ التهديدِ فهكذا هنا.
- الثالث: سَننتقِمُ منه انتقامَ مَن كتَبَ جريمةَ العدُوِّ وحفِظَها عليه.. أي أنَّه لا يُخِلُّ بالانتصارِ وإنْ تطاولَ به الزَّمانُ واستأخَرَ.
- الرابع: لتحقيقِ أنَّ ذلك واقعٌ لا مَحالةَ؛ كقولِه تعالى: ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: 98].

6- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾. الاتخاذُ: جعْلُ الشَّخصِ الشَّيءَ لنَفسِه، فجُعِلَ الاتخاذُ: هنا الاعتقادَ والعبادةَ. وفي فِعلِ الاتخاذِ إيماءٌ إلى أنَّ عقيدتَهم في تلك الآلهةِ شَيءٌ مُصطلحٌ عليه، مختلَقٌ لم يأمر اللهُ به. كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: 95].

7- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الحَقَّ يقتضي أن يتَّخِذوا اللهَ إلهًا؛ إذ بذلك تقرَّر الاعتِقادُ الحَقُّ مِن مبدأ الخليقةِ، وعليه دَلَّت العُقولُ الرَّاجِحةُ.

8- في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إرسالِ الشَّياطينِ وهو دليلٌ على أنَّ الشَّيطانَ مخلوقٌ، نِقمةً لِمَن حَقَّتْ عليه كلمةُ ربِّه.. يُزعِجُه إلى معاصيه وإلى الكُفرِ بإرسالِ ربِّه عليه.

9- الإرسالُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ إرسالٌ كونيٌّ قَدَرِيٌّ كإرسالِ الرِّياحِ وليس بإرسالٍ دينيٍّ شرعيٍّ فهو إرسالُ تسليطٍ،

بخلافِ قولِه في المؤمنين: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42]. فهذا السلطانُ مَنْفِيٌّ عن المؤمنينَ، لكنه جندٌ مُرسَلٌ على الكافرين[93].

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿85﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿86﴾ لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿87﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿88﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿89﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿90﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿91﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿92﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿93﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿94﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿95﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿96﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴿97﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: 85–98]

هذه الآيات التي يختم بها الله عز وجل هذه السورة، هي حال المتقين والمجرمين يوم يَفِدُونَ وَيُرَدُّون إلى الله تعالى.. وكأن السورة تختم بالجزاء بعد أن افتتحت بالعناية والمنح من الله تعالى لأوليائه. فختمت بالنعم لأوليائه المتقين، وبالعذاب للكافرين المجرمين. وهذا من عظمة القرآن أنه يأتي بالأحكام والمواعظ، ويختم بالوعد والوعيد كما في سورة الزمر التي ختمها الله بالوعد والوعيد.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ [مريم: 85]

أي: اذكُرْ –يا محمَّدُ– يومَ القيامةِ حين نجمعُ الذين اتَّقَوا اللهَ بامتثالِ ما أمرَ واجتنابِ ما نهى عنه، فنقودُهم إلى الرَّحْمَٰنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ فيَقدَمونَ إلى جنَّتِه ومحَلِّ ضِيافتِه ودارِ كرامتِه ورضوانِه.. كما قال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: 73]. "والوَفْدُ" جمع "وافد"، كمثل "رَكْبٍ" جمع "راكب".. ومنه الوفود، والوفد هم القادمون رُكبانًا.. وركوبهم على نجائب من نور (وهي من مراكب الدار الآخرة) وهم قادمون على خيرِ موفودٍ إليهِ؛ إلى دار كرامته ورضوانه. والتعبير "بالوفد" يدل على الإكرام، وأن مآلهم

93- يُنظر: تفسير ابن عاشور 162/16، تفسير الزمخشري 40/3، تفسير البيضاوي 19/4، تفسير أبي حيان 295/7، تفسير ابن كثير 261/5، تفسير السعدي ص 500، تفسير أبي السعود 279/5.

إلى الرَّحْمَٰنِ، فسينالون في ذلك الموقف أعظم الرحمات من الله تعالى وهي رحمته برضاه عنهم.. وإدخالهم جنته ورؤية وجهه الكريم.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: 86]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كرامةِ أوليائِه، أتبَعَه ما يدُلُّ على إهانةِ أعدائِه، فقال: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾. أي: ونسوقُ الكُفَّارَ والعُصاةَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا مُشاةً، إذلالًا لهم.. الورد مقابل الوفد، الوفد الراكب، أما الورد الماشي. وقيل الورد هم العطشى يَرِدُونَ الماءَ عطاشًا لأنه لا يَرِدُ الماءَ إلا العَطشانُ، أي سيأتون يوم القيامة مشاةً وعطاش، والسائق يكون من الخلف ينهرهم ويزجرهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إلى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: 13] ولم يقل مثلًا "نقودُ" لأن القائد يكون من الأمام، وربما غافله أحدهم وشرد منه. فهذا أبشع ما يكون من الحالات؛ سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة؛ وهو جهنم، مع ظمئهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجابُ لهم. ويستشفعون فلا يُشفعُ لهم.

وقيل إنه يوم القيامة عندما يحشرهم الله جميعا بعد بعثهم من القبور يقفون والسماء فوقهم دانيةٌ، والزحام شديدٌ. وفي هذه الساعة يكرم المؤمنين في هذا الموقف في أرض المحشر، فيطعمهم ويسقيهم. ورد عن أبي سعيد الخدري قوله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "تَكُونُ الأرْضُ يَومَ القِيامَةِ خُبْزَةً واحِدَةً، يَكْفَؤُها الجَبَّارُ بيَدِهِ، كما يَكْفَأُ أحَدُكُمْ خُبْزَتَهُ في السَّفَرِ، نُزُلًا لأَهْلِ الجَنَّةِ"[94]. فالمؤمنون يساقون إلى الجنة وقد شبعوا وسُقُوا، أما المجرمون فيساقون وِردًا، أي يكونون ماشين وعطاش، يريدون السقيا فلا يلقون إلا العذابَ الأليمَ.

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: تتبَعُ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقَى مَن كان يعبُدُ غيرَ اللهِ مِن الأصنامِ والأنصابِ، إلَّا يتساقطونَ في النَّارِ حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبَّراتُ أهلِ الكِتابِ، فيُدعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: مَن كنتم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عزيرًا ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم، ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تَبغونَ؟ فقالوا:

94- الراوي: أبو سعيد الخدري. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 2792. خلاصة حكم المحدث: صحيح. التخريج: أخرجه البخاري 6520، ومسلم 2792.

عَطِشْنا رَبَّنا فاسْقِنا. فيُشارُ: ألا تَرِدونَ؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ يَحطِمُ بَعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ. ثم يُدعَى النَّصارى فيُقالُ لهم: مَن كنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ المسيحَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم؛ ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ. فيُقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فكذلك مِثل الأوَّلِ"[95].

﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: 87]

أي: ليس للكافرينَ مِن الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، فلا يَشفَعونَ لأحَدٍ ولا يستَحِقُّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمِنًا باللهِ موحِّدًا ومطيعًا له فإنَّه يَشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له، كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: 18]. وقال سُبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: 48]. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: 86]. وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: 109].

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: هذا استثناء منقطع، بمعنى: "لكن من اتخذ عند الرَّحْمَٰنِ عهدا" والعهد هو الذي يُحِقُّ للإنسان الشفاعةَ يوم القيامة، وهو شهادةُ أن لا إله إلا الله، والقيامُ بحقها. وسمى اللهُ الإيمانَ به، واتباعَ رُسُلِهِ "عهدًا" لأنه عهدٌ في كُتُبِهِ وعلى ألسنةِ رُسُلِهِ بالجزاءِ الجميلِ لمن اتبعهم. والعهدُ الذي يأخذه العبدُ على اللهِ جل وعلا بالشفاعةِ: أنْ يُقدِّمَ من الحسناتِ ما يسعُ تكاليفَهُ هوَ، ثم يزيدَ عليها ما يؤهلُه لأن يشفع للآخرين. والخير لا يضيع عند الله؛ فما زاد عن التكليفِ فهو في رصيد العبد في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً، ولا يهمل مثقالَ ذرةٍ. وفي حديث للرسول ﷺ في الشفاعة يقول: "فَيَحُدُّ لي ربي حَدًّا، فأخرجهم من النار ثم أعود فأَشْفَعُ فَيُشَفِّعَني رَبِّي، فيحُدُّ لي حدًّا فَأُخْرِجُهُمْ منَ النار". وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "يا رَسولَ اللَّهِ مَن أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ ظَنَنْتُ يا أبَا هُرَيْرَةَ أنْ لا يَسْأَلُني عن هذا الحَديثِ أحَدٌ أوَّلُ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِن حِرْصِكَ علَى الحَديثِ. أسْعَدُ النَّاسِ بشَفَاعَتي يَومَ القِيَامَةِ مَن قالَ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِن قَلْبِهِ، أوْ نَفْسِهِ"[96].

95- رواه البخاري 4581 واللفظ له، ومسلم 183.

96- الراوي: أبو هريرة. المحدث: البخاري. المصدر: صحيح البخاري. الصفحة أو الرقم: 99. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

ومن الوسائل التي تنال بها شفاعة النبي ﷺ أن نصلي عليه بعد كل أذان، وأن نسأل الله تعالى له الوسيلة، قالﷺ: "إذا سَمِعْتُمُ المؤَذِّنَ، فَقُولوا مِثْلَ ما يقولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فإنَّه مَن صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللَّهُ عليه بها عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فإنَّها مَنْزِلَةٌ في الجَنَّةِ، لا تَنْبَغِي إلَّا لِعَبْدٍ مِن عِبادِ اللهِ، وأَرْجُو أنْ أكُونَ أنا هُوَ، فمَن سَأَلَ لي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ له الشَّفاعَةُ"[97].

فمن اتخذ عنده عهدًا فآمن به وبرسله واتَّبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله وتحصل له الشفاعة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: 28].

وبعد أن بيّن الجزاء للمؤمنين المتقين وفد الرَّحْمٰنِ المكرمين، ووعيده للمجرمين، انتقل إلى ختام السورة، وهو المقصود من أولها، وهو تنزيهُ اللهِ عزَّ وجل عن الولد:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: 88]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قَرَّر الله سبحانه وتعالى في هذه السورةِ الشَّريفةِ عُبوديَّةَ عيسى عليه السَّلامُ، وذَكَرَ خَلْقَه مِن مريمَ بلا أبٍ، شرَع في مقامِ الإنكارِ على من زعمَ أنَّ له ولدًا، تعالى وتقَدَّسَ وتنَزَّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.. وأيضًا لما ردَّ الله تعالى على عبدةِ الأوثانِ، عاد إلى الردِّ على مَن أثبتَ له ولدًا، فأولُ السورةِ بيانُ عظيمِ منةِ اللهِ تعالى على عبادِهِ بالمنحِ، ومنها الولد، وآخرُها تشنيعٌ على الذين قالوا اتخذ الرَّحْمٰنُ ولدا.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾: أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحْمٰنُ ولدًا له!

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم: 89]

أي لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللهِ أنَّ له ولدًا، والأَدُّ عند العرب أو الإدُّ: هو الأمر المتناهي في العِظَمِ، المتناهي في النكْرِ والفظاعةِ، وهو الأمر المسْتَبْشَعُ، فيسمونه "إدًّا".. كما قال الله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40]. وقال سُبحانه: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

97- الراوي: عبد الله بن عمرو. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 384. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

﴿4﴾ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: 4-5].

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿90﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿91﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: 90-92]

أي: تَكَادُ السَّمَاوَاتُ على عظمتها وصلابتها وقوتها وشدتها وإحكامها ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ أي: يتشققن عند سماعها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ، لِنِسْبَتِهم له سبحانه وتعالى الولد.. إعظامًا للرَّبِّ وإجلالًا له، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

﴿**وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ**﴾: أي: تتصدع وتنفطر.

﴿**وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا**﴾: أي: تَندَكُّ الجبالُ وتسقطُ سقوطًا شديدًا، يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم غضبًا لله وإعظامًا وإجلالًا له، لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده عز وجل، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له ولا نظير له، ولا ولد ولا صاحبة، ولا كفؤًا له؛ بل هو الأحد الصمد، وفي كل شيءٍ له آية تدل على أنه الواحد.

﴿**وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾ أي: وما يصِحُّ ولا يليقُ بالرَّحْمَٰنِ أن يتَّخِذَ ولَدًا، فلا مِثلَ له مِن خَلقِه، ولا احتياجَ له إليهم.. فجميعُ الخلائقِ عَبيدٌ له وهو الغنيُّ الحميد، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة: 116]. وقال سُبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ [مريم: 35]. وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿1﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿2﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿3﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: 1-4]. وعنِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنه قال: "قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدَمَ ولم يكنْ له ذلك، وشتَمَني ولم يكنْ له ذلك. فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولدٌ، فسُبحاني أن أتخِذَ صاحِبةً أو ولدًا"[98].

98- رواه البخاري 4482.

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93]

أي: ما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّماواتِ ومَن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحْمَٰن يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا مقِرًّا له بعبوديَّته.. فكيف يكونُ أحدٌ مِن خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُهُ وعَبيدُهُ، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم، فليس لهم من المِلكِ والتصَرُّفِ شيءٌ.

﴿لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 94]

أي: لقد أحصى الرَّحْمَٰنُ عَدَدَ خَلْقِه كُلِّهم؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، وصَغيرِهم وكبيرِهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم.

﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: 95]

أي: وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللهِ يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وَحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ.. ليس معه إلا عَمَلُه فيقضي اللهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه ويوَفِّيه حسابَه، فكيف يُتَصَوَّرُ في بالٍ أو يَقَعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه لَهُ ولدًا أو مَعَهُ شريكًا؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: 94].

ما الفرق بين الإحصاء والعدّ؟ وما هي اللمسة البيانية في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: 94]؟

العدُّ: هو ضمُّ الأعداد بعضها إلى بعض: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. أما الإحصاء: فيكون مع العدّ؛ الحفظ والإحاطة. العد: ليس بالضرورة حفظ ما يعده في مكان واحد. أما الإحصاء، فلا بد أن يكون فيه حفظ لما يعدّه.. فهو عدٌّ مع حفظ. أما العدّ فهو مجرد ضم للأعداد دون حفظ. ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي أن الله تعالى عرف عددهم وحفظهم[99]. لا يوجد ترادف في القرآن الكريم.

99- دكتور/ فاضل السامرائي.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾ رَدٌّ على مَن يقولُ: إنَّ اللهَ - جلَّ جلالُه- بنفسِه في كلِّ مكانٍ. ولو كان -سبحانه وتعالى- كذلك، ما كان لِحَشْرِهم إليه معنًى؛ إذ هو معهم حيث يكونونَ.

2- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ بإهانةٍ واستخفافٍ، كأنَّهم أنعَامٌ عطاشٌ تُساقُ إلى الماءِ.

3- نسبةُ الولدِ إلى الله مَسَبَّةٌ له تبارَك وتعالَى. لذا أخبَرَ الله تعالى أنَّه ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ وما ذاك إلا لتضَمُّنِه شَتْمَ الربِّ تبارك وتعالى والتنَقُّصَ به ونسبةَ ما يمنعُ كمالَ رُبُوبيَّتِه وقُدرتِه وغناه إليه.

4- العبوديَّةُ نوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ.

- فالعبوديَّةُ العامَّةُ: عبوديَّةُ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ كُلِّهم لله؛ بَرِّهم وفاجِرِهم، مؤمِنِهم وكافِرِهم، فهذه عبوديَّةُ القَهرِ والمِلك. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿88﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿89﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿90﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿91﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿92﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فهذا يدخُلُ فيه مؤمِنُهُمْ وكافِرُهُمْ. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: 17]. فسَمَّاهم "عِبَادَهُ" مع ضلالِهم.. لكنَّها تسميةٌ مُقَيَّدةٌ بالإشارةِ. وأمَّا المطلقةُ فلم تأتِ إلَّا لأهلِ النَّوعِ الثاني.

- وأمَّا النوعِ الثاني: فعبوديَّةُ الطَّاعةِ والمحبَّةِ واتِّباعِ الأوامِرِ. قال الله تعالى: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68]. وقال عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿17﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: 17-18]. وقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63]. وقال تعالى عن إبليسَ: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿39﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: 39-40]. فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42].

5- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ لَمَّا كان مِن العبيدِ مَن يعصَى على سيدِه عبَّر بالإتيانِ في قولِه: ﴿آتِي الرَّحْمَٰنِ﴾، أي: منقادٌ

له طوعًا أو كرهًا في كلِّ حالةٍ وكلِّ وقتٍ، عَبْدًا مُسخَّرًا مقهورًا خائفًا راجيًا، فكيف يكونُ العبدُ ابنًا أو شريكًا؟ فدلَّت الآيةُ على التنافي بينَ العبوديةِ والولِدِيَّةِ، فلا يجتمعانِ في حالٍ واحدةٍ.. فهي مِن الدَّليلِ على أنَّ مَن مَلَكَ ابنَه عَتَق عليه، لأنَّ الولدَ لا يكونُ عبدًا لأبيه. فالولادةُ والمِلكُ لا يجتَمِعانِ[100].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما فُصِّلتْ قبائحُ أحوالِ الكفرةِ، عُقِّبَ ذلك بذِكْرِ محاسنِ أحوالِ المؤمنين. وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا رَدَّ على أصنافِ الكَفَرةِ وبالَغ في شَرحِ أحوالِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ختَمَ السُّورةَ بذِكرِ أحوالِ المؤمنينَ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ أي: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه وبما جاؤوا به مِن عندِ اللهِ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ يُحبُّهم اللهُ، ويجعلُ لهم في الدُّنيا محبَّةً في قلوبِ عِبادِه. وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إنَّ اللَّهَ إذا أحَبَّ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فقالَ: إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فأحِبَّهُ، قالَ: فيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في السَّماءِ فيَقولُ: إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلانًا فأحِبُّوهُ، فيُحِبُّهُ أهْلُ السَّماءِ، قالَ ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأرْضِ، وإذا أبْغَضَ عَبْدًا دَعا جِبْرِيلَ فيَقولُ: إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضْهُ، قالَ فيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنادِي في أهْلِ السَّماءِ إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا فأبْغِضُوهُ، قالَ: فيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضاءُ في الأرْضِ"[101].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا احتَوَت السُّورةُ على عِبَرٍ وقَصَصٍ وبِشاراتٍ ونُذُرٍ، جاء هنا في التَّنويهِ بالقُرآنِ وبيانِ بعضِ ما في تنزيلِه مِن الحِكَمِ.

100- يُنظر: تفسير ابن جرير 640/15، 641، تفسير القرطبي 158/11، تفسير ابن كثير 267/5، نظم الدرر للبقاعي 248/12، تفسير السعدي ص: 501، تفسير ابن عاشور168/16، 169.

101- الراوي: أبو هريرة. المحدث: مسلم. المصدر: صحيح مسلم. الصفحة أو الرقم: 2637. خلاصة حكم المحدث: صحيح.

وأيضًا لَمَّا كان إنزالُ هذا القَولِ الثَّقيلِ ثمَّ تَيسيرُه حِفظًا وعَمَلًا، سَببًا لِما جُعِل لأهلِ الطَّاعةِ في الدُّنيا مِنَ الوُدِّ بما لهم مِنَ التحَلِّي والتزَيُّنِ بالصَّالحاتِ والتخَلِّي والتصَوُّنِ مِنَ السيِّئاتِ، الدَّالِّ على ما لهم عندَ مَولاهم مِن عَظيمِ العِزِّ والقُربِ، قال:

﴿**فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ**﴾ الضمير في "يسرناه" عائد إلى القرآن؛ فإنَّما يسَّرْنا القرآنَ بلُغتِك العربيَّةِ -يا محمَّدُ- وسهَّلْنا قراءةَ ألفاظِه وفَهْمَ معانيه لتبشِّرَ بالقرآنِ الذين يمتثِلونَ الأوامِرَ ويجتَنِبونَ النَّواهيَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ والعزَّ في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: 58]. وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 9]. وقال ابن عباس رضي الله عنه: "لولا أن الله يسره ما استطاع الإنس أن ينطق بحرف من كلام الله، ولكن الله أنعم علينا بتيسيره".

﴿**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾: الإنذار هو الأعلام بالتخويف أي: وتُنذِرَ بالقُرآنِ -يا محمَّدُ- قَومَك الشَّديدي المخاصَمةِ والمجادلةِ بالباطِلِ لرَدِّ الحَقِّ فتُحَذِّرَهم من وُقوعِ الهَلاكِ والعذابِ عليهم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: 98]

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لما ذُكِّروا بالعنادِ والمكابَرةِ، أَتْبَعَ الله عز وجل ذلك بالتَّعريضِ بتَهديدِهم بتَذكيرِهم بالأُمَمِ الَّتي استأصَلَها اللهُ لجَبروتِها وتعَنُّتِها، لتكونَ لهم قياسًا ومثَلًا، فقال تعالى:

﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ**﴾: يسأل الله تعالى: كم أهلكنا قبلهم من قرن أي من أمة، من قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وفرعون وغيرهم من المعاندين المكذبين، لما استمروا في طغيانهم وكفروا بآيات الله وكذبوا رسله فأهلكهم الله.. فليس لهم من باقية، كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: 36].

﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا**﴾: أي: فهل ترى يا محمَّدُ، أو تشعُرُ بشَخصٍ واحدٍ مِن تلك الأُمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها؟ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: 8] أو هل تَسمَعُ لهم صَوتًا خَفيًّا؟ كلا، فقد بادوا وهَلَكوا وبَقِيَت أخبارُهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، ولم يبقَ منهم عينٌ ولا أثَرٌ، قد خلَت منهم دورُهم وانتقلوا إلى دارٍ لا ينفَعُهم فيها إلَّا الإيمانُ والعَمَلُ الصالحُ.. فكذلك هؤلاء المشرِكونَ يا محمَّدُ، صائرونَ إلى ما

صار إليه أولئك، إن لم يبادِروا بالتَّوبةِ قَبلَ وُقوعِ الهلاكِ. ومفهوم المخالفة أن الإنسان ينظر إلى من مات على التوحيد بصدق كيف حاله، فانتهت حياتهم على التوحيد والإيمان فأصبحوا قدوة فاعتبروا يا أولي الأبصار.

الهدايات والفوائد التربوية:

1- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ هذا مِن نِعَمِه تعالى على عبادِه الذين جمعوا بينَ الإيمانِ والعَمَلِ الصالح، أنْ وَعَدَهم أنَّه يجعَلُ لهم وُدًّا أي: محبَّةً ووِدادًا في قلوبِ أوليائِه، وأهلِ السَّماءِ والأرضِ. وإذا كان لهم في القلوبِ وُدٌّ تيسَّرَ لهم كثيرٌ مِن أمورهم، وحصَل لهم مِن الخيراتِ والدَّعواتِ والإرشادِ والقَبولِ والإمامةِ ما حصل، وإنَّما جعل اللهُ لهم وُدًّا لأنَّهم وَدُّوه فودَّدَهم إلى أوليائِه وأحبابِه.

2- ختَم الله تعالى السورةَ بموعظةٍ بليغةٍ فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ لأنَّهم إذا تأمَّلوا وعَلِموا أنَّه لا بدَّ مِن زوالِ الدُّنيا والانتهاءِ إلى الموتِ خافوا ذلك، وخافوا أيضًا سُوءَ العاقبةِ في الآخرةِ، فكانوا فيها إلى الحَذَرِ مِن المعاصي أقرَبَ.. ثمَّ أكَّدَ الله سبحانه وتعالى ذلك فقال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إذا لم يُحِسَّ منهم أحدًا برؤيةٍ أو إدراكٍ أو وجدانٍ ولم يسمع لهم ركزًا –وهو الصَّوتُ الخَفِيُّ– دَلَّ ذلك على انقراضِهم وفنائِهم بالكُلِّيَّةِ.

3- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنه يبشِّرُ بالقرآنِ المتَّقينَ، ذكَرَ في مقابلتِه مَن هو في مخالفةِ التَّقوى أبلغُ، وأبلَغُهُم الألَدُّ الذي يتمَسَّكُ بالباطِلِ ويجادِلُ فيه ويتشَدَّدُ.

تناسب فاتحة سورة مريم مع خاتمتها:

1- ذكر في أولها رحمته بعبدٍ من عباده وهو زكريا ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 2] وفي الآخر ذكر رحمته بعباده المؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: 96] فذكر رحمته بعبد من عباده في الأول وذكر رحمته بعباده المؤمنين على الإطلاق في الآخر.

2- وبشَّر في أولها عبدًا من عباده وهو زكريا ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7] وبشر في الآخر عباده المتقين ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97].

3- رحم الله عز وجل عبدًا في الأول وبشره، ورحم عباده المتقين في الآخر وبشرهم.. بدأ بالفرد وانتهى بالجماعة.. رحمة وتبشير في الأول ورحمة وتبشير في الآخر. ورحمته ليست خاصةً بعبد من عباده، والتبشير كذلك ليس خاصًا، فسورة مريم فيها رحمةٌ وتبشيرٌ تبدأ بعبدٍ من عباده وتنتهي بالناس بعموم المتقين.

تناسب خواتيم سورة مريم مع فواتح سورة طه:

1- قال في خواتيم سورة مريم: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97] هذا القرآن وقال في بداية طه ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: 2] أي أنزلنا القرآن لتبشر به المتقين لا لتشقى، وكأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يحمِّل نفسه الكثير.

2- قال في خواتيم سورة مريم ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: 93] وفي سورة طه قال: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: 6] فما فيهما ومن فيهما له سبحانه فكل ما في السماوات وما في الأرض له سبحانه ومن فيهما هم عباده، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ فالكل سوف يأتي الله سبحانه وتعالى. وجملة ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني الملكية. ومن في السماوات هم عباده.

3- في ختام سورة مريم قال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: 98] وفي بداية سورة طه ذكر قصة فرعون إلى أن قال ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: 78] فقوله تعالى: "وكم أهلكنا" أي: خذوا فرعون مثلًا [102].

102- يُنظر: تفسير ابن جرير 647/15، تفسير القرطبي 162/11، تفسير ابن كثير 270/5، تفسير السعدي ص: 501، أضواء البيان للشنقيطي 519/3، تفسير ابن عاشور 177/16.

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات
تم بفضل الله تعالى
بتاريخ 1428/4/1 الموافق 2007/4/20

أسأل الله سبحانه وتعالى بمَنّهِ وكَرَمِهِ أن يجعلَنَا ممن أنعم الله عليهم بالتوحيد والإخلاص والتقوى والإيمان والعمل الصالح، وأن يحيينا خالصين مخلصين له، وأن يفقهنا في كتابه، وأن يجعلنا بالقرآن هُداةً مهتدين، وأن ييسر القرآن في ألسنتنا وقلوبنا، وأن يبشرنا به ويجعله لنا هدًى وبشرى وموعظةً وذكرَى وشفاءً لصدورنا.. وأن يجعله عصمةً لنا من كل شرٍ وبلاءٍ، وأن يحفظنا به ويرفعنا به في الدنيا والآخرة، وأن يجعلَنا من أهلِ القرآنِ الذين هم أهلُ اللهِ وخاصَّتِهِ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر:

1- **[تفسير القرآن العظيم]** المشهور بتفسير ابن كثير، للإمام: عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المعروف بابن كثير (المتوفى 774 هـ).

2- تفسير القرطبي **[الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان]** لمؤلفه: الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (المتوفى سنة 671 هـ).

3- **[جامع البيان في تفسير القرآن]** أو جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أو جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري للإمام محمد بن جرير بن يزيد بن كثير.

4- **[التفسير الوسيط للقرآن الكريم]** للمؤلف محمد سيد طنطاوي.

5- تفسير السعدي المسمى **[تيسير الكريم الرَّحْمَٰن في تفسير كلام المنان]** لمؤلفه: عبد الرَّحْمَٰن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376 هـ).

6- **[البحر المحيط]** لمؤلفه أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى 745هـ).

7- **[التفسير الميسر]** تأليف: مجموعة من كبار العلماء بمجمع الملك فهد.

8- **[معالم التنزيل في تفسير القرآن]** المشهور بتفسير البغوي لمؤلفه: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى 510هـ).

9- تفسير الشنقيطي **[أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن]**.

10- تفسير **[فتح القدير]** لمؤلفه: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى 1250هـ).

11- **[نظم الدرر في تناسب الآيات والسور]** لمؤلفه: البقاعي.

12- تفسير **[التحرير والتنوير]** لمؤلفه: محمد الطاهر بن عاشور (المتوفى 13 رَجَب 1393هـ، 12 أغسطس 1973م).

13- **[المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز]** لمؤلفه: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرَّحْمَٰن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى 542هـ).

14- تفسير الزمخشري **[الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل]** لمؤلفه: أبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى 538هـ).

15- تفسير البيضاوي **[أنوار التنزيل وأسرار التأويل]** لمؤلفه: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى 685هـ).

16- **[إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم]** لمؤلفه: أبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى 982هـ).

17- تفسير الماوردي **[النكت والعيون]** لمؤلفه: أبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى 450هـ).

18- **[تفسير المراغي]** لمؤلفه: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى 1371هـ).

19- **[المفردات في غريب القرآن]** لمؤلفه: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (المتوفى 502هـ).

20- **[التسهيل لعلوم التنزيل]** لابن جزي الغرناطي (المتوفى 741هـ).

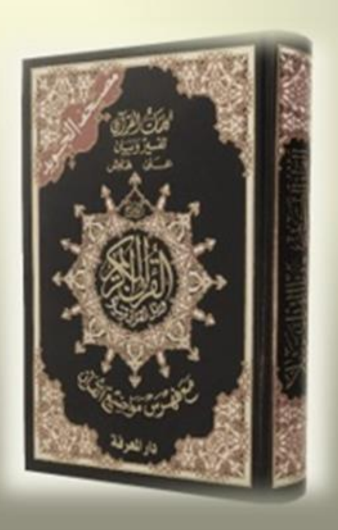
21- تفسير **[السراج المنير]** للخطيب الشربيني؛ شمس الدين محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى 977هـ).

22- **[معاني القرآن]** للأخفش: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى 215هـ).

23- **[لباب التأويل في معاني التنزيل]** لمؤلفه: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبي الحسن، المعروف بالخازن (المتوفى 741هـ)

24- **[اللباب في علوم الكتاب]** تفسير ابن عادل، لمؤلفه: عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي أبي حفص.

25- **[أحكام القرآن]** لمؤلفه: علي بن محمد بن علي أبي الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى 504هـ).



عن عبد اللَّه بن مسعود رضي اللَّه عنه أنه قال: "إذا أردتم العلم فانثروا القرآن.. فإن فيه علم الأولين والآخِرين"

كتب أخرى للمؤلفة:

- تبصرة أولي الألباب في تفسير فاتحة الكتاب.
- قطوف الأفكار لما لسورة الكهف من أخبار.
- لماذا نحفظ القرآن؟
- إلى من أدركت رمضان (مطوية).
- إليكِ يا أختاه (مطوية).

الإصدار الأول 2021